ملامح من تاريخ الأدب التركي

(مع نخبة أمثال تركية)

إحسان الملائكة

الناشر

المكتب العربي للمعارف

اسم الكتاب: ملامح من تاريخ الأدب التركي
(مع نخبة أمثال تركية)
اسم المؤلف: إحسان الملائكة
رسوم الغلاف: شريف الغالي

جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للناشر

الناشر
المكتب العربي للمعارف
26 شارع حسين خضر من شارع عبد العزيز فهمي
ميدان هليوبوليس - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون /فاكس: 0٢٦٤٢٣١١٠ - ٠١٢٨٣٣٢٢٧٣
بريد إلكتروني : Malghaly@yahoo.com

الطبعة 2019

رقم الإيداع :

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-276-366-

جميع حقوق الطبع والتوزيع مملوكة للناشر ويحظر النقل أو الترجمة أو الاقتباس من هذا الكتاب في أي شكل كان جزئيا كان أو كليا بدون إذن خطى من الناشر، وهذه الحقوق محفوظة بالنسبة إلى كل الدول العربية. وقد اتخذت كافة إجراءات التسجيل والحماية في العالم العربي بموجب الاتفاقيات الدولية لحماية الحقوق الفنية والأدبية .

المقدمة

إحسان الملائكة

دراستي في معهد اللغات الأجنبية التابع لجامعة استانبول والتي ختمت بحصولي على شهادة الكفاءة الأولية في اللغة التركية، وإقامتي في استانبول مدة خمس سنوات بين ثمانينات وتسعينيات القرن العشرين، اكسباني فرصة الاطلاع الحسن على الثقافة التركية الحديثة عموما، والأدب التركي بشكل خاص.

وقد دفعني إعجابي الشديد بحيوية الأدب التركي الحديث من جهة وتقديري الكبير لإبداع الكتاب الأتراك المحدثين من جهة أخرى إلى تأليف الكتاب الذي أضعه بين يدي قراء الأدب العربي كي تتهيأ لهم فرصة المقارنة بين الأدبين إذا كانوا ممن يهتمون بعملية المقارنة الأدبية والثقافية والفكرية مثلي أنا.

وألحقت بالكتاب مقالة مطولة عن تأثير فرمان التنظيمات المسمى (خط همايون شريف) على تغيير نمط الحياة التركية وتطوير الفكر والثقافة في تركيا مما كان له أعظم الأثر في ظهور حركات الإصلاح والجمعيات الثورية التي ختمت بثورة مصطفى كمال أتاتورك مؤسس الدولة التركية الحديثة، إذ وجدت أن الأدب التركي الحديث لا يمكن فهمه بدون هذه المقالة التمهيدية.

أما عن الكتاب الأتراك الذين فصلت الكتابة عن حياتهم وأثارهم فقد كان لابد لي من اختيار مجموعة محددة من أشهرهم وممن أعجبت أنا خصوصًا بشخصياتهم وبآثارهم وسيلحظ القارئ أنّ الاختيار

يتدرج بحسب تواريخ مواليد الكتّاب إلى أن يصل إلى آخرهم بحسب تاريخ مولده.

اعتذر أخيرًا عن أي قصور في الكتاب لأنّ الكمال ليس من صفات البشر، وفي هذا المقام يحلو لي ختامًا أن استذكر بيت شاعرنا العظيم أبي الطيب المتنبي:

ولم أرَ في عيون الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

ومن الله التوفيق.

من رائدات النهضة التركية الحديثة

الكاتبة / خالدة أديب – 1884-1964

في أحد أركان المجمّع السياحي لجامع السلطان أحمد باستانبول تقع العين على منحوتة تمثل رأس فتاة جميلة، الفتاة هي الكاتبة الشهيرة/ خالدة أديب، والتمثال نُصب تخليدًا لذكرى خُطبتها الملتهبة التي ألقتها في هذه البقعة عام 1919 احتجاجًا على احتلال الحلفاء للأراضي التركية بعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى.

على أحد مرتفعات ضاحية بشكتاش التاريخية، حيث تتكاثف أشجار الصنوبر العتيقة، وتتهدل أغصان الصفصاف الطرية التي تكاد أوراقها اليانعة تخفي الجدران الشامخة لقصور سلاطنة العثمانيين المطلة على بحر مرمرة بجزره المتناثرة على مدّ البصر، يلفت الأنظار منزل كبير، على بوّابته الخارجية عُلقت لوحة كُتب عليها "بيت الصفصاف البنفسجي"، هذه الدار هي مسقط رأس الجندية الشجاعة والخطيبة البارعة والكاتبة ذائعة الصيت خالدة أديب.

لم يبقَ في ذاكرة خالدة أديب من والدتها "بدري فيم هانم" غير صورة بعيدة غائمة تعجز عن تبيُّن تفاصيلها، فقد توفيت أثناء ولادتها التالية، حين كانت خالدة في سنتها الثالثة.

لكنّ والدها أديب بيك، الموظف الكبير في السراي، لم يألُ جهدًا في تربية ابنته وتنمية مواهبها، وكان حريصًا على غرس محبة العلم

والثقافة في قلبها، ولذلك اختار أشهر الأساتذة من أجل تعليمها وتزويدها بمختلف العلوم وشتى المعارف.

لا تتذكر خالدة أديب جدّها لأبيها "علي أغا" المشرف على إدارة مقهى السراي العثماني، لكنها ظلّتْ تثني على جدتها لأمها "نقية هانم" أحسن الثناء، إذ كانت هذه سيدة مثقفة قياسًا بنساء عصرها، كانت تقرأ وتكتب الشعر وتؤلف القصص في موضوع الحبّ، وهو أمر غير مسموح به لنساء ذلك العهد، ولهذه الجدّة يعود الفضل في نزوع خالدة أديب إلى تأليف القصص منذ عهد صباها الأول.

بعد وفاة السيدة / بدري فيم، تزوج أجيب بيك امرأتين واحدة من بعد الأخرى، فكبر حجم الأسرة وتضاعف عدد الخدم والعبيد في الدار الكبيرة حيث (رفضتْ الدولة العثمانية تطبيق قانون إلغاء الرق والاستعباد في أراضيها مع أنه كان قد طبق في أغلب أنحاء العالم المتمدن في نهاية القرن التاسع عشر)، ثم قرَّ رأي الوالد أن تقيم خالدة مع جدتها "نقية هانم" في ضاحية اسكودار الكائنة في القسم الأسيوي من استانبول، وكان يقوم على خدمة جدتها رجل متعلم جيدًا اسمه "لالة أحمد أغا" ويملك من الذكاء ما يتفوق به حتى على أسياده، وتعتقد خالدة أديب أنه كان المسؤول أو صاحب الفضل الأول في تعميق خيالها عن طريق حكاياته وأساطيره الشعبية التي كان يقصها عليها بطريقته الشيّقة، مما هيَّأ لها التصرف الحسن بالتراث الشعبي لوطنها، ولم يكن لينسى القصص الإسلامية من مثل سيرة أبي مسلم الخراساني، وحكاية القائد التركي باطال غازي، وما إلى ذلك كل ذلك سيساهم في مستقبل أيامها على إبداعها للشخصيات

الشعبية الطريفة في رواياتها، ومن ذلك أبطال روايتها الشهيرة "سنيكلي بقّال".

وفي تحقيق صحفي مع الروائية خالدة أديب، أجراه الكاتب روبين أشرف عام 1918، يقدّم للقراء وصفًا دقيقًا لهيئة خالدة أديب في ذلك الوقت، وكانت في الرابعة والثلاثين من عمرها:

شعرها أشقر، وجهها ممتلئ يتألق بماء الشباب، عيناها نجلاوان يعلوهما حاجبان طويلان رفيعان، أنفها جميل، صوتها شجي ومؤثر، لهجتها مهذبة، تختار أقصر العبارات للتعبير عن أكبر مقدار من المعاني والأفكار، تتحدث بنبرة عالم متخصص، أسلوبها في الكلام سلس ومشوّق، مختصر القول هي من أولئك النسوة اللواتي يحققن أخيلة الشعراء.

ولما كان أديب بيك، والدها، شديد الإعجاب بالأسلوب الإنجليزي في التربية، فقد حاول تطبيق هذا الأسلوب في تنشئة بناته، فكان يحدد لهن الملبس والمأكل والمشرب بشكل صارم، لكنّ الطفلة خالدة؛ التي تميزت عن لداتها بالاستقلالية وقوة الشخصية، ظلت تبذل قصارى جهدها كي تكسر طوق تلك القيود، فكانت تصرّ بعناد على الأكل واللعب واللبس كيفما شاءتْ لها نزوات طفولتها.

حين بلغت خالدة أديب الخامسة من العمر تمَّ تسجيلها في روضة مخصصة لأطفال أسر الأقليات من المسيحيين والأوروبيين، فكانت الطفلة التركية المسلمة الوحيدة بين الأطفال فيها، ولما لحظت مديرة المدرسة، وهي سيدة أجنبية، انكفاء الطفلة على ذاتها وشدة حيائها

وجهت إليها عناية خاصة مما أعانها على التغلب على ذلك النقص الذي كان يمكن أن يعوق نموّ شخصيتها.

تشير خالدة أديب أيضًا إلى سيدة أجنبية كانت تقيم معهم في الدار، وفي أحد أيام الأعياد دعتها إلى غرفتها وأخرَجتْ من مكتبتها الكبيرة كتابًا سياحيًا مصورًا عن أفريقيا، وقدمته هدية إلى خالدة، فكان لذلك الكتاب فعل السحر في نفسها، ومن يومها تفتحت نفسها للمطالعة التي صارتْ أحدى عاداتها الراسخات.

وحين بلغت خالدة أديب الحادية عشر من عمرها، كانت دار والدها قد ضاقت بساكنيها، زوجاته وأبنائهن والخدم والعبيد...إلخ، مما اضطره إلى إسكانهم في دارين اثنتين بدلاً من واحدة، وهكذا فارقت خالدة بيت الصفصاف البنفسجي لتقيم مع بعض أهلها في مسكن آخر. في هذا الوقت سجَّلها والدها في "الكوليج" الأمريكية التي كانت تشترط بلوغ الفتاة الرابعة عشرة من عمرها عند دخولها المدرسة، فكان عليه أن يغيّر "بيان ولادتها" مضيفًا إليه سنتين وعدة أشهر، كي توافق المدرسة على تسجيلها، هذا التحريف في بيان الولادة سيكون في قابل الأيام مثار بلبلةٍ بين الدارسين حول تاريخ مولد خالدة أديب.

من مظاهر عناية أديب بيك ببناته أنه كان ينفق المال بلا حساب على المدرسين الخصوصيين الذين كان يحضرهم إلى المنزل، كي يقوموا بتدريسهن مختلف العلوم والفنون، كان من نصيب خالدة مدرس للقرآن وآخر للغة العربية وثالث للموسيقى، كان الأب مشغوفًا بالموسيقى ويتمنى أن يشاركه أبناؤه هوايته، لأنه يدرك مدى أهمية هذا الفن في صقل ذوق الصغار وتهذيب خلقهم، لكن خالدة أديب

اعترفت فيما بعد إنها كانت جدّ حزينة لأنّها خيَّبت أمل والدها في هذا الجانب، إذ لم يكن لديها أي ميل لتعلم الموسيقى.

هناك ظروف أخرى ساهمت في تطوير شخصية خالدة أديب وتوسيع آفاقها الثقافية، من ذلك حضورها الندوات الثقافية التي كانت تعقد في منزل الموسيقار "نوري منا بير زاده" وهو رجل رفيع الثقافة ومن أعضاء جمعية العثمانيين الجدد "جون تور كلر" وكان قد تعلم الفرنسية أثناء إقامته في باريس بصحبة صديقه الشاعر الوطني نامق كمال، هربًا من اضطهاد العثمانيين للمفكرين العصريين، وكان والدها معتادًا على اصطحابها إلى تلك الدار، أثناء الاجتماعات الدورية، على الرغم من صغر سنّها ليعينها على تجاوز حيائها الشديد من جهة، وليغرس في قلبها بذرة المعرفة وعشق الفنون، من جهة أخرى.

عدا عن كل ذلك، كانت تحضر إلى الدار سيدة إنجليزية غابّ اسمها عن ذاكرتها، كانت تقوم بإعطائها دروساً في اللغة الإنجليزية، وكان لها الفضل الأكبر في توجيهها بشكل فعّال، إلى التأليف الروائي. وبعد أن لحظ أبوها شغفها بالمطالعة اتفق مع صديقه الشاعر الفيلسوف رضا توفيق على أن يعطيها دروساً في الأدب والثقافة العامة، فكان لهذا الأديب المفكر الشهير الدور الأعظم في توجهها إلى الأدب وتكريسها لحياتها كلها لهذا الفرع الهام من المعرفة الإنسانية، وكثيراً ما صرّحت فيما بعد بفضل هذا الكاتب الشاعر عليها وبعمق الأثر الذي تركه في نفسها وعقلها، ومنه تعلمت كيف تتفهم الأدب الصوفي المشرقي وتتعاطف معه.

في سنة 1900 أعيد تسجيلها في "الكوليج" الأمريكية للمرة الثانية، لكن في القسم الداخلي منها، بعد أن كانت قد اضطرت إلى الانتقال منها إلى مدرسة أخرى، بسبب الوظيفة التي كان يشغلها والدها في السراي العثماني الذي يمنع أبناء موظفيه من الدراسة في المدارس الأجنبية، وفي عام 1901، السنة التي تخرجت فيها، تمَّ زواجها بالأستاذ صالح ذكي، صديق والدها، وكان يتردد على دار أسرتها لإعطائها دروسًا في الرياضيات، كان صالح ذكي من المتحمسين للعلم والمعرفة ومؤلفًا بالفلسفة لاسيما فلسفة أوغست كومت، وكان يصرح بأنّ العلماء هم وحدهم الجديرون بالاحترام والحب من بين البشر أجمعين. هذه الآراء وأمثالها سحرت قلب الشابة المتطلعة إلى المعرفة فوافقت على الزواج منه حالما تقدم إلى والدها طالبًا يدها، وفي سنة 1903 وضعتْ بكرها الذي أطلقوا عليه اسم "آية الله"، وفي عام 1904 قدم إلى الدنيا أبنهما الثاني فأسموه "حكمة الله"، في هذه السنوات كان صالح ذكي يعمل في مركز الرصد الجوي في حين بدأتْ هي بالاستعداد لنشر إنتاجاتها الأدبية، إذ كان الخدم والمربيات يكفونها أغلب أعمال المنزل، مما كان يعينها على التفرغ للكتابة والتأليف.

في سنة 1908 ظهرت مقالاتها وقصصها في المجلات الدورية والشهرية مثل "المجموعة الجديدة" و "أقشام" و"الوقت" و"شهبآل"..إلخ.

في عام 1909 قامت برحلة سياحية إلى مصر وإنجلترا، ثم عُيّنت مُدرّسة في دار المعلمات باستانبول بعد ذلك نُقلتْ إلى وظيفة مفتشة

عامة لمدارس البنات في ولايتي لبنان والشام، ولبثت فيها بين سنوات 1910-1917 وفي سنة 1918 عُيّنتْ مُدرسة للأدب الأوروبي في جامعة استانبول.

قبل هذا التاريخ على أيه حال تعرضت خالدة أديب لصدمة شديدة أدَّت إلى طلاقها من زوجها أستاذ الرياضيات صالح ذكي، وفي إحدى المقابلات الصحفية روت بلسانها تفاصيل ذلك قائلة: "طلاقي من زوجي الأول نشأ عن زواجه بامرأة ثانية حين كنتُ في ذمته، ولست امرأة تتحمل فكرة تعدد الزوجات، فوراً طالبتُه بالطلاق فوافق عليه، بعد طلاقي منه لم يكتف بتلك الزوجة وإنما تزوج أخرى أيضاً، وصار له أولاد من أولئك الزوجات، واعتادوا أن يزوروني بين الحين والآخر، عليه رحمة الله".

في سنة 1917 تمَّ زواج خالدة أديب بالعلاّمة "عدنان آدي فار" الذي أصبح فيما بعد رئيسًا لهيئة تأليف الانسكلوبيديا التركية، وقد وصفه "د.سامي سرمد أويصال"، رئيس قسم تعليم اللغة التركية للأجانب في معهد اللغات بجامعة استانبول (حيث درستْ كاتبة المقال هذه اللغة التي كانتْ على جهلٍ تام بها من قبل، بين سنوات 1980-1983 وتحت إشرافه واعتمادًا على نجاح مدّرسات القسم ومدرّسيه، أثناء تلك الدورة، في مهمتهم) وصفه على الصورة التالية:-

"ياللأسف، لم يبقَ لنا علماء من نوع عدنان آدي فار، كان يجمع بين نبل الأخلاق وحلاوة المعشر من جهة، وعلوّ المقام في الجانب التخصصي وعمق الثقافة من جهة أخرى، إلى جانب ذلك كان ذا حماس شديد لنشر العلم والثقافة بين طبقات المجتمع جميعًا دون

تفريق أو تمييز، بعد وفاته أحسستُ بفراغ كبير في نفسي وحزنت لفقده وكأنما فقدت بذهابه، أقرب الأقارب مع أنه لا يمتُّ إليَّ بأية صلة قرابة".

بعد عودتها من سوريا سئلتْ خالدة أديب عن انطباعاتها الشخصية حول سوريا فأجابتْ "أحببتُ الأجواء الصحراوية التي تلفّ هذه البلاد بما فيها من ألوان زاهية وأجواء شفافة، وأثارت إعجابي منائرها الشامخة وقبابها المزخرفة، وظللت أنظر بدهشة إلى حياة الناس المكتنفة بالأسرار، من ذا الذي لا يسحرهُ غموض الشرق يا ترى؟".

من هذه الصور الضبابية يمكن للقارئ أن يستشفّ مدى إحساس الكاتبة التركية، ذات الثقافة العصرية، بتخلف بلاد الشام في نهايات الحكم العثماني، فلم يستثر اهتمامها في هذه البلاد العامة، كلها، غير رمال الصحارى، وألوان السراب وانكفاء أهلها على أنفسهم بحيث لا يجد الأجنبي ما يؤول به ذلك غير غموض الشرق وسحره!! ولم يخطر لها أن تسأل نفسها عن مسؤولية الحكام العثمانيين عن تصحُّر وادي ما بين النهرين الخصيب العظيم، وتحوّله إلى بواذْ وقفار ممتدةً بلا نهايات ترعب من يقطعها فلا يتذكر عندئذٍ غير السحر والأسرار والطلاسم وما إلى ذلك.

عند نهاية الحرب العالمية الأولى لحقتْ الهزيمة بقوات الدولة العثمانية في جميع الجبهات، فاقتسم الحلفاء أراضيها واحتلوا مدن تركيا واحدة بعد الأخرى.

وفي يوم 15 أيار/ مايس 1919 اجتاحت القوات اليونانية مدينة أزمير، فكان لهذه الكارثة وقع الصاعقة في نفوس الأتراك الذين اندفعوا غاضبين إلى الشوارع ينظمون المسيرات والمظاهرات، وكان الخطباء الوطنيون يثيرون الجماهير بخطب حماسية ملتهبة، لكن الاجتماع الأعظم الذي شهدته استانبول في تلك الأيام كان ذلك الذي نظمته القوى الوطنية في ميدان السلطان أحمد يوم السادس من يونيو/ حزيران عام 1919، حيث كانت الرايات السود ترتفع فوق المباني والمآذن في كل مكان رمزًا لحزن الشعب على الهزائم التي لحقتْ بدولتهم وتجاوز عدد المجتمعين في الميدان مائتي ألف إنسان. فجأة رأى المجتمعون فتاة جميلة تغطي شعرها بعصابة حريرية سوداء تسير مخترقة الجموع الحاشدة بصعوبة، وتتقدم نحو منبر موجود في أحد المواضع، ثم ترتقيه، كانت تلك خالدة أديب زوجة البروفسور عدنان آدي فار Adl Var. كانت في الخامسة والثلاثين من العمر، تهدج صوتها المؤثر حين شرعت تلقي خطبتها التالية:-

"أيها الأخوة أيها المواطنون، إنّ التاريخ العثماني المجيد الذي شهدته هذه المنائر المرتقية إلى قبة السماء، أصيب اليوم بكارثة جديدة التي حلَّتْ بالوطن، وها إني أرفع رأسي بتهيّب إلى أرواح أجدادنا التي لم تقهر يومًا لأقول لهم: على الرغم من كوني فتاة مسلمة منكوبة، لكني سأبقي أبدًا أمًّا بطلة لن تخيب آمالكم. أيها الأخوة إنّ لكم اليوم في العالم نصيرين اثنين، أولهما المسلمون في كل أرض، والآخر صوت الأمم المتمدنة التي لابد أن تطالب بحقكم المغتصب. وليس اليوم الذي سنستعيد فيه حقنا ببعيد، وحين يتحقق ذلك ارفعوا الرايات وتوجهوا لتحية شهدائنا الأطهار الذين افتدوا الوطن بأرواحهم الغالية، والآن

فلنؤد القسم التالي: لن يخمد الحماس المقدس في أرواحنا حتى يتم إعلان حقوق الشعوب:.

عندئذ هتف مئتا ألف إنسان: نقسم على ذلك، ووصل حماس الجمهور ذروته، فهتف رجل كان يقف إلى جانب المنبر بصوت متهدج بالبكاء: شعبي يا شعبي المسكين! ثم أغمى عليه.

عند هذا علا صوت النحيب والبكاء من جوانب الميدان كانت القلوب تتقطع حزنا لما آل إليه الحال بالإمبراطورية العثمانية ذات الجلال.

كان لخطبة خالدة أديب تأثير هائل في نفوس المستمعين بحيث لم يضعفه مرور نصف قرن من الزمان عليه.

ومما رد فيها قول لخصتْ به رأيًا سياسيًا خطيرًا، يمنح صاحبته قدرًا عظيمًا من التقدير والاحترام، فقد قالت "أصدقاؤنا الشعوب وأعداؤنا الحُكام" وبهذا برهنت على تمتعها بروح عصرية حقيقة.

في كتابها "امتحان التُرك بالنار" تصف خالدة أديب حال الجمهور في ذلك اليوم وتتحدث عن نفسها فتقول: "سرتُ أشقّ طريقي بين الجموع الهائلة وكأني مسحورة، قدّامي وورائي كان يميني عدد من الرجال الأقوياء، يفتحون لي الطريق، ويرشدوني إلى موضع المنبر، شعرتُ بأني شبه مكهربة، جسدي كله كان يرتعد انفعالاً حتى رحت أتمايل في مشيتي على أني استعدت هدوئي حالما اقتربت من المنبر القريب من منائر السلطان أحمد، فقد أحسست أنّ كلّ منارة منها تقدم إليَّ تحية التشجيع والحنان، كانت تلك في الحقيقة تجربة حياتي الكبرى".

بعد دخول قوات الحلفاء أراضي تركيا، واحتلالهم لمدنها، لم يبقّ أمام المتنورين غير الالتحاق بحركة التحرير التي يقودها مصطفى كمال باشا في شوارع المدن التركية كان المارّة يشاهدون لافتات تحذر الناس من الانضمام إلى حركة المقاومة التي يقودها مصطفى كمال باشا، وتعرض مبالغ كبيرة من المال لكل من يبلّغ عن الملتحقين بتلك الحركة، في ذلك الوقت كان المسافرون إلى الأناضول يستفيدون من خدمات تكية صوفية واقعة في ميدان السلطان أحمد، كانت تقدم لهم الملجأ المجاني الأمين حتى يعثروا على وسيلة النقل التي تبلغهم مقصدهم، مثل أولئك الناس أقامت خالدة أديب وزوجها أياماً انتظارًا لأخبار تصلهم من قيادة جيش المقاومة.

تروي في كتابها "امتحان التركي بالنار" ذكرياتها عن تلك الأيام فتقول :"الحلفاء حين دخلوا بلادنا لم يسقطوا الخلافة، بل آثروا أن يحكموا البلاد باسمها، وبذلك ظلَّت القرارات الرسمية تصدر في سراي السلطان العثماني كالعادة. أحد تلك القرارات تضمن الحكم بالإعدام على ستة أشخاص في مقدمتهم مصطفى كمال باشا ومنهم خالدة أديب والدكتور عدنان آدي فار Adl Var، هذا القرار عُلق نصّه في الساحات العامة، بشكل بارز، فتوجب علينا التخفي جهد الإمكان، في أحد الأيام اضطررت إلى ركوب الباخرة التي تقلني إلى القسم الآسيوي من استانبول، كان البرد قارسًا، نزلت إلى الباخرة واتخذت موقعي في إحدى مقصوراتها. فجأة لحظت أنّ فتاة تطيل التحديق في وجهي، وإذا بها إحدى تلميذاتي. كنت أرتدي ملابس امرأة أناضولية لإخفاء شخصيتي، فتظاهرتُ بأنني لا أعرفها، أخرجت من جيبي العريض مقدارًا من التبغ الجاف ورحت ألفه

بورق السكائر الخفيف بأسلوب المرأة الريفية، لكن الفتاة ظلت تنظر فيّ بدهشة وحين رأيتها تحرك شفتيها وكأنها تريد ألقاء التحية عليّ شرعت أضع الفستق المالح في فمي وأرمي قشوره من بين أسناني على أرضية الباخرة. فبدت خيبة الأمل واضحة على وجه تلميذتي، فلقد برهنت لها بهذه الحركة الخشنة أنني لا يمكن أن أكون مدرستها المحترمة خالدة أديب! وبالفعل أدارت الفتاة وجهها نحو البحر ولم تلتفت إليّ بعد ذلك، والحق إني لم أخشَ أن تشي بي تلميذتي هذه، لكنني خفت عليها هي، فلم يكن من مصلحتها أن تشاهد في مكان عام مع سيدة محكوم عليها بالموت".

شاركت خالدة أديب في حرب التحرير من بدايتها حتى منتهاها حين تم النصر وانسحبت القوات الأجنبية من الأراضي التركية بعد توقيع المعاهدة. ويرى الدارسون أنّ وجود امرأة واحدة بين الجنود في تلك الظروف، كان يقوّي الروح المعنوية لهم، وعرف الناس فيما بعد أن الكاتبة الشجاعة كانت تؤدي واجبات متباينة في الجبهة ومن أهمها التمريض، ثم الترجمة والكتابة، ويقال إنها شاركت في القتال في الخطوط الأمامية.

وتعترف في كتابها المشار إليه أن زوجها الدكتور عدنان آدي فار كان يحمل في جيبه علبة صغيرة فيا سمٌ قاتل، واتفق مع زوجته على أن يتجرعاه إذا انكسر جيش التحرير واضطر الجنود إلى الاستسلام. حالما انضمت خالدة أديب إلى حركة المقاومة أنضم إليها مصطفى كمال برتبة عريف "أون باشي" ثم ترقت بعد ذلك فبلغت رتبة ضابط "جاووش" . على أنها لم تكن مجرد جندية عادية؛ بل أعتبرها

مصطفى كمال هي وزوجها من أصاحبه المقربين، وكانا يعملان تحت أمرته مباشرة.

في مقابلة صحفية، سئلت خالدة أديب عن سبب الحكم عليها بالإعدام فقالت: "القرار زعم أن المتمردين الستة خرجوا عن طاعة السلطان، ولأجل ذلك استحقوا الموت". لكن حركة المقاومة الوطنية صمدت وواصلت انتصاراتها على الرغم من قوة أعدائها، بعض المحللين السياسيين ينسبون ذلك إلى المساعدات "الأخوية" التي قدّمها الاتحاد السوفيتي بدون قيد أو شرط، وإلى الصداقة الشخصية لينين ومصطفى كمال. ثم أن انضمام أهالي الأناضول إلى الثورة ساهم إلى حدّ كبير في ظفرها وفي تقوية معنويات القائمين بها.

لكن قد يتساءل الإنسان: لماذا تغافلت قوات الحلفاء المحتلة للأراضي التركية عن تحركات مصطفى كمال مع أنها كانت تستطيع القضاء عليه قبل أن تقوى شوكته ويشتد ساعده؟

في الواقع أنه سؤال وجيه وفي حاجة إلى دراسة معمّقة قد لا يستوعبها هذا المقام. لكن يرى بعض المحللين أنّ مصطفى كمال نجح في الإيحاء إلى الغربيين بأنه إسلامي النزعة، أو ربما توصلوا هم إلى هذه النتيجة بسبب انضمام بعض الطوائف الإسلامية في تركيا إلى قواته، نكاية بالعثمانيين الذين هضموا حقوق تلك الطوائف طوال عهدهم. واستنادًا إلى هذا الرأي لم يأخذ الغربيون ثورة مصطفى كمال مأخذًا جديًا اعتمادًا على معرفتهم بتاريخ العالم الإسلامي، فقد كانوا على ثقة تامة في أن انتصار ثورته سيؤدي حتمًا إلى نشوب القتال فيما بين المنتصرين أنفسهم، إذ ستصرّ كلٌّ طائفة

دينية على أن تستأثر بالحكم دون زميلتها. وهكذا يتحول النصر المبين إلى هزيمة ساحقة، وتبوء الحركة كلها بالخسران.

في سنة 1923 أعلى مصطفى كمال باشا إلغاء السلطنة العثمانية، واستبدالها بالنظام الجمهوري في تركيا، وأنتُخب هو رئيساً للجمهورية.

ضمن ذكرياتها عن فترة حرب التحرير، تنقل خالدة أديب إلى القارئ الحوار التالي الذي جرَى بين مصطفى كمال باشا وبينها في جبهة القتال، وكانت وقتئذ برتبة عريف "أون باشي" فتقول:-

"كنا نجلس حول المائدة، بمقابلي كان يجلس القائد فوزي باشا، وعلى أحد الكراسي جلس عصمت أينونو باشا، في حين تصدر مصطفى كمال باشا المائدة ومضى يحدثنا عن انتصاراتنا الأخيرة، ونحن نصغي بسرور، ثم قلت له:-

إذا تحررتْ أزمير فلكَ أن ترتاح يا سيدي بعد هذا التعب الفظيع.

مصطفى كمال:" أنا أرتاح؟ بعد التحرير ستبدأ معاركنا الداخلية، أي فيما بيننا نحن، سيأكل بعضنا بعضًا.

لماذا ؟ أليس لدينا مشاكل كثيرة سيستغرق حلها كل أوقاتنا؟

وماذا عن الذين سيذهبون إلى صفّ المعارضة؟!

ذلك سيكون في المجلس النيابي بالطبع؟

كلا! فحين تنتهي معركتنا ضد الأجانب المحتلين فإنّ وضعنا الداخلي سيصبح عسيرًا. ما علينا أيتها السيدة حينذاك إلا أن نوجد وضعًا مثيرًا آخر !

هذه الحادثة قد تُلقي الضوء على عقلية كثير من السياسيين والزعماء في العالم. وإذ كانت خالدة أديب هي التي ترويها، فربما نستطيع أن نستشفّ منها مقدمًا أسباب الخلاف الذي سينشب بينها وبين مصطفى كمال، بعد استتباب الأمر له وارتقائه إلى منصب رئيس الجمهورية الأولى. فقد اضطرت مع زوجها البروفسور عدنان آدي فار إلى مغادرة تركيا في هجرة طويلة استمرت من عام 1924 إلى عام 1940 أي إلى ما بعد وفاة أتاتورك بسنة واحدة. ولما سألها الدكتور سرمد سامي، في مقابلته الصحفية لها عن أسباب تلك الهجرة بعد كل التضحيات الكبيرة والخدمات العظمي التي بذلتها هي وزوجها أثناء حرب التحرير، اكتفتْ بالإجابة الموجزة التالية:-

"سؤالك سياسي جدًّا! أظنّ من الأفضل عدم الإجابة عليه في الوقت الحاضر!".

هذا الجواب في حدّ ذاته يتضمن نوعًا من الاتهام لسياسة كمال أتاتورك، فالكاتبة هنا تخشى التصريح بالحقيقة، ربما لأنّ السياسة التركية وقتئذ كانت ما تزال سائدة على الخطّ الذي رسمه أتاتورك، وهي، أي الكاتبة، في غنى عن إثارة مشاكل جديدة لنفسها. ومن المعلوم أن أتاتورك كان نزّاعًا إلى الدكتاتورية لم يسمح للمفكرين بإبداء آرائهم في القضايا العامة مما أدى إلى سجن ونفي عدد كبير منهم وفي مقدمتهم الشاعر ناظم حكمت، والكاتب الروائي كمال

طاهر، والكاتب المفكر هاليكارناس بالكجي سي، والكاتب الفيلسوف رضا توفيق وعشرات غيرهم.

على أن وصف أتاتورك بالاستبداد، لا يجوز أن يقلل من تقدير دوره العظيم في تحرير الأراضي التركية من احتلال قوات الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى من جهة، ونقل تركيا من حالة التخلف القديم الذي كان سمة الإمبراطورية العثمانية، إلى حالة الدولة العصرية القوية التي أصبحت إحدى أهم بلدان العالم الإسلامي وأكثرها تقدما، من جهة أخرى، فالأمور نسبية، ومن يغفل عامل النسبية في النظر إلى شؤون العالم، فإنه سيجد نفسه في عجز محزن عن فهم الأشياء، ولن يبقى له غير الخلود إلى اليأس ونفض اليد من الحياة كلها. إن الخير والشر نسبيان بل أنهما متجذران في كل نفس إنسانية، وليس هناك خير محض ولا شر مطلق، بقول أبو العتاهية:

لكل إنسان طبيعتان... خير وشرٌ وهما ضدانّ!

والخير والشرُّ إذا ما عُدّا... بينهما بون بعيد جدا.

والمثل العربي الذي يقول إن بعض الشر أهون من بعض، ربما يصلح لعالم السياسة أكثر من صلاحيته في أي ميدان آخر، فالسياسي يعرف ويتعرض لأوضاع خطيرة متباينة قد لا يشعر بها الجالس في معزل عن الأشياء، أو حسن النوايا الذي لم يذق بعد من كأس التجارب المريرة.

وليس من الجائز أن يطالب زعيم شعب جاهل ومحروم من أبسط حقوق الإنسان بأن يتعامل معه، كما يتعامل حاكم دولة متقدمة عاش

أبناؤها في أجواء ديمقراطية لمئات السنين. وعلينا دائما ألا ننسى بأن الاستبداد في الشرق هو سمة المجتمع نفسه، والعائلة الشرقية ذاتها هرمية، لا تعرف للديمقراطية معنى، ولا تمنح أفرادها حق المساواة، ويسري هذا الحكم من ثم على أغلب المؤسسات الأخرى في الشرق. والحاكم المستبد بهذا المعنى هو نتيجة، كما أنه سبب في الوقت عينه، ومع ذلك فليس من شأن هذا المقال تبرير سياسة مصطفى كمال أو غيره من الزعماء، وإنما تترك هذه الأحكام في النهاية للمؤرخين المتخصصين.

في سنة 1924 غادرت خالدة أديب وزوجها د.عدنان آدي فار تركيا كلها في هجرة امتدت أكثر من خمسة عشر عامًا قضياها بالعمل في التدريس وإلقاء المحاضرات في أوروبا وأمريكا والهند، ولم يعودا إلى وطنهما إلا بعد وفاة أتاتورك.

في عام 1950 انتخبت خالدة أديب نائبة عن مدينة أزمير حيث بقيت في المجلس النيابي أربع سنوات. بعد ذلك انصرفت إلى التدريس في جامعة استانبول بقسم الآداب وكانت وفاتها في التاسع من كانون الثاني 1964.

*** ***

في سنة 1918 نشر روشن أشرف كتابه "يقولون"، وكان في ذلك الوقت شابًا في مطلع حياته الثقافية، ولم يبلغ بعدُ المناصب الدبلوماسية التي سيحتلها في مستقبل أيامه ومن وصفه لمكتب خالدة أديب الذي استقبلته فيه، يستطيع المرء أن يتعرف على بعض جوانب شخصيتها، وعلى أسلوب حياتها بشكل عام قال: "الغرفة غطيت كل جدرانها بورق صقيل أنيق، على الأرائك فرشت قطع السجاد الفاخر، وهناك ديوان من الخشب النفيس ذي صنعة عصرية يقابله في الجانب الآخر من الغرفة بيانو كبير. في إحدى الزوايا توجد مدفأة من الجيني الأخضر، لكنّ الذي لفت نظري، ذلك الجدار الخشبي الذي يتحرك على هيئة عجلة دوارة، ويمثل في الواقع مكتبة خالدة أديب هناك أيضا ثريا وردية اللون تتدلى من السقف وتنعكس أنوارها على الجدران الملونة. على أحد الجدران عُلقتْ لوحة جميلة حفر على حجرها المرمري وجه الشاعر التركي الشهير توفيق فكرت".

من أجوبتها على أسلة روشن أشرف، نتعرف إلى أهم آرائها في الأدب وشؤون الثقافة تقول: "حين أكتب روايتي أدير الموضوع وارسم الشخصيات والأحداث في ذهني قبل مباشرة الكتابة بفترة طويلة، لكن بعد أن استغرق في التأليف، تقوم الشخصيات بعرض نفسها عليَّ، أي أنها تتحكم بي، ولستُ أنا التي تحرّكها، كل شخصية من شخصيات الرواية تتصرف بحسب خصوصيتها هي، ولا يبقى لي إلا أن أقتبس أقولها. هكذا أشعر في الواقع".

هل لكِ وقتٌ محدد للتأليف، صباحًا مثلا؟ هل ترجحين السكون والهدوء عند الكتابة؟

حين بدأت بالتأليف والكتابة كان أولادي ما يزالون صغارًا، وكان الخدم والمربيات يقاطعونني عدة مرات أثناء الكتابة، فأضطر إلى الإجابة دون أن أرفع القلم عن الورقة خشية هروب الأفكار من ذهني، أي أن المقاطعات المذكورة لم تكن تؤثر أو تعوق كتابتي. أما الآن، فألتمس الوحدة والهدوء التامّين عند التأليف، إذ أكون في ذلك الوقت شديدة الحساسية ضد الأصوات وسريعة الغضب إذا قاطعني أحد. احتسي القهوة وأدخن بشراهة عند الكتابة، اختار للكتابة دائما أوراقًا كبيرة الحجم، ولا أغيرها. كذلك لا أغير المكان الذي أكتب وأؤلف فيه أبدًا، المكتب ذاته، والأوراق والأقلام كلها معدة ومرتبة في أماكنها.

على أنني كثيرة الهواجس، فبعد انتهائي من أي كتاب أشعر بالجزع أو أتصور إنني فقدت القدرة على التأليف، لكنني استعيد ثقتي بقلمي حالما أعود إلى الكتابة. أفضّل ساعات الصباح أو المساء للكتابة إذ أكون متفرغة بشكل أحسن.

عندما بدأتِ بالتأليف لأول مرة في حياتك، هل كان لديك هدف محدد تبغين الوصول إليه؟

أنا أكتب من أجل الكتابة ذاتها، وليس من أجل أي هدف أخر، فلم أسع إلى الشهرة يومًا، ولم أكن في حاجة إلى المال، لكني حين أكتب أحس بسعادة غامرة.

في طفولتي كنت ابتدع الحكايات وأقوم بتمثيلها مع نفسي، الصور الأدبية كانت تتدفق في ذهني فأحتاج إلى الإفصاح عنها، وهكذا لجأت إلى الكتابة واعتدتُ عليها.

بعد انتهائي من تأليف أية رواية ألقيها جانبًا ولا أراجعها لأنني أفقد الاهتمام بها، أنا في هذا، مثل الحيّة التي لا تعود إلى جلدها بعد خروجها منه!

أيّا من الكتاب الفرنسيين تفضلين؟

كنت سابقًا شديدة الإعجاب بشعر بايرون، لكنه الآن فقد منزلته تلك لديّ، أقرب الشعراء الإنجليزي إلى نفسي شكسبير وأنا مدمنة على قراءته كما أدمن قراءة الإنجيل بلغته الإنجليزية، ولا استطيع الاستغناء عنه أبدًا.

من التيارات الفنية الإنجليزية أُفضّل جماعة "ما قبل الرفائيلية" إذ أحب لوحاتهم وأفهمها.

من الروائيين الإنجليز أقرأ ديكنز لأنه إنساني النزعة، أما عن الفرنسيين فأجد في واقعية إميل زولا وإنسانيته ما يجعله أعظم كتّاب العصر الحديث في رأيي. من النساء تعجبني كتابات جورج صاند، أنا كذلك شديدة الإعجاب بروايات دوديه وموباسان.

وما رأيك في شعرائنا الأتراك؟

في شبابي كنت أعجب بشعر عبد الحق حامد لأنّ أستاذي الفيلسوف رضا توفيق كان ميّالاً إليه ولا يفتأ يشرح لي معانيه وأفكاره وأحببت

قصيدته المعنونة "طارق"، في ذلك الوقت كنت أرى رضا توفيق أعظم إنسان في العالم فلا عجب أن أرى في عبد الحق حامد أعظم الشعراء الأتراك. من شعراء التنظيمات ترك نامق كمال في نفسي أعظم الأثر، أشد ما أحببته فيه وطنيته الملتهبة، وجسارته في إبداء آرائه ومثاليته السامية.

أما شعراء الديوان فلم يتركوا بي أثرًا يذكر، أنا لا أحب تصنّعهم الشديد وجمود أرواحهم.

على أنّ توفيق فكرت هو أحب الشعراء الترك إلى قلبي وبدون منازع، فحين اطلعتُ على قصيدته الرائعة SIS"الضباب" شعرتُ بأنّ زلزالاً قد انفجر داخل نفسي، فاهتزت اهتزازًا عظيمًا. كنت في ذلك الوقت إنسانًا ناضجًا لذلك استطعت تقدير عظمة نفسه ونبل مقاصده، ومن رأيي أنّ بعض مقاطع قصيدته Rubadi Skest "القيثارة المكسورة" هي أعظم ما كتبه شاعر تركي إطلاقًا. لا أعرف شاعرًا امتلك طهر روح توفيق فكرت ولا رقة قلبه.

يعلق روشن أشرف عن هذا قائلاً : "حين مضتْ خالدة أديب في حديثها المتحمس عن توفيق فكرت (المتوفى عام 1915) كنت أنا أراقب الجدار المقابل محدقًا بلوحة توفيق فكرة وكأنما ألتمس رؤية انطباعاته وهو يصغي إلى ثنائها عليه".

وما رأيك بالشاعر يحيي كمال بياتلي؟

هذا الشاعر الشاب سيكون فيما أظن أعظم شعراء اللغة التركية في عصرنا.

وفاتُها

توفيت خالدة أديب سنة 1964، قبيل وفاتها زارها د. سرمد سامي أويصال، كما أشرنا إليه في موقع آخر من المقال، وأنقل للقارئ تكملة المقابلة لتكتمل صورة هذه الأديبة الكبيرة في ذهنه يقول: "نبّهتني المرأة التي فتحت لي الباب بأن أقلل جهد الإمكان من عدد الأسئلة الموجهة إلى أستاذتي القديمة كي لا تتعرض للتعب المضّر بصحتها... كان العمر قد تقدم بها وأحزنني نحولها الشديد ومظهر الشيخوخة البادي عليها. قالت إنها مسرورة بزيارتي لها، إذ سيخرجها ذلك من عزلتها الاضطرارية.

أول ما لفت نظري في الغرفة الجدار العريض ذي الرفوف الجميلة التي تكدست فوقها مئات الكتب السميكة المغلفة تعليقًا فاخرًا. وفي مقابل النافذة انتصب مكتبها الأنيق، أشارّتْ إليَّ بأن أجلس على أريكة قريبة.

كان سؤالي الأول متعلقًا بكتابها الهام "المؤثرات الشرقية والغربية في تركيا" فأجابت بالقول:

هذا الكتاب نشر أولاً في إنجلترا لقد كلفتني كتابته جهود خمس عشرة سنة.

أنا يا سيدتي من أشد المعجبين بالمرحوم البروفسور عندنا آوي فار، لقد كانت وفاته خسارة كبيرة لوطننا.

الخسارة بالنسبة إليَّ هي الأشد إيلامًا بذهابه فقدت أقرب إنسان إلى نفسي وصرت أعاني مشاعر الوحدة القاتلة كان لي، في الحقيقة، كل شيء في هذا العالم.

استعددت لمغادرة الدار، لكنّ مضيفتي الأستاذة خالدة أديب ألحتْ عليَّ بالبقاء فترة أخرى، فقد أعاد وجودي معها بعض حيويتها القديمة، ومضينا نتحدث حول ذكرياتها الأدبية ومختلف شؤون الساعة.

ساءلت نفسي وأنا أغادر دار الكاتبة الشهيرة: تُرى هل سيُتاح لي أن ألتقي بها مرة أخرى، أم أن هذا سيكون آخر عهدي بها؟

أصبح "بيت الصفصاف البنفسجي" الذي قضت فيه خالدة أديب عهد طفولتها عنوانًا للكتاب الذي روتْ فيه سيرتها الذاتية منذ مولدها حتى سنة 1918. ثم ظهر كتابها "امتحان التركي بالنار" وهو أيضا ضرب من السيرة الذاتية، روتْ فيه ذكريات أيام المقاومة وحرب التحرير بين سنوات 1919-1923. هذان الكتابان نشرا أولاً باللغة الإنجليزية، ثم صدرا باللغة التركيبة فيما بعد.

أحداثُ روايات خالدة أديب تقع في استانبول في الأغلب الأعمّ، وتتميز رواياتها بقوة شخصية كل بطل من أبطالها، على أن أسلوب الكتابة يفتقر إلى الحيوية والإشراق إذا ما قورن بأساليب الرواية التركية المعاصرة، لكنَّ أفضل ما يميز أسلوبها الوضوح والمهارة التامة في نقل أفكارها وإيصالها إلى نفوس القرّاء.

ومع أنها لم تعتنق يومًا نظرة الفن للفنّ، ولا أمنتْ بمذهب البرج العاجي، لكنّها كانت ضدّ الذين يطالبون الفنان بأن يضع فنه في خدمة أهداف نفعية معينة كالسياسة والاقتصاد وما أشبه. كانت تعتقد بأنّ أسمى غايات الفن وأنبل أهدافه بث مشاعر السرور والرضا في نفوس الناس، وتحريك أوتار القلوب عن طريق الخيال المحلّق والصور الخارقة، والفن يفقد سحره حالما يتجه إلى تحقيق المكاسب ويقوم على مبادئ الخسارة والربح التجاريين وبذا يزول تأثيره الخاص وينتهي دوره تمامًا.

حين شرعت خالدة أديب بنشر إنتاجها الأدبي سنة 1908 كانت توقع باسم خالدة صالح (باسم زوجها) بحسب التقاليد الغربية السائدة يومئذ في الحواضر التركية الكبرى. لكن وبعد طلاقها من زوجها صالح زكي عادت إلى التوقيع باسمها الأصلي خالدة أديب، لكنها بعد زواجها الثاني أضافت إلى أسمها لقب زوجها الثاني، فصار اسمها خالدة أديب آدي فار(1).

منذ البداية اهتمت خالدة أديب بالدفاع عن حقوق المرأة في مقالاتها وقصصها، وفي سنة 1919 أصبحت رئيسة للتحرير في مجلة [شهبال]. وحين تحولتْ إلى كتابة الروايات شغلها موضوع سيكولوجيا المرأة وبرعت في تحليل الشخصية النسوية مما أسهم في

(1) القانون التركي منذ العهد الجمهوري فرض على المرأة المتزوجة أن تهجر لقب أسرتها وتنتمي إلى لقب زوجها أسوة بالأعراف الغربية القديمة، والحال أن القوانين الأوروبية المعاصرة صارت تترك حرية اختيار الألقاب لأفراد العائلة أنفسهم ودون قيد أو تحديد. فمن خرج على ذلك القانون في تركيا ذاتها [أوزير تشيللر] زوج تانسو تشيللر رئيسة وزراء تركيا في تسعينات القرن العشرين، فقد انتمي هو إلى لقب زوجته، وليس العكس.

اجتذاب اهتمام القراء بكلّ ما تكتب، حتى عُدَّت فيما بعد ضمن أعظم خمسة روائيين في تركيا. ثم أن اشتراكها في المقاومة الوطنية التي قادها مصطفى كمال ضدّ جيوش الاحتلال، وتنوع خبراتها في هذا الميدان مما لم يكن متاحًا إلا لعدد ضئيل من الكتاب، بالإضافة إلى ما كانت تتميز به من عمق الثقافة وسعة الآفاق، كل ذلك كان له دور كبير في نجاح رواياتها ليس في داخل تركيا فحسب، وإنما في أوروبا وحتى في أمريكا.

يتحدث الكاتب المعروف وداد غون يول Gunyol عن الروائية الشهيرة فيقول:

"فتحتْ خالدة أديب نافذة مشرقة على الأدب الحديث بكتاباتها الواقعية القائمة على الخبرة الشخصية، إن روايتها "قميص من نار" و"اصفعوا العاهرة" هما أشبه بنصب تذكاري لحرب التحرير المجيدة. ثم هل ننسى مهارتها العجيبة في إضفاء الأجواء المرحة على سياق الأحداث في رواياتها الكثيرة؟ من قبيل ذلك سخريتها اللاذعة من بعض النماذج البشرية التي تنفر منها النفس، كالرجل المتظاهر بالتقوى والدين استجلابًا للكسب أو للنفوذ والمرأة التي تجري وراء زوج ثري وما إلى ذلك من شخصيات لا يخلو منها أي مجتمع.

على أنّ خالدة أديب لم تكن يومًا من المثاليين أو أصحاب اليوتوبيا والمدن الفاضلة، كانت تعشق الحياة ومسراتها البريئة ولا تنزع إلى الزهد أو تدعو إلى الحياة النباتية مثلا. بعد إقامتها في الهند ما يقارب السنة للتدريس في إحدى جامعاتها كتبت دراسة ممتعة عن تلك البلاد

دون أن تبدي حماسًا خاصًا للنزعة الزهدية في الأديان البوذية، على خلاف ما يفعله كثير من كتاب أوروبا الذين يتاح لهم التعرف على الهنود عن قرب، وحين دونت ذكرياتها عن زوجها عدنان آدي فار الذي توفي عام 1955، لم يمنعها حزنها الشديد عليه من كتابة سيرته بشكل موضوعي وممتع في الوقت ذاته. كانت تعيش الحياة بالروح والبدن معًا، فلا إهمال للبدن من أجل التسامي بالروح على طريقة المتصوفة، ولا إهمال للروح والمعاني السامية من أجل إشباع النزوات العابرة. كان ترجيحها للحضارة الغربية لا يعني مطلقًا إهمال تراث الشرق ذي التنوع والأصالة والقيم الروحانية.

في إنجلترا نشرت خالدة أديب كتابها "بنت البهلوان" باللغة الإنجليزية The Daughter of a Clown، ولما عادت إلى تركيا وسعّت الرواية ونشرتها باسم [سنيكلي بقال]. أحداث الرواية تجري في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، الذي عاصرته في عهد طفولتها وصباها، وفي حيٍّ متواضع من أحيائها. شخوص الروايات من نتاج الأعراف والتقاليد السائدة في تلك العصور. أثارت "بنت البهلوان" اهتمام القراء الإنجليز وحظيت بثناء النقّاد في المجلات الأدبية هناك. جاء في "ملحق التايمس الأدبيّ" الصادر في 7 كانون الأول 1935:-

بنت البهلوان ترسم صورة دقيقة لحياة الناس في عهد السلطان عبد الحميد، وهي تفيض بالتفاصيل الشيّقة، وتستثير الانفعالات القوية، إضافة إلى شدة حيوية شخوصها، ولابد من الإشارة إلى مهارة المؤلفة في الكشف عن المطامح النبيلة التي تتملك بعض النفوس الجميلة، وفي الوقت ذاته لا يخفي عليها القصور القبيح في مسالك

أصحاب النفوس الفاسدة، ثم أن الأحداث حقيقية وليستْ مفتعلة أو من خيالات مؤلفتها. إنها كاتبة موهوبة بالفعل.

وكتبتْ مجلة غلاسكو هيرالد في 21 تشرين الأول 1935: الرواية لا تكتفي بتصوير انحطاط عهد عبد الحميد، والمظالم السائدة فيه، وإنما تعطينا صورة جديدة للعلاقات بين الشرق والغرب مباينة تماماً للصورة الرومانتيكية المزيفة التي تقدمها مؤلفاتنا الأوروبية حول ذلك. هذه الكاتبة الشرقية لا تخضع للمؤثرات الفلسفية التي يأخذ بها الكاتب الغربي، فلا عجب أن تكتب بروحية مباينة لما أعتدنا عليه، من هنا تنبع أهمية روايتها.

وورد في مجلة "كاثوليك هيرالد" الصادرة في 17 كانون الثاني سنة 1936 ما يلي:-

ما أجمل أن يطلع الكاتب الغربي على رواية ألفتها كاتبة تركية من الدرجة الأولى تصوّر فيها حياة استانبول الحقيقة لاسيما أنّ المؤلفة من مؤيدي الثورة ضد السلطنة العثمانية. على أن بنت البهلوان ليست رواية سياسية، وإنما كتبتْ أساسًا لإلقاء الضوء على خفايا حياة الشعب التركي، وجميع الوقائع والشخصيات مرسومة بدون تزييف ولا أكاذيب: الشرَ والخير، القبح والجمال، بلا رتوش ولا مبالغات. إنها رواية إنسانية حقًا، والأحكام فيها موضوعية وليست منحازة إلى طرف من الأطراف.

نموذج من رسائلها

حين أشتد المرض على خالدة أديب وأحست باقتراب نهايتها، أحرقت أغلب رسائلها الخاصة بحسب ما يقول أقاربها، وفيما يلي نقتبس نصّ رسالة بعثتْ بها إلى زوجها د. عدنان آدي فار في 30 آذار/ مارس 1931.

حبيبي ..

وصلتني رسالتك المؤرخة في 24 الجاري وها أنا أجيب عليها فورًا. سرّتني مسألة دروسك مثلما سرَتك أنت. في الشهر المنصرم قمتُ بعمل سخيف! إذ وافقت على المشاركة في مؤتمرات كثيرة أغلبها بدون أي مقابل مادي.

اليوم سأبعث إليك كتبك بالبريد، ومن الأمور السارة إنني ألقيت كلمة في مؤتمر عام للسلام أقيم هنا البارحة.وخلال هذا الشهر سأشارك في مؤتمر يقام في كلية البنات في سيمور Sey mour .

أنوي أن أقصر جهودي وأوقاتي جميعًا في كتابة دراسة حول الأنثوية Feminizm من أجل الانسكلوبيديا، لكنني لا أستطيع الاعتذار عن حضور الدعوات التي يوجهها إليَّ الأساتذة والمثقفون.

أتمنى أن يحصل أبني "أية الله" على الوظيفة في البنك. أرجوك أن تختار لي موضعًا سياحيًا مناسبًا على ضفاف البحر كي أحضر حالما يعود أية الله، سوي تجدني قد فقدت بعض وزني وأبيض شعري

قليلاً، لكن صحتي حسنة. النحول يناسب مريض الحصبةّ! كل ما يحتاجه المصاب بها الهواء النقي والراحة التامة.

مساء البارحة تكلمتُ في مؤتمر الصلح المقام في فندق "بارك لين"، كان هناك سبعمائة شخص يقفون على أقدامهم، أظنه أفضل خطاب قدمته في مؤتمر عام كان الجميع يقاطعني بالتصفيق الحادّ كلّ خمس دقائق. الحاضرون كانوا من مختلف الجنسيات وكلهم متعاطفون معي تمامًا .

أقبلك... خالدة.

أسم مؤلفاتها

الروايات والقصص:

قميص سي نار 1922

سنيكلي بقال 1936 – حصلت على جائزة الحزب الجمهوري الشعبي عام 1942,

زقاق عقيلة هانم 1958 .

الذئب الذي ارتقى الجبل 1922 .

المرآة الدّوارة 1954.

القناع والروح 1945 [مجموعة قصص قصيرة].

مؤلفاتها الأخرى

بيت الصفصاف الذهبي 1963 مذاكرات شخصية تاريخ الأدب الإنجليزي -في ثلاثة أجزاء- 1940-1949.

التأثيرات الشرقية والغربية في تركيا 1956.

كتب ترجمتها عن اللغات الأوروبية.

*** ***

سيرة موجزة للبروفسور عدنان آدي فار

زوج خالدة أديب

1881 – 1955

كاتب ورجل ثقافة وعلم. أكمل الكلية الطبية في عهد السلطان عبد الحميد وبسبب سياسته الجائرة اضطر عدنان آدي فار إلى الهرب من تركيا واشتغل مساعدًا لطبيب الأمراض الباطنية في الكلية الطبية ببرلين وعند إعلان الدستور سنة 1908 عاد إلى استانبول، وتمَّ تعيينه أستاذًا في الكلية الطبية بها ، ثم انتُخب نائبًا في استانبول في "مجلس المبعوثان". عند احتلال جيوش الحلفاء لمدينة استانبول، هرب مع زوجته خالدة أديب إلى الأناضول حيث عملا تحت إمرة مصطفى كمال باشا في جيش التحرير، بعد انتصار الثورة الكمالية، تمّ تعيين عدنان أدي فار وزيرًا للصحة وللداخلية، لكنه غادر تركيا مع زوجته بعد وقوع خلال بينهما وبين مصطفى كمال سنة 1926 ولم يعودا إلى تركيا إلا بعد وفاة أتاتورك.

حال عودتهما إلى استانبول سنة1940 تم تعيين عدنان آدي فار رئيسا لهيئة الانسكلوبيديا الإسلامية وبقي في منصبه هذا حتى وفاته. في عهد السلطان عبد الحميد اشتغل عدنان آدي فار رئيسًا لتحرير جريدة "سعادت" وكان مايزال تلميذا في كلية الطب باستانبول وذلك عام 1901، من أهم مؤلفاته:-

العلم لدى الأتراك في العصر العثماني

الفارابي

قفْ وفكّرْ

المدارس العالية لدي البيزنطيين

العلم والدين طوال التاريخ...إلخ.

*** ***

توفيق فكرت

1915-1867

شاعر الحرية والتجديد

كتب الشاعر علي وجدي بينغول Bingol الرباعية التالية معبّرًا عن إحساس كل تركي وطني نحو توفيق فكرت:

"فكرت" في أرضنا الحبيبة هو المثل الأعلى. ذلك المتلهف للنور، المعادي للظلام، الثوري حتى أعماق الروح، هو الذي أنتج لهذا الوطن أباه مصطفى كمال.

في عهد السلطان عبد الحميد الثاني المعروف بالاستبداد والجمود والتأخر والمسؤول المباشر عن سقوط الإمبراطورية العثمانية التي طالت فترة احتضارها، عاش في استانبول رجل، يتفق جميع المختصين على أنه كان الرائد الروحي للثورة السياسية التي انتصرت على يد كمال أتاتورك بعد انهيار الدولة العثمانية، ذلك هو توفيق فكرت، الشاعر الثوري المجدد وباعث الروح العصرية في جميع أنحاء تركيا في أوائل القرن العشرين.

قضى توفيق فكرت أيامه كلها متطلعًا بلهفة وأمل إلى المستقبل البراق الذي يتمناه لبلاده دون أن تبدو في الأفق بارقة خير واحدة تطمئن قلبه الظامئ للحرية والعدالة، وشق طريق الكفاح الشائك

بواسطة أشعاره الوطنية الملتهبة التي ذاع معظمها لا عن طريق النشر في الصحف وإنما بالتداول سرًا من يد إلى يد، على الرغم من كل الجهود التي بذلتها دوائر الرقابة العثمانية للحد من انتشارها بين الناس، لكن توفيق فكرت لم يتردد في مواصلة الكفاح لإيمانه بأبناء وطنه، حتى في أشدّ حالات يأسه وتشاؤمه.

على يدي فكرت انتقل الشعر التركي من مرحلة التقليد والجمود والتكلف البلاغي السقيم إلى عهد جديد يقوم فيه الشاعر بدور الرائد الذي يرشد قومه إلى الآفاق الحلوة الجديدة فاتحًا بذلك أبواب عوالم غريبة لا عهد لهم بها بعد، توفيق فكرت هو أول شاعر في العهد العثماني يضع فنه في خدمة قضية وطنية وإنسانية واجتماعية، مؤكدًا بذلك أن الفنان يستطيع عن طريق إنتاجه الإبداعي أن يؤدي دورًا بطوليًا لا يقل عظمة عن دور الجندي في المعركة والحرب، يقول فكرت واصفًا سيرته:-

في طريق الحق ستمضي وحيدًا

ربما تهشّم جناحك

لكن أبدًا لن تحني رأسك.

وتوفيق فكرت هو الذي شق الطريق ومهده لناظم حكمت، الناقدون يجمعون على أن "ناظم" أكمل ما بدأ به "فكرت"، فناظم هو امتداد "فكرت" غير أن "ناظم" كان أوسع آفاقًا وأعمق علمًا، ولأنه تأثر بفكرت في شبابه المبكر، فقد عرف كيف يتجنب أخطاءه أيضًا، وأهم أخطاء "فكرت" أنه لم يستطع أن يدرك بأن "الفن" ما هو إلا نتاج

فوقي للشروط الاجتماعية والاقتصادية، وأنه غير معزول عنها إطلاقًا، وقد أدى فشل "فكرت" في فهم هذه مسألة إلى تحوله في أواخر حياته إلى إنسان يائس متشائم قد نفض يده تمامًا من أسباب الفرح والسعادة، في حين ظلتْ شرارة الأمل تلتهب في صدر "ناظم" حتى النهاية.

من أدق ما وُصفت به شاعرية توفيق فكرت، عبارة صديقه المقرّب المفكر الشهير رضا توفيق:

"العبقري مثل زمارة ضبط الآلات الموسيقية، أصغر الأحداث تحدث لدى العبقري اهتزازات حادة، وكذلك كان توفيق فكرت، إنه التعبير الأشد حدة على اضطراب عصره وقسوة فجائعه".

*** ***

عصر توفيق فكرت

تصدعت أركان الإمبراطورية العثمانية أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر وواجهت الدمار الشامل في أوائل القرن العشرين، عندما ولد توفيق فكرت سنة 1867 كان المتربع على عرش البلاد: السلطان عبد العزيز الذي تصاعدت في عهده دعوات الانفصال والاستقلال في الأراضي الواقعة تحت حكمه، فقد تفجرت الثورة في الجبل الأسود، وتوحدت رومانيا، ونُصب "كارل" أميرًا عليها، وهُزم الجيش العثماني في كل من بلغاريا وصربيا، وفي مصر قرّ رأي إسماعيل باشا أن يلقب نفسه بالخديوي ويحكم البلاد المصرية حكم ملك، يرث بعده العرش ولي عهده توفيق باشا، ولما بالغ إسماعيل

باشا في الانفاق على مظاهر التمدن واستنفذ أموال الخزينة العامة، تفجرت ثورة عرابي باشا فتدخلت الدول الغربية وعزل إسماعيل باشا، وعهد الحكم إلى ولي عهده توفيق باشا سنة 1879، ومن هذه اللحظة صار للإنجليز اليد العليا في إدارة شؤون مصر.

حكم عبد العزيز حكمًا كيفيًا السراي الذي كان يضم أكثر من خمسة آلاف شخص من أفراد العائلة العثمانية وحاشيتها واعتاد أن يستنفذ من دخل الدولة خمسها تماما، فلا غرابة أن تتعالى أصوات المعارضة في كل مكان، وخصوصًا بين أوساط المثقفين الذين شكلوا في سنة 1965 أول جمعية سرية معارضة باسم "العثمانيون الجدد" أو "جون ترك لر" وهي جمعية شبيهة بمنظمة الكاربوناري الثورية الإيطالية، وبغيرها من المنظمات الأوروبية التي ظهرت في تلك الحقبة الزمنية، برز من أعضاء "جون تُرك لر"" الأدباء المشهورون: نامق كمال، ضياء باشا، أبو الضياء توفيق، سعد الله باشا، وانضم إلى الجمعية مصطفي فاضل باشا أملاً أن يستطيع بواسطة نفوذها، استعادة حقه في حكم مصر، بعد أن أعلن أخوة إسماعيل باشا ولاية العهد لتوفيق باشا، في أول الأمر كانت جماعة "جون تُرك لر" مجرد تشكيل أدبي، ظاهريًا، لكنه فيما بعد تحولت إلى قوة سياسية سيكون لها شأن كبير في إدارة شؤون الدولة.

في البداية أصدر العثمانيون الجدد صحفهم خارج الأراضي التركية، ثم انتقلوا إلى استانبول حيث تكاثرتْ جرائدهم تدريجيًا، ومنها: "حريت" و"تصوير أفكار" و"المخبر" و"عبرتْ"، هذه الصحف رفعتْ شعارات الحرية والديمقراطية والإخاء، وطالبتْ الحكومة

العثمانية بمواكبة مدنية العصر الحديث والاستفادة من مكاسب الحضارة الغربية فاجتذبت بسرعة حماس المتنورين واستقطبت اهتمامهم مما أثار مخاوف السلطان عبد العزيز فبدأ بملاحظة أعضاء الجمعية الذين اضطروا إلى اللجوء إلى الدول الأوروبية كفرنسا وبريطانيا حيث انهمكوا في إصدار جرائدهم يرسلونها خفية إلى أرجاء الإمبراطورية العثمانية لتحريض الناس ضد السلطان الجائر.

حاول عبد العزيز اجتذاب قلوب الناس فعين المصلح مدحت باشا واليًا على بغداد سنة 1968، ومدحت باشا هو أحد الزعماء السياسيين المتنورين وقد حاول مخلصًا إنقاذ الإمبراطورية العثمانية قبل فوات الأوان، من أهم أعماله مساهمته في إعداد القانون الأساسي الذي أعلن سنة 1876و، وفي ولاية بغداد قام بإصلاحاته الشهيرة لكن حساده نجحوا في تغيير قلب السلطان عبد العزيز عليه، فعزله واستدعاه إلى استانبول.

ولما أحس عبد العزيز باشتداد المعارضة ضده في كل أنحاء دولته، أصدر قوانين جديدة تضيق على الصحافة، وبموجبها أغلت جريدة "عبرتْ" الصادرة في استانبول، وقبض على محرريها ونفى الكُتاب أحمد أفندي وأبو الضياء توفيق ونامق كمال إلى مختلف الولايات العثمانية خارج استانبول "وزادتْ الأوضاع سوءًا حين خرج الطلاب في مظاهرات صاخبة ضد الحكومة.

ولم تهدأ الحال إلا بتنازل السلطان عبد العزيز عن عرشه، وحل محله سنة 1876 السلطان مراد الخامس، لكن إمارات الاختلال العقلي التي بدتَّ عليه، أدت إلى خلعه في السنة ذاتها، فارتقى عرش

الدولة السلطان عبد الحميد الثاني الذي سيبقى في الحكم ثلاثاً وثلاثين سنة أي حتى عام 1909,

افتتح عهد عبد الحميد بتزايد حدة الاضطرابات في أغلب الولايات العثمانية، فاضطر إلى الموافقة على مقترحين تقدمت بريطانيا بأولهما، ويقضي بعقد مؤتمر في استانبول من أجل التواصل إلى حل للمسألة الشرقية، وتقدمتْ روسيا بالمقترح الثاني وهو ضرورة التفاهم مع ثوار صربيا، ولكي يظهر نواياه الطيبة أصدر عبد الحميد قرارًا بانتخاب نواب للمجلس، ثم افتتح بنفسه "مجلس المبعوثان" لكن المجلس أعلن رفضه للمقترحات الروسية، وتوترت العلاقات بين الدولتين فأعلن عبد الحميد الحرب على روسيا، وكانت تلك من أكبر هفواته، فالجيش العثماني لم يكن على استعداد للدخول في مثل هذه المغامرة، وسرعان ما اقتربت الجيوش الروسية من حدود استانبول وأسقط في يد عبد الحميد فبادر إلى توجيه نداء إلى قيصر روسيا ملتمسًا الصلح!!

ثم أصدر فرمانًا بإغلاق "مجلس المبعوثان" مدعيًا بأن أعضاء المجلس هم الذين أرادوا تلك الحرب، بعد شهر واحد وُقعت المعاهدة بين الطرفين، وبمقتضاها تم استقلال صربيا ورومانيا والجبل الأسود، ومنحت البوسنة والهرسك حكمًا ذاتيا وضُمّت أرمينيا وباطوم وقارص إلى الأراضي الروسية، دون قيد أو شرط، وبذلك انسلخت معظم مستعمرات الدولة العثمانية دون أن يستطيع السلطان المغلوب على أمره، تحريك ساكن وكان أشد ما يثير حنق "الرعايا" أن عبد الحميد كان كلما تمادى تخاذله أمام الدول الأوروبية، ازداد

تجبرًا وطغيانًا تجاه أبناء الملة في الداخل، وقد شجع ذلك جماعة "العثمانيين الجدد" على المضي قدمًا في حملاتهم الداعية إلى إسقاط عبد الحميد.

في سنة 1889 تشكلت جمعية الاتحاد والترقي سرًا، وكان أغلب أعضائها يقيمون في باريس، شأنهم شأن أعضاء جماعة العثمانيين الجدد، وهكذا تم اتحاد الجماعتين تحت اسم الاتحاد والترقي، واعتقد الجميع أنّ إسقاط عبد الحميد هو بداية الخلاص للإمبراطورية العثمانية وعقد أول مؤتمر لهم سنة 1902 في باريس، واشتد ساعد الجمعية سنة 1906 حين انتقل مركزها إلى سالونيك الواقعة على بحر إيجه، مقابل الاناضول وسهل على أعضائها نقل مبادئهم إلى شباب الضباط الأتراك، بالإضافة إلى تأييد تجار سالونيك لهم وأخيرًا استطاع الاتحاديون اجتذاب ملّاك الأراضي المسلمين مما شكل خسارة كبيرة للسلطان.

قلق عبد الحميد لهذه الأنباء، فشكل هيئة تحقيقية، وتم القبض على طائفة من الاتحاديين، فكان الجواب السريع وقوع حملة اغتيالات ضد رجال الدولة الموالين للسلطة.

في هذا المقام لابد من الإشارة إلى صلات الود والصداقة التي كانت تجمع بين بعض الاتحاديين وموظفي القنصليات والسفارات الأوروبية مما أوقع السلطان في رعب حقيقي، خاصة بعد وقوع تمرد في إحدى وحدات الجيش وتأييد الجماهير الشعبية لتلك الحركة.

كان لابد لعبد الحميد أن يتحرك قبل فوات الأوان، ففي 24 تموز/يوليو 1908 تم إعلان "المشروطية الثانية"، أي الدستور الذي طال انتظار الناس له، ووضع القانون موضع التنفيذ، هنا لابد من التوقف قليلاً للتحدث عن التيارات الفكرية التي سادت البلاد العثمانية في تلك الفترة، ويمكن تلخيصها في ثلاثة اتجاهات رئيسية:-

*نزعة التفرنج أي التوجه نحو الحضارة الغربية الحديثة.

*النزعة الإسلامية أي العودة إلى أصول الإسلام.

*نزعة التتريك أي تقوية المشاعر القومية التركية على حساب الشعوب الإسلامية الداخلية في جسم الدولة العثمانية.

يلاحظ أنّ شعار "الطورانية" أو التتريك، الذي ارتفع في عهد عبد الحميد، عوضًا عن الشعار الملغي أي "اتحاد الملة الإسلامية" لم يكن إلا معنى جديدًا صادرًا عن أصحاب المصالح الكبرى في الدولة العثمانية من أجل المحافظة عليها بكل ثمن، ثم أن شعار "الطورانية" الذي يبدو في ظاهره معاديًا للمصالح الروسية كان في واقع الحال مفيدًا وملائمًا للمصالح الألمانية، كذلك فإن شعار "اتحاد الملة الإسلامية" الذي هو في ظاهره موجه ضد الإمبريالية البريطانية، كان ذا فائدة للمصالح الألمانية، لأن معاداة الإنجليز تعني بالضرورة الاستعانة بالألمان، ومما أثار الانتباه في ذلك الوقت أنّ مجلة "الإسلام" كانت تصدر تحت إشراف وزير المعارف الألماني نفسه!! وأخيرًا فلا يجوز لنا أن ننسى بأنّ الفكرة الطورانية هي في الأساس من مبتدعات علماء الفيلولوجي والتاريخ الألمان أيضًا.

و بحسابات عبد الحميد الثاني، كان من فوائد الدستور أنه سيحد من قوة الاتحاد والترقي لكنّ الذي وقع هو الضد تمامًا، فلقد أدرك المتنورون الذين أعدوا الدستور أنّ السلطان سيحاول التملص من القيود الدستورية، ولذا أعدوا للأمر عدته، والنتيجة أنّ سلطات عبد الحميد هي التي حُددت. من ناحية ثانية، رفع الدستور الرقابة المشددة على الطباعة والنشر وتنفس الصحفيون الصعداء، واستعد الجميع للعمل من جديد بحيوية شديدة وصدر العفو عن الكتاب والشعراء المحجوزين والمنفيين، وعادوا تباعًا إلى الوطن.

تم تعيين كامل باشا، المعروف بولائه لبريطانيا رئيسًا للوزراء مما زاد في قوة الاتحاديين في حين ضعف موقف عبد الحميد بإعلان استقلال بلغاريا، وانضمام جزيرة كريت إلى اليونان، ولم يقف الأمر عند هذا، فإنّ رفع شعارات الحرية والديمقراطية، التي نادى بها الاتحاديون قد أدى إلى ظهور التناقض بين مصالح مختلف الفئات في أنحاء البلاد، وكانت النتيجة إعلان عمال استانبول وبعدهم الأناضول، الإضراب العام.

أصبح السلطان عبد الحميد في حيرة من أمره، وأخيرًا وجد الحل في نقض تعهداته الدستورية بالحفاظ على الديمقراطية في الحكم. وهكذا فوجئ المضربون عن العمل بتوجيه النار إلى صدورهم، وبذلك أثبتت الحكومة عدم مصداقيتها في تنفيذ الدستور، في هذا المقام لا بدَّ لنا من توضيح نقطة ذات صلة بجماعة الاتحاد والترقي، فالمراجع التركية تؤكد بما لا يقبل الشك بأن أعضاء هذه المؤسسة كانوا ينحدرون في غالبيتهم من آباء أثرياء ذوي مصالح مالية وتجارية

كبري، أو من البيروقراطيين الكبار المرتبطين اقتصاديا برجال الأعمال الأوروبيين، وعلى هذا فإن الاتحاديين لا يمكن أن يمثلوا مصالح الجماهير الشعبية الواسعة.

وكان ذلك هو المسؤول عن الكوارث والمحن التي ستحلّ بتلك الجماهير، حال تسلم الاتحاديين للسلطة؛ بعد خلع السلطان عبد الحميد سنة 1909، وارتقاء السلطان محمد رشاد العرش.

*** ***

حكومة الاتحاد والترقي

اعتقد الاتحاديون أن إنقاذ الإمبراطورية العثمانية لا يتم إلا بالاعتماد الكامل على الإمبريالية العالمية، ولم يخطر لهم أن يحسبوا حسابًا للمستقبل المظلم الذي ينتظر الشعوب العثمانية لو استمر استثمار الأوروبيين لموارد البلاد، دون أية رقابة أو شروط، وهكذا سارع الاتحاديون إلى توقيع شتى الاتفاقات الاقتصادية والسياسية مع الدول والشركات الأوروبية دون أي تخطيط أو دراسة.

قام "مجلس المبعوثان" الأول الذي حظي بتأييد الاتحاديين، على مبدأ تغليب العنصر التركي في التمثيل داخل المجلس، كان عدد المبعوثين 288 نائبًا، منهم 147 تركيا ويتوزع العدد الباقي وهو 141 نائبًا على بقية الكراسي، هذا يعني أن النواب غير الأتراك حتى لو اتفقوا في رأي واحد عند التصويت لما فازوا بالأغلبية، فكيف وهم مقسمون بحسب قومياتهم على الشكل التالي:

60 نائبًا من العرب، 27 من الأرناؤوط، 26 من اليونان، 14 من الأرمن، 10 من السلاف، 4 من اليهود. ذلك كان "خليط" النواب في مجلس المبعوثان، وهو، كما نرى، متضارب المصالح، لا يمكن أن يتم فيه أي إجماع على أيّ من القرارات المطروحة للتصويت.

كانت ألمانيا تشجع بشدة ظهور اتجاه تغليب العنصر التركي في مجلس المبعوثان وفي غيره من مؤسسات الدولة العثمانية، ففي عام 1911 وجهتْ الحكومة الألمانية دعوة إلى خمسين مثقفًا عثمانيًا جلهم من جماعة الاتحاد والترقي، لزيارة ألمانيا "من أحل توطيد

العلاقات بين البلدين"، وكان على رأس الوفد: الكاتب الاتحادي "حسين جاهد يالجين" عضو جماعة "ثروة الفنون" الأدبية سابقا، والذي أصدر مع "توفيق فكرت" مجلة "طنين" فترة من الزمن، لكنّ مغالاة حسين جاهد في تفضيل العنصر التركي على غيره من الشعوب، أدى إلى تدمير الصداقة التي كانت تربط بين الكاتبين، حتى تحول اسم "جاهد" على لسان توفيق فكرت إلى "فاسد"، وتحول اسم جمعية الاتحاد والترقي عند "فكرت" إلى "جمعية الارتكاب والتدني" بعد خيبة أماله فيها عند تسلمها للسلطة، وارتكابها للجرائم الشنيعة بحق الشعوب التي حكمتها، وفي هذه المسألة بالذات يتجلى التناقض الأساسي بين مفاهيم الاتحاديين ومبادئ "فكرت"، ففكرت أراد أن تأخذ بلاده من الحضارة الغربية عناصرها الإنسانية في المساواة والديمقراطية والحرية للشعوب دون استثناء، وأن تنبذ المفاهيم العنصرية الشريرة التي تبذر بزور الاستعلاء والبغضاء بين البشر، كان فكرت دائما مع الديمقراطية ضد الفاشية، ومع الحرية ضد العبودية، ومع العلم ضد الجهالة فهو القائل:

"الأرض وطني، والنوع البشري قومي":

ومن هذه النقطة انفصل طريق فكرت عن طريق الاتحاديين ومؤيديهم.

ولم يؤد دستور 1908 في المحصلة النهائية إلى قطف الثمار المنشودة، فالاتحاديون لم يكن في نيتهم تغيير المجتمع العثماني من الجذور، بل اكتفوا بأخذ قشور المدنية دون لبها، وبدلاً من إنشاء المصانع، واستغلال الأراضي البور، ونشر التعليم المجاني ومكافحة

الأمية، وإعادة الحقوق الشرعية للشعب بمختلف فئاته وللنساء والرجال والأطفال؛ كي يُقضى على الخلل في جسم الدولة، فإن الاتحاديين انهمكوا في تحقيق هدف واحد لم يتذكروا غيره، هو تكديس المال واحتكار الخيرات ونفخ جيوبهم، تاركين أبناء الشعوب العثمانية في أوجاعها وأوصابها التي امتحنت بها منذ ستة قرون.

في سنة 1909 نجح الاتحاديون في خلع عبد الحميد، ونصبوا محمد رشاد سلطانًا لكنَّ السلطة الفعلية أصبحت منذ ذلك الوقت بأيديهم، فحكموا البلاد بيد حديدية مدة عشر سنوات أي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة 1918، وخنقوا كل صوت للمعارضة، كي يتهيأ لهم تنفيذ المهمة التي جاءوا من أجلها، وهي باختصار، بيع البلاد بكل خيراتها إلى الإمبريالية العالمية، لقد استخدموا في سبيل تحقيق أهدافهم غير الشريفة أحط الأساليب، فمع تظاهرهم بالتعصب للعنصر التركي، لم يتورعوا عن تعيين اليونانيين والأرناؤوط واليهود في أجهزة القمع التي وجهوها ضد الأهالي، أما شعار "الحرية" الذي ظلوا يلوكونه بألسنتهم، فلا شك أنهم أرادوا به حرية بيع الوطن وتدميره!!

والحقيقة أن الهدف الحقيقي الذي سعت أوروبا إلى تحقيقه عن طريق تشجيعها للاتحاديين على تسلم السلطة، تلخص في تمزيق جثة "الرجل المريض" واقتسام إرثه، بعد رمي الجثة ذاتها في المزابل، أما الدستور فلم يريح منه العثمانيون جميعًا غير الدمار والهلاك والخراب، لقد كان المثل الأعلى للأعضاء العسكريين في جمعية الاتحاد والترقي هو الحكم البروسي، ولهذا وضعوا أنفسهم في خدمة

الإدارة الألمانية، فلا غرابة في أن تتسم سياسة الاتحاديين الخارجية بالعدوانية التي لا مبرر لها، والنتيجة أن البلاد العثمانية عادتْ إلى الحكم الديكتاتوري، بعد سقوط عبد الحميد، ولكن بصورة أشد قسوةً وأكثر وحشيةً وفوضي مما كانت عليه في العهود السابقة، "ونجح الاتحاديون في خطة الفساد التي نفوذها خلال عشر سنوات فيما لم يقع مثله حتى بأيدي العثمانيين على مدى ستة قرون من حكمهم".

في عهد السلطان عبد العزيز ثم السلطان عبد الحميد، حاول السياسي المتنور مدحت باشا إنقاذ السفينة العثمانية قبل غرقها، وبذل مجهودات عظمى مشهورة من أجل تحقيق ذلك الهدف، لكنْ السلاطين العثمانيين كرهوا المكانة العالية التي تبوأها هذا الرجل الأمين في قلوب الناس، ولعلهم كانوا واثقين بقرب أفول نجم دولتهم على أيدي زعماء يحبهم الشعب، ومن غير مدحت باشا أهلٌ لكسب قلوب الناس وقتئذ؟ هكذا نستطيع أن نتفهم دوافع المكيدة الغادرة التي دُبرت لمدحت باشا، حين سرت بين الناس في عهد السلطان عبد الحميد إشاعة مفادها أن السلطان المخلوع عبد العزيز، لم يمت ميتةً طبيعيةً بحسب ما ورد في بيان السراي، وإنما مات منتحرًا، وربما مقتولاً، وبدلاً من تشكيل هيئة للتحقيق في الحادث لإثبات براءة عبد الحميد نفسه من دم سلفه السلطان عبد العزيز، أسرع عبد الحميد إلى توجيه تهمة التآمر على حياة السلطان السابق إلى مدحت باشا، وقبل أن يستفيق الناس من هول المفاجأة، أصدر عبد الحميد فرمانًا سلطانيًا بمحاكمة مدحت باشا، وأوعز بإجراء المحاكمة داخل قصره السلطاني، وتمت الإدانة وحُكم على مدحت باشا بالإعدام، ولما بلغ سمع عبد الحميد تذمر الناس، ورفضهم تصديق اتهاماته، أمر بإبعاد

مدحت باشا إلى مدينة الطائف في الحجاز، وهناك عرف كيف يتخلص منه سنة 1883 "قيل أنه قتل في السجن".

إنّ هذه الحادثة الشنيعة "وأمثالها" يمكن أن تعطي تفسيرًا للابتهاج الشديد الذي عم المجتمع العثماني عند ذيوع خبر خلع عبد الحميد، لقد كان الناس يشعرون بأنهم يعيشون كابوسًا مرعبًا ولم يستيقظوا منه إلا بسقوط الطاغية، ومع ذلك كله فهناك بين مؤرخي تلك الفترة من يرفضون وصف عبد الحميد بالظلم والغدر...إلخ مؤكدين بأن شخصيته، وأعماله كلها، تعرضتْ للتشويه والكذب فهو ضحية دعاية ذكية عرفت كيف تحوله إلى وحش كاسر ومجنون لا يرجى له شفاء، ومن ثم فالأولي بنا، في رأيهم، التريث في الحكم عليه كي لا نكون له ظالمين.

لكنَّ الوثائق التاريخية لها رأي آخر، والدفاع عن عبد الحميد غير وارد، كل القضية تتلخص في أنّ حكومة الاتحاد والترقي التي خلعته، وحلَّتْ محله في التسلط على الناس، لم تكن بأفضل منه، إن لم تكن أشد جبروتًا وأفظع قسوة، ومن هنا وجد أنصار العثمانيين الجرأة على الدفاع عن عبد الحميد وأضرابه من سلاطين بني عثمان، والمسائل نسبية لاسيما في الحسابات السياسية.

سيرة توفيق فكرت وشخصيته

اسمه الأصلي محمد توفيق، أما اسم "فكرت" فقد اتخذه لنفسه فيما بعد، حين بدأ يكتب الشعر وينشره.

ولد توفيق فكرت في محلة "آق سراي" باستانبول سنة 1867، أبوه حسين أفندي بن أحمد أغا، كان من موظفي الدولة العثمانية المعروفين بالاستقامة والنزاهة، تدرج في الوظائف حتى أصبح متصرفًا في عدة مدن عثمانية كان أخرها بلده "حماه" السورية التي توفي فيها سنة 1905، تعرض حسين أفندي عدة مرات للنفي خارج استانبول بسبب صراحته في انتقاد الأوضاع الفاسدة في أحاديثه وفي مقالات اعتاد أن ينشرها، في صحف استانبول بين الحين والحين.

أما والدة توفيق فكرت، خديجة هانم، فهي بنت "خسرو أفندي" الرجل المسيحي اليوناني الأصل الذي دخل الإسلام طوعًا، واستقر في تركيا. فقدَ "فكرت" والدته وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فتزوج والده للمرة الثانية، بعد وفاة زوجته، ونشأ الصبي تحت رعاية زوجة أبيه، وسيكون لهذه الفاجعة أثر أليم في نفسه، "تؤكده أشعاره وأحاديثه"، في صباه الباكر عُرف فكرت بحدة الطباع وعنف الحركة، كانت أحب لعبة إلى قلبه أن يحمل خشبة حادة الطرف يجعل منها سيفًا وهميًا للمبارزة، وكان ضحية سيفه دائما، أغطية الأسرة ومراتبها لا تأخذه بها شفقة.

بعد أن أكمل "فكرت" دراسته الثانوية في مدرسة "غلاطة سراي" وحصل على وظيفة حسنة في وزارة الخارجية، أثار دهشة الجميع بتقديمه الاستقالة بعد فترة وجيزة من دوامه، ولما سئل عن الأسباب، أجاب بأن ضميره لا يسمح له بأخذ أجور شهرية على عمل لا يقتضي جهدًا، ثم أنه جمع المبالغ التي قبضها وأعادها إلى الخزينة!! بعد ذلك عُين مدرسًا للغة الفرنسية وللغة التركية في مدرستين

باستانبول أحداهما "غلاطة سراي" وكان قد أتقن الفرنسية أثناء دراسته في غالاطه سراي الثانوية، التي كانت تحظى بنظام تعليمي عصري، ويقوم بالتدريس فيها أساتذة فرنسيون وأمريكيون، ولا يعمل فيها من المدرسين الأتراك إلا مشاهير الكتاب والشعراء، منهم "المعلم ناجي" والشاعر "رجائي زاده محمود أكرم" الذي سيكون له دور كبير في مسيرة "فكرت" الأدبية.

في مدرسة "غلاطة سراي" تعلّم فكرت تذوق الشعر ونظمه بتشجيع من أستاذه "أكرم" وفيها أيضًا أتقن فن الخط، وكذلك واظب على أخذ دروس خاصة في الرسم على يد أحد أساتذته الفرنسيين، وطوال دراسته في المدرسة حاز فكرت على أعلى الدرجات في جميع دروسه فكان الأول دائما، أما عن هيئته الخارجية فقد كان ولدًا قويًا، عريض الكتفين، ومتين العضلات مما أعانه على رد على الطلبة الأكبر سنًا من الاعتداء "بالضرب" على التلاميذ الصغار القادمين حديثًا إلى المدرسة، فكان ذلك سببًا لرفع منزلته بين جميع زملائه.

في تلك المرحلة المبكرة اعتاد التلميذ "فكرت" أن يشغل ساعات فراغه، مثل أغلب الموهوبين من تلاميذ ذلك العهد، بقول الشعر في أغراض الغزل والخمريات والفخر وما إلى ذلك من الأغراض التقليدية لإثبات قابلياته الأدبية، وكان يحرص على نظام "النقائض" يعارض بها أشهر قصائد كبار الشعراء القدامى، رغم نفوره الفطري من التقليد، وفي كل هذا كان واقعًا تحت تأثير أستاذه "المعلم ناجي" الشاعر المشهور يومئذ، وبهذا يكون "فكرت" قد افتتح مسيرته

الأدبية بالتقليد، متخذًا من الشعر الديواني(2) مثالاً يحتذيه، ومع ذلك تجلتْ أصالة "فكرت" حتى في هذه الأشعار الأولى، في تلك الفترة كان "المعلم ناجي" محررًا للصفحة الأدبية في مجلة "تصوير أفكار" في استانبول، وكان شغله الشاغل إحياء التراث الأدبي للشعراء القدامى، كذلك وقع "فكرت" في هذا الدور تحت تأثير مدرسه الآخر "المعلم فيضي" الذي شجعه على النشر في جريدة "ترجمان حقيقت" التي كان يصدرها يومئذ الكاتب الصحفي والروائي الشهير أحمد مدحت أفندي "الصحفي الذي رافق مدحت باشا إلى بغداد فأصدر فيها جريدة الزوراء".

في سنة 1886 نشر الشاعر رجائي زادة محمود أكرم ديوانه "ألحان الكدر" وشرح في مقدمته آراءه الخاصة في الأدب وتحدث عن التجديدات التي أدخلها في شعره منتقدًا في الوقت ذاته أساليب الشعراء التقليديين، أمثال المعلم ناجي، وكان لهذه المقدمة صدى عميق في نفس توفيق فكرت، إذ حررته من تأثيرات أولئك الشعراء، ومن الطبيعي أنه ازداد حماسًا لإتباع خطى أستاذه "أكرم".

ولما كان عبد الحق حامد هو النجمة المتلألئة في سماء الشعر التركي في تلك الفترة، فمن الطبيعي أن يقتفي خطاه أغلب الشعراء الشباب ومنهم توفيق فكرت، والخلاصة فإن "فكرت كان حينئذ في مرحلة البحث عن الهوية، ولم يكن قد وجد نفسه بعد.

---

(2) الشعر الديواني لدى الأتراك يقابل عندنا الشعر التقليدي أو القديم، الذي يقوم على العروض العربي والقوالب الشعرية الإيرانية أيضًا.

ذلك يفسر عدم ظهور قصائد هذه المرحلة ضمن مجموعته الشعرية الأولى والتي نُشرت بعنوان الرباب المحطمة "رباب شيكستْ".

في عام 1889 تم زواج "فكرت" من بنت خاله "ناظمه هانم"، ثم ولد له منها ابنهما الوحيد "خلوق" الذي سيكون له موقع هام في شاعرية والده.

منذ عام 1891 صار فكرت ينشر أشعاره في مجلة "المرصاد" التي يديرها المعلم ناجي، ويحررها الشاعر إسماعيل صفاء(3) فثبتت أقدامه في دنيا الشعر، وذاع اسمه في الأوساط الأدبية، وفي عام 1895 أصدرت الحكومة قرارًا يقضي بتخفيض رواتب الموظفين بنسبة 10% بسبب الضائقة المالية المحيقة بالبلاد، كان "فكرت" في ذلك الحين مدرسًا في ثانوية "غلاطة سراي"، فاشتد سخطه لهذا الإجراء الكيفي، ولم يتردد في انتقاده علنًا، ثم قدم استقالته من وظيفته، على عادته كلما شاء إعلان احتجاجه ضد الحكومة العثمانية.

ولما صدر الأمر بإغلاق مجلة "المرصاد" عام 1894 وتم استجواب كل من مديريها المسؤول ورئيس تحريرها، اتفق "فكرت" مع مجموعة من أصحابه الأدباء على إصدار مجلة أدبية أسبوعية

---

(3) إسماعيل صفاء: 1867-1901: ولد في مكة أثناء عمل والده فيها كموظف عثماني، في استانبول وقف إسماعيل صفاء مع المعارضة ضد حكم السلطان عبد الحميد فنفاه إلى بلده "سيفاس" التي لم تلائم صحته، وكان مصابًا بالسل، فتوفي فيها، كان شاعرًا رقيقًا لطيف المعشر، حاول التجديد ونجح في مهمته شيئًا ما، انضم إلى جماعة "ثروة الفنون"، كان صفاء من أصدقاء الشاعر جميل صدقي الزهاوي، وللشاعر العراقي مراثٍ في صديقه العثماني.

جديدة بعنوان "معلومات"، وظهرتْ في السنة عينها، واستمر صدورها 48 أسبوعًا إلى أن وصلها أمر الإغلاق. في هذا الباب لابد من الإشارة إلى أن امتياز مجلة "المعلومات" مُنح بعد ذلك إلى هيئة إدارية أخرى معاكسة في اتجاهاتها السياسية والفكرية لتوفيق فكرت وجماعته، فصدرتْ "معلومات" بصيغة جديدة ذات نزعة سلفية تقليدية تحت حماية البلاط، وفي سنة 1896 التف الأدباء المجددون ويضمنهم توفيق فكرت حول مجلة جديدة أطلقوا عليا اسم "ثروة فنون" تحت إدارة أديب اسمه أحمد إحسان.

انهمك "فكرت" في هذه المرحلة من حياته بالتهام آثار الأدباء الفرنسيين ودراسة دواوين شعرائهم المحدثين يقرأها بلغتها الأصلية متفحصًا مسحورًا، ولما كان فكرت مشغوفًا بالرسم فإنه اتجه إلى التفكير في المسائل الجمالية، ونشرت له الصحف دراسات في علم الجمال، فضلاً عن مقالاته حول الشعر الفرنسي، كذلك نشرتْ له الصحف تراجم كثيرة لشعراء فرنسيين مع قصائدهم أمثال بودلير، وألفريد دي موسيه، ولامارتين، وبدأ يعقد المقارنات بين أشعار هؤلاء، وقصائد قدماء الشعراء الأتراك.

*** ***

اصطبغت الأشعار التي أرسلها فكرت إلى مجلة "المرصاد" للنشر، بجو متفائل بهيج لا صلة له بما سيطبع أشعاره في المستقبل من حزن وأسى، كان شعر هذا العهد مقصورًا على مواضيع الطبيعية والحب ومشاعر الشباب، على أن أسلوبه الأدبي بدأ يأخذ شكلاً واضحًا ذا خصوصية، من هذا الوقت فصاعدًا. وسوف تبقى الألفاظ والتراكيب اللغوية التي استعملها وقتئذٍ ثابتة لتبرز على حالها في قصائد المستقبل، وهذه كانت بداية تكون الشخصية الذاتية، ويُلاحظ أن فكرت شرع ينفض عن إِعاره كل قوالب اللغة التقليدية المتصنعة، وفي نثره أيضًا استخدم لغة الكلام اليومية منصرفًا عن المحسنات البديعية التي كان الكُتاب العثمانيون مولعين بها وظهرتْ بواكير الثورة على قوالب العروض، في بعض أشعاره.

في سنة 1896 اقترح الشاعر "أكرم" تكوين جبهة أدبية من الأدباء الشباب، تكافح للتخلص من الأدب التقليدي السلفي الذي كان السراي يغذي نفوذه ويرعى ممثليه من الشعراء الجامدين، وفي الوقت ذاته طلب "أكرم" من "أحمد إحسان" أن يسند رئاسة تحرير "ثروة الفنون" إلى الشاعر توفيق فكرت.

في هذه السنة أيضًا وقع اختيار مدرسة "روبرت كوليج" على "توفيق فكرت" لتدريس اللغة التركية لتلاميذها براتب شهري قدره خمسمائة قرش، وسيبقى فكرت في هذه المدرسة حتى نهاية حياته.

لم تمنع وفاة المعلم ناجي سنة 1893 من ظهور مَنْ يحل محله في رفع راية أدب الصنعة والتقليد، متمثلا في كاتب صحفي ذي شخصية غامضة اسمه "بابا طاهر"، وهو الذي أسندت إليه رئاسة تحرير مجلة "معلومات" بعد انتزاعها من أيدي الأدباء المجددين لتصبح تحت إشراف بابا طاهر دعامة الأدب السلفي الميت، وعدوة لكل النزعات التجديدية في الأدب.

لكن أدباء التجديد التفوا حول مجلة "المكتب" التي بدأت بالصدور في تلك الفترة وكان هدفها الأساسي توسيع معلومات تلامذة المدارس عن طريق نشر الدراسات العلمية المبسطة، لكنّ المجلة تحولت منذ نهاية 1895 إلى مجلة أدبية ثقافية تعني بنشر المناقشات حول الثقافة الجديدة، والثقافة المتحضرة القديمة، وذلك بفضل جهود الأدباء الجدد المساهمين في تحريرها.

حدث في ذلك الوقت أنّ مجلة "المعلومات المصورة" نشرتْ قصيدة، أثارتْ ضجة في عالم الأدب وفتحت بابًا للنقاش على صفحات المجلات والجرائد، دار النقاش حول مشكلة تخص القوافي وعيوبها، فالشاعر نامق كمال لجأ إلى "الاكفاء" (4) في إحدى قصائده مستعملاً لفظتي "وطن" و"كفن" مما لا يتواءم مع أصوات اللغة التركية، ذلك أن كلمة "وطن" تلفظ في التركية هكذا Vatan في حين تلفظ "كفن" هكذا Kefen أي أن الصوت الذي يسبق نون

(4) الاكفاء: شبيه بالإقواء وهما من عيوب القوافي في شعرنا العربي ويقصد بهما اختلاف تشكيل القوافي بالكسور والضم والفتح أو تبديل حروف القوافي بحروف مشابهة في المخارج أو في التهجي، كان يأتي الشاعر بالعين مع الغين أو بالدال مع الطاء وهلم جرا.

"وطن" مخالف للصوت الذي يسبق نون كفن، وهذا هو الذي اضطر نامق كمال إلى القبول بعيب الاكتفاء، وكان الشاعر المجدد "رجائي زاده أكرم" قد نشر مقالاً يعارض فيه لجوء الشعراء الأتراك إلى عيوب القوافي كالإكفاء والسناد والإيطاء...إلخ مطالبًا الشعراء الأتراك بالتخلص من قواعد الشعر العربي والفارسي، لأنها غريبة عن أصوات اللغة التركة وتراكيبها، ثم ظهر في الصحف مقال آخر لشاعر اسمه حسن عساف، ضرب فيه مثلاً آخر على الإقواء في كلمتي "عبث" و"مقتبس" لأنّ التركي يلفظ الثاء سينا فيصبح الروي في اللفظتين واحدًا في حين إنهما في العربية حرفان مستقلان.

كانت حصيلة هذا الجدال، اقتناع غالبية الكتاب والمتأدبين بضرورة استناد الشاعر التركي على قواعد مشتقة من طبيعة اللغة التركية، وليس من أيه لغة أخرى، أي وجوب الاعتماد على قوانين تُستخلص من تراكيب اللغة التركية، وأبنيتها الذاتية، ونبذ قواعد اللغتين العربية والفارسية المختلفتين تمامًا عن بعضهما، فضلاً عن اختلافهما عن اللغة التركية، لكنّ المحافظين هبوا يهاجمون بعنف حركة التجديد هذه وممثليها، لاسيما جماعة "ثروة الفنون" باسم التقاليد والأخلاق والمقدسات وما إلى ذلك من أمور لا صلة لها في الواقع بموضوع الاختلاف الأساسي.

استقطبت مجلة ثروة الفنون التي يرأس تحريرها توفيق فكرت جميع الشعراء والكتاب الشباب تقريبًا، وكان في مقدمتهم: جناب شهاب الدين، وخالد ضياء أوشاكْ ليغيل، ومحمد رؤوف، وحسين جاهد يالجين، وأخوه حسين سعاد يالجين، وسلميان نظيف أوزانْ صوي،

وأخوه فائق علي أوزانْ صوي، وأحمد شعيب، وحسين سيرت، وجلال ساهر...إلخ، وهكذا احتلتْ المجلة موقعًا خطيرًا في عالم الأدب وقتئذ، وكانت تصدر كل يوم خميس فيتلقفها جميع المهتمين بالأدب والثقافة بلهفة شديدة مما زاد في حنق السَلَفيين ونقمتهم على محرري المجلة وكتابها، ووصل بهم الأمر إلى تحريض السلطات عليهم للتخلص من منافستهم، ومن أولئك الأعداء الكتاب الروائي أحمد راسم، والصحفي أحمد مدحت أفندي...إلخ، وأصبحت مجلة "المعلومات المصورة" التي يشرف عليها بابا طاهر، مركز تجمع للمحافظين والسلفيين، فمن هو بابا طاهر هذا؟

الحق أن الجميع كانوا على علم بالجهة التي كانت تقف وراءه، وهي: السراي، أما عن ماضي هذا الشخص قد ظل مجهولاً، أما عن هيئته فقد كان رجلاً طويل القامة متين العضلات متألق العينين، ظاهر الوسامة، يضع على عينيه نظارات مذهبة الإطار، وقد عُرف عنه الجهل الجسارة في وقت واحد، ثراؤه وفير، ويداه مبسوطتان وينفق على ملبسه بلا حساب، وكان له عربته الخاصة، وفي ذلك الوقت كان الواجب الأول الملقي على بابا طاهر جمع المعلومات عن الشاعر رجائي زادة محمود أكرم وعلاقاته الخاصة لأن "أكرم" هو الذي تزعم الشعراء المجددين جميعًا.

ومن المجلات الأخرى التي وقفتْ ضد ثروة الفنون وحركتها: مجلة "خزينة الفنون" ثم مجلة "الجريدة المصورة" و"مصور الفن والأدب" وغيرها، كان أشد ما يثير انزعاج المحافظين اللغة الجديدة التي استخدمها شعراء التجديد، وظهور التأثيرات الأوروبية عليها

لاسيما تأثير الشعر الفرنسي. فقالوا أنّ تلك التأثيرات ستفقد الشعر التركي أصالته، متناسين تبعية الشعر التركي للشعر العربي والشعر الفارسي الكلاسيكيين، وعَلَتْ صيحات السلفيين مطالبة بمنع نشر هذا الشعر المستورد، لأن فيه خيانة لأرض الأجداد على حد وصفهم، ولأنهم لا يحسنون، في العادة غير اللغتين العربية والفارسية، فقد وصفوا الشعر الجديد الأوروبي النزعة أنه غامض متكلف، وكانوا يستشهدون بأشعار المجددين المتأثرين بالمدرسة البارناسية والمدرسة الرمزية.

لكن أشد هجوم على مجلة "ثروة الفنون" وكتابها جاء من جهة الكاتب الشهير أحمد مدحت أفندي(5) الذي كان له يومئذٍ نفوذ هائل بين المتأدبين إذ قام بدور مشابه لدور ألكسندر دوماس في فرنسا في فرنسا. لكنّ روايات أحمد مدحت أفندي فقدت قراءها في عصرنا هذا إذ فات أوانها.

أطلق أحمد مدحت أفندي على الشعراء الرواد لقب "المتفسخين" تشبيهًا لهم بأعضاء الحركة الأوروبية الفرنسية الذين عرفوا يومئذ باسم Decadents أي المتفسخين مدركًا ما تولدهُ هذه اللفظة من إيحاء سيئة في نفوس القراء البعيدين عن الآداب الأوروبية،

---

(5) أحمد مدحت أفندي: 1844-1912: روائي وصحفي ذائع الصيت في تركيا في عهد التنظيمات "إصلاح"، صحب الوالي المصلح مدحت باشا سنة 1868 إلى بغداد، حديث أصدر جريدة "الزوراء" بواسطة مطبعة أسسها بنفسه، ثم عاد إلى استانبول سنة 1874، حيث أصدر مجلات كثيرة منها "عبرتْ"، فنفاه السلطان عبد العزيز إلى جزيرة رودس، ثم عاد إلى استانبول وصار من أشهر الروائيين، نَشَر من الروايات مائتي رواية!!

وتياراتها الجديدة. وهكذا وضع بأيدي السلفيين سلاحًا جديدًا يحاربون به رواد الأدب الجديد.

نشير بهذا الصدد إلى أنّ كُتّاب "ثروة الفنون" لم يعبأوا بالوصف المذكور واستمروا في الكتابة ونشر إنتاجاتهم، إذ كانوا يعرفون أن المستقبل معهم هم، لأنّ الحياة لا يمكن أن تقف أو تجمد إطلاقًا.

انصرف توفيق فكرت، وخالد ضياء، وجناب شهاب الدين إلى تأليف المقالات التي تدافع عن الأدب الجديد وتوضح أهدافه، في حين وقع عبء صدّ الهجمات الصحفية على كتفي زميلهم الجسور حسين جاهد يالجين ومنذ اليوم الأول لوجود توفيق فكرت في رئاسة تحرير ثروة الفنون، انصرف إلى تبليغ وجهات نظره هو وأصحابه إلى القراء والمثقفين، في صورة قصائد مؤثرة فمن ذلك قوله:

مهما قالوا فشعرنا حلو ساحر

الموسيقى الإلهية تصاغ

من امتزاج الموهبة بالذوق الجميل

والشعر قد لا يتلاءم مع العقل

لكنّ الشاعر.. وحده.. قادر

على خلق أجنحة لطير الخيال

وفي افتتاحية أحد الأعداد قال "لغة الشعر لابد أن تكون شفافة مرهفة، والشاعر عليه أن يُخضع لغته لمزيد من الفحص والتدقيق،

لأن لغة الشعر يجب أن تستثير الأفكار وتحفز المشاعر الغافية، أما أدبنا الديواني فهو لا يملك بنية سليمة وأراه مصابًا بفقر الدم والهزال".

استثارت حركة التجديد شكوك السلطان عبد الحميد وارتاب في نوايا الشعراء الشباب، فراحت الأوامر الفرمانية التي تضيق على حرية النشر تتابع، ورغم أن مجلة "ثروة الفنون" كانت بعيدة عن السياسة، فإنها لم تسلم من قلم الرقيب يومًا واحدًا، وظلت تعاني أشد المعاناة من تدخلاته إلى أن صدر الأمر بإغلاقها سنة 1901 أي بعد خمس سنين من صدورها.

حددت في تلك الأثناء أن اجتمع بعض الأدباء وفيهم توفيق فكرت، في دار الشاعر إسماعيل صفاء فانشد هذا قصيدة هجاء لعبد الحميد، سرعان ما راحت الأيدي تتناولها سرًا ومع أن البوليس فشل في العثور على نسخة من القصيدة، إلا أن الأمر صدر بنفي إسماعيل صفاء إلى خارج ولاية استانبول، واستُدعي توفيق فكرت إلى مركز الشرطة للاستجواب، وأوقف بضعة أيام ثم أطلق سراحه، لم تنشر هذه القصيدة إلا في سنة 1941، في عهد الاتحاد والترقي، لكنّ الشاعر "صفاء" كان قد مضى على وفاته عهد طويل، كما أن عبد الحميد كان قد خلع منذ سنين. في القصيدة جِدَّة تذكرنا بأسلوب توفيق فكرت فلنصغِ إلى جزء منها:

حولك جمعتَ حفنةً من الأدنياء

لم تمنعك نفسُك عن أقسى الظلم

سرقتَ من الأخ أخاه ومن الأب ولده

وجعلتَ التجسس وسيلةَ الثراء

قدمتَ الجُهّال والأنذال والمرتشين

أرسلتَ أعظم الرجال إلى المنفى

الشعبُ لا يطيق تحمل هذا الجور

هذه القصيدة تصلح للرد على أنصار عبد الحميد والمدافعين عنه وتستطيع أن تفحمهم، وفي لهجتها الغاضبة أعظم دليل على احتراق قلب الشاعر مما كان يسمع ويرى هو الناس، من مظالم عبد الحميد، ولم يكن إسماعيل صفاء من أهل المصالح، ولا يمكن أن يخطر لأحد بأنه يكذب، إذ لا يمكن أن يعرض نفسه للخطر، بدون أي سبب أو فائدة.

هذا هو الجو السياسي الذي كُتب على "فكرت" أن يستنشق سمومه في تلك الأيام، فكان الغرق في قرارة اليأس أمرًا متوقعًا، على أن التشاؤم لم يقتصر على "فكرت" وحده، بل تماثلتْ ردود الفعل تقريبًا لدى جميع زملائه في "ثروة الفنون" ولما كان "فكرت" إنسانا مثاليًا، وفنانًا رومانسيًا، قد نفض يده من الحياة الاجتماعية وصار يميل إلى العزلة.

خالد ضياء الروائي الشهير يصف أحوال فكرت هذه قائلاً "ما يكاد فكرت يغادر روبرت كوليج حتى يتملكه شعور شديد بالقلق النابع من ملاحظة لفساد المجتمع وانقلاب الموازين الخلقية، وتفشي النفاق

والمراء والشراهة والحسد، فيحس الدنيا وكأنما تضيق وتضيق إذ يتضاءل عدد أصحابه بعد تحطم آماله في أغلبهم، ولا يجد مفرًا من الابتعاد عنهم، والانزواء وحيدًا داخل جدران داره الجميلة "أشيان" الواقعة على البسفور، تلك الدار التي نقش جدرانها بريشته الخاصة ولا يجد أمامه غير زوجه (وهو الوصف الصحيح لكلمة زوجة الشائعة) ناظم هانم وابنهما الوحيد خلوق، ولا يكاد يغادر المنزل إلا إلى المدرسة.

من المعروف أنّ كثيرًا من المفكرين والفنانين والأدباء يتحولون إلى اليأس حين يتناقض الواقع مع المثل الأعلى، وخالد ضياء، وهو واحد من أولئك، يرسم في رواياته شخصيات تتعرض لتلك التجربة كما نرى في بطل روايته "الأزرق والأسود"، وتلقي الرسالة التالية الضوء على الحالة النفسية التي كان فيها توفيق فكرت يومئذٍ، وهي موجهة منه إلى صديقه سليمان نظيف(6).

"يأس.. يأس.. يأس أنا يا صديقي أعيش أزمة نفسية مؤلمة، بكلمة واحدة، أنا أنطفئ، أخمد!! ويا ويلنا إذا استمر هذا طويلاً، أتريد معرفة سر آلامي؟ لكنك لن تصدقني إذا اعترفتُ، أنا نفسي أضحك

(6) سليمان نظيف 1870-1927: حين سقطتْ بغداد بيد الإنجليز في الحرب العالمية الأولى كان هذا الأديب الشاعر هو الوالي عليها، وقد حزن لضياع العراق فكتب سلسلة مقالات وأشعار وجمعها في كتاب عنوانه "فراق العراق"، وحين عاد إلى استانبول اشتغل ببيع الفحم، حدث أن سأله أحدهم: أتبيع الفخم يا سليمان بيك؟ فأجاب فورًا مادمنا سنخرج من ميدان الحرب بوجه أسود، أفلا يحسن بناء على الأقل أن نبيع فحمنا الأسود؟ وكان سليمان نظيف من جماعة ثروة الفنون، أي أنه من أعداء العثمانيين ولم يسمحوا له بالعيش في استانبول إلا بعد إعلان دستور 1908، له مؤلفات كثيرة بين شعر ونثر وتاريخ وسياسة.

أحيانًا مما وصلتْ إليه حالتي، أنا يا نظيف وحيد في هذا العالم مترامي الأطراف، بين أصدقائي أحس برعدة برد لا يفهمها غير الذي يسير عارياً بين الناس، ألا ترى الناس جميعا يسدلون على وجدانهم ستائر سمكية كي يحجبوه عن الأعين؟ لكني أنا مختلف عنهم، فوجداني مكشوف معرّى غير قابل للإخفاء.

كل الناس قادرون على تحمل العيش في هذه الظروف التعسة، كلهم يتنفسون هواء الرذيلة بلا حياء، ولا خجل، وأنا وحدي عاجز عن ذلك، ما يعذبني هو نداء ضمير، ضمير الأدب، ناموس الفن، لكن علينا أن نقول لضمير الأدب والفن، وداعًا! وبُعدًا لمشاعر الحياء! المصيبة يا نظيف إنّ الجميع يقولون لي: كنْ مع الزمان وتوافق معه، فبحق السماء لا تقل قولهم، أخبرني إن الزمان ظالم سخيف جاهل".

هذه النفثات المؤثرة لا تدل على مزاج سوداوي أو متقلب أو فردي النزعة، وعلينا ألا ننسى أنّ الهروب من الواقع علامة يتميز بها الأدب والفن في عهود الاستبداد وحين تكون آلام الأديب وأحاسيسه الذاتية هي الموضوع الأوحد للإنتاج الأدبي فمن الواجب تقصي أسباب ذلك خارج عالم الأدب والأدباء، أي في المجتمع ذاته.

وهكذا لجأ فكرت إلى الخيال مثلما يفعل أي شاعر رومانسي، وفي قصيدته "الأسى" التي نُشرت سنة 1895 تتضح أولى علامات التشاؤم التي ستميز شعره لفترة طويلة قادمة، في هذه القصيدة التي تسمى عندهم "ترجيع البند" وهو ضرب من الشعر شبيه بالموشّح في أدبنا العربي، يختم الشاعر كل "بند"، "بالترجيع" التالي:

"همّ مرعب، همّ أشد إرعابًا حتى من الموت"

هذه الحالة اليائسة جعلتْ الشاعر ينظر إلى أيام الطفولة بحسرة شديدة فقد بدت في عينيه ملونة بأحلى الألوان، ساحرةً جذلة، لكن ذلك كله صار ماضيًا بعيدًا فالسعادة أصبحت في حكم المستحيل:

الليل الداجي لا يسري

الشعر الحزين هو لسان حالي

ووقعت الكارثة في سنة 1901 ففي هذا العام، كتب حسين جاهد في مجلة ثروة الفنون مقالاً بعنوان "الأدب والحقول"، أغضب السراي، وأدى إلى إغلاق المجلة العزيزة على قلب توفيق فكرت، فكانت هذه بمثابة صدمة شديدة لم يكن في مستطاع فكرت تحملها، وكان من نتائجها أن انسحب نهائيًا من الحياة العامة واعتزل الناس في داره "أشيان"، وفي هذه الفترة الخطيرة في حياة "فكرت" بدأ في كتابة مطولاته السياسية الملتهبة ضد عهد عبد الحميد، معلنًا في الوقت ذاته أفكاره العصرية وآراءه الجديدة.

كانت قصيدة الضباب SIS التي ذاعت سنة 1902 وتناقلها الناس سرًا ولم تنشر في وقتها، بمثابة البركان الذي تفجّر على غير انتظار وقذف بالحمم إلى أعالي السماء، فلقد نفّس بها الشاعر عن مشاعر الحنق والغيظ والاشمئزاز التي كانت تخنقه خنقًا، في القصيدة نحج فكرت أن يمزج بين الخاص والعام مزجًا رائعًا، ففي أحد أيام شتاء ذلك العام، وقف الشاعر عند نافذة منزله "أشيان" يتأمل الطبيعة، وخطر له أنّ الغيوم السود الحالكة التي تغطي سماء استانبول، ليست

إلا انعكاسًا للظلمات الرهيبة التي تلف أجواء البلاد كلها تحت نير الاستبداد العثماني، وفي القصيدة أيضًا تجلت شخصية فكرت بأوضح صورها.

أخيرًا فإنّ قصيدة "الضباب" أصبحت أصدق وثيقة اتهام للحكم العثماني، وفيها هجاء وفضح لتاريخ العثمانيين في استانبول:

مرةً أخرى الدخان العنيد يلفُّ سماءكِ

تدريجيًا تتراكم الغيوم الرمادية

تلك الحُجُب الحالكة ، والأفاق الكدرة

تناسبك يا أيتها المدينة اللعينة، يا ساحة المظالم

الخيانة امتزجتْ بأحجار عرشك منذ يوم تأسيسه

والبناء تعالى بماء اللعنات المسمومة

كل ذرة من أحجار البناء لا تحوي غير قذر الرياء

الطهر لا أثر له في أحشائك

لا شيء هناك سوى عفن الكذب وجشع المصلحة

لا شيء هناك غير نفثة الحسد يا بلد الوحشية

عاركِ فاستريه! وفي رقدة الموت غُطّي يا فاجرة العصور

أما أنتَ أيها الدستور، أيها الحلم الجميل المقترن بالحرية

هل كنتَ إلا أسطورةَ وهمٍ وخيال؟

بعد "الضباب" توالت القصائد النارية واحدة بعد الأخرى: "لو هل الصباح" و"الماضي والآتي "اللتان ظهرتا عام 1905 و"لحظة تأخر" التي كُتبتْ عام 1906 وغيرها من الأشعار التي لم يُكتب لها النشر، وإنما ذاعت عن طريق التداول في الخفاء، في جميع هذه القصائد يتوقع فكرت دنو موعد الثورة على السلطان المستبد، في "لو هل الصباح" يقول:

الفجُر آتٍ فلا بدَّ من نهاية لليل

والسماء المزرقة ستتألف بالنور عن قريب

وفي "لحظة تأخر" التي كتبها الشاعر أثر فشل محاولة لاغتيال السلطان عبد الحميد، تجلتْ حالة الفرح الذي تملك قلبه حين علم بوجود إنسان شجاع يتجاسر على السلطان بهذه الصورة، وبعد ذلك ينقل الشاعر خيبة آمال الناس لعدم تحقق الأحلام.

وفي سنة 1908 أُعلنت المشروطية الثانية "دستور 1908" فكان له دوي هائل في جميع البلاد العثمانية، وشعر فكرت بانفعال بهيج، فكتب قصيدة "رجوع"

لا.. أبدًا.. لن تعود الأيام اللعينة

لن تسيل من العيون دموع الأحزان

لكنَّ السعادة لم تدم، وسرعان ما أعلن عن حل مجلس المبعوثان وصحا الناس من أحلامهم الجميلة على خواء وفراغ، واحتدم الغضب في صدر "فكرت" فكتب قصيدته "عود إلى 95"، معيدًا إلى الذاكرة حادثة حل المجلس عام 1295هـ (1878م) بأمر من عبد الحميد أيضًا.

وآهٍ لنا.. ثلاثة وثلاثون عامًا من الدموع

خيبات، نكبات، أزمات، أهوال

أمل يبتسم لنا حينًا

وبلاء يحيق بنا حينًا آخر

مثل سيل يجرف كل ما أمامه

وما ينى التاريخ يسكب لعناته

حتى هذا اليوم ليس أمامنا غير الظلمات

حتى هذا اليوم... حصتُنا الجهلُ والغفلة

حتى هذا اليوم... لا ملكَ لنا غير الحزن

حتى هذا اليوم لا يتوقع الأشراف غير لطمات التنكيل

كيف يعيش الناس إذا ذبلتْ شجرةُ الحق؟

وتكسرت غصونُها فتناثرتْ أوراقها في مهب الرياح

ولما تكشف أمام الأنظار فساد حكم الاتحاديين تحت إدارة السلطان محمد رشاد، شحذ فكرتْ قلمه من جديد، ومرةً أخرى تتابعت قصائدُ الهجاء، موجهةً إلى الاتحاديين الذين خيبوا الآمال وأساءوا استخدام سلطتهم، فيما يلي جزء من قصيدة بعنوان "مأدبة النهب":

هذه المائدة ـ أيها السادة، تنتظر من يلتقم

إنها حياة الشعب المرتعد في حضوركم

هذا الشعب المضطرب، هذا الشعب المحتضر

لكن أياكم، من التهيب، كلو، ازدردوا

ابتلعوا كلّ شيء أيها الأسياد، فالمائدة الشهية أمامكم

كلوا حتى الشبع، حتى التخمة، حتى الانفجار

أنتم أيها السادة جياع جدًا، هذا وضح على أوجهكم

كلوا أذن، فإن لم تأكلوا اليوم فربما لن يبقى لكم غدًا شيء

شاهدوا نادي النعيم هذا، إنه يزهو بقدومكم

فكلوا... ذلكم حقكم بعد الغزوات وهو ملك لكم.

على هذه الصورة استقر الاتجاه الأدبي لفكرت، فأصبح فنه تجسيدًا لمذهب "الفن من أجل المجتمع"، وفي تلك الأيام كان يعلن أنّ "الفن لا يمكن أن يكون شخصيًا، لأنّ الفنان ليس من حقه الانفصال عن الحياة من حوله، بل أن اهتمامه بصدق التعبير عنها يزيد من قيمة

فنه". إن مطولة فكرت: "التاريخ القديم"، هي أحسن مثال لاستخدامه الشعر وسيلة دفاع عن المجتمع، وأسلوب تحريض ضد الحكومات الجائرة:

كلما مرتْ الجيوشُ الجرارة سالت الدماءُ أنهارًا

وصعّر أحد الأمراء خده زهوًا وفخارًا

وتتابعتْ صفوفُ الأسرى، غالب واحد يقابلهُ عشرة مغلوبين

المنتصر دائمًا على حق، والمهزوم لابدَّ على باطل

الحقُ لا تنبس له شفة، ولا يتفوه به لسان

الخير تحت الأقدام، والشرَ في الأحضان

لا حقيقة إلا الأغلال ولا بليغ إلا السيف

والحق هو القوة

والحكمة الفصحى في الحروب كما يلي:

اسحقوا المهزوم، أبيدوه

الدين يطالب بالشهداء فليس ثمة إلا الدم،

الدم رمز البطولة فلتطيعوا الأوامر

هدموا أ اسحقوا، اقطعوا، احرِقوا،

لا ترحموا مستغيثاً ولا تصغوا إلى آهة

دمروا المساكن واسبوا النساء

والحقوهن بأذيالكم كقطعان الأنعام

وإياكم أن تصغوا إلى أنين أطفالهن

***

ما أحلى العيش دون قهر أو استعباد

كما سيقع في العصور المضيئة الآتية

حين تسَود الحرية بأنوارها فلا ظالم ولا مظلوم

لا حروف ولا قتلى لا شكاوى ولا آنَّات

أنا، أنا، أنت أنت، كلٌّ لنفسه

فلا أسياد ولا عبيد.

من هذا يبدو التاريخ في رأي "فكرت" سلسلة حروب دموية ظالمة لا هدف لها إلا السلب والنهب وإشباع الغرائز الحيوانية، وبهذا الرأي يعارض فكرت أولئك الذين يضفون على التاريخ مسحة رومانسية، لا نصيب لها من الواقع، متظاهرين بتصديق ادعاءات المؤرخين المتمسحين بأعتاب الغزاة الذين كانوا لا يفتأون يثيرون الحروب تحت شعارات براقة مزيفة، وهو يخلص إلى أن تلك المغازي عارضت مجرى التقدم الحضاري، على الضد من جميع مزاعمهم الكاذبة، أما البطولات الفردية التي ينسبها المؤرخون للملوك والقواد القدامى، الذين اعتادوا اجتياح الأراضي وغزوها بلا مبرر ولا

ضرورة، فليست إلا شواهد على همجيتهم، وخلو نفوسهم تمامًا من مشاعر الشفقة والرحمة، ناهيك عما كان يعقب الحروب من كوارث وفواجع ومن أوبئة ومجاعات وسقوط للقيم الأخلاقية، وانهيار للاقتصاد وخراب للمجتمعات.

أثارت قصيدة "التاريخ القديم" ضجيجًا مدويًا، فقد قلبت مقاييس المحافظين رأسًا على عقب، إذ أزالت الحجب عن المومياوات العفنة التي طمرتها الدهور فأضفى عليها مضي السنين هالةً براقةً من الأوهام الجميلة والأخيلة الرومانسية التي لا نصيب لها من وقائع الحياة الحية وهكذا هبّ أنصار القديم يهاجمون فكرت ويقذفونه بأشنع التهم التي لم يكن أقلها الإلحاد والفوضوية وتلويث المقدسات وما إلى ذلك، دون أن يكلفوا أنفسهم مراجعة تناقضات التاريخ ذاته ليتأكدوا من صحة آراء فكرت أو من بطلانها.

قد يكون تاريخ الدولة العثمانية الملطخ بدماء أبناء الشعوب المغلوبة التي خضعت قرونًا طوالاً لحكمهم الجائر، هو المسؤول عن غرس بذور الكراهية في نفس "فكرت" ضد جميع أشكال العنف والقسوة، ووقوفه بحزم ضد المنتفعين من إشعال نيران الحرب في كل زمان ومكان، وربما كان ذلك سببًا في الوقت ذاته، لمهاجمته للتعصب المذهبي والديني في كل مناسبة لأنّ التعصب لابدَّ أن يؤدي إلى اندلاع نيران الفتنة ومن ثم الحروب.

لناظم حكمت، الشاعر الشهير، رأي قد يكون مخالفًا لآراء بقية النقاد في شخصية فكرت، إذ يرى "ناظم" أن توفيق فكرتَ مثَّل آمال وتطلعات طبقة المثقفين في عصره، ولذلك ظلَّ مزاجه متراوحًا بين

أقصى التفاؤل وأقصى التشاؤم، وذلك بحسب الظروف المتناقضة التي كانت الدولة العثمانية تمر بها وقتئذٍ، فليس غريبًا أن نراه حينًا مستبشرًا بالمستقبل راضيًا عن الحاضر، بينما ينساق في حين آخر إلى اليأس الأسود متوقعًا لوطنه أسوأ مصير. ولما كان "فكرت" شديد المثالية فإنّه كان معرضًا دومًا لضيق الصدر ونفاذ الصبر، بسبب خيبته المرّة في إمكانية تحقق الأحلام بالسرعة التي يتمناها، وبهذا يمكن أن نُعدّ "فكرت" إنسانًا فردي النزعة، يؤكد ذلك كثير من أقواله ومن أشهرها:

رقبتي لن تنحني تحت أسر الاستعباد

في أجوائي أطير وفي أفلاك ذاتي أجول

هذه الأبيات وأمثالها توضح اتجاهات فكرت الأساسية، فهو إنسان مثالي، صوفي، قريب إلى الطبيعة الانطوائية، أو ميّال إليها.

ومع ذلك فإنّ ناظم حكمت لم يحاول يومًا الانتقاص من قيمة فكرت إنسانًا أو فنانًا، بل اعتاد أن يشيد بوطنيته الأصيلة وبمواهبه الإبداعية الفذة في عالمي الأدب والثقافة، مثنيًا في الوقت ذاته على الخدمات الجليلة، التي قدمها فكرت للأجيال الشابة، ومن المهم في رأي "ناظم" أن تؤكد بأنّ "فكرت" ما كان قادرًا في الظروف التي عاشها أن يصنع أكثر مما صنع، فالإنسان رهن بالظروف وبشروط العصر، ولا يمكنه القفز فوقها، مهما بلغت قدراته ومواهبه.

في سنة 1911 ظهر ديوانه "دفتر خلوق"، وكان ابنه خلوق قد رحل توًا إلى سكوتلندا للتخصص في الهندسة، وتضمن الديوان مجموعة

قصائد اجتماعية المنحى، إنسانية الطابع، أما اسم "خلوق" فقد استخدمه كرمز للأجيال الطالعة من الشباب الذين لم يتعرضوا بعد لإغراء المناصب والمطامع، والذين عقد عليهم "فكرت" جميع آماله في تحقيق المثل العليا التي آمن بها طيلة حياته، يقول في واحدة من قصائد الكتاب:

من قطع طريقه ركضًا فسوف يبلغ غايته

ومن تعثرت خطاه فلابد له أن ينهض

الماء يتقطر من شقوق حصى الينبوع

قطرة بعد قطرة حتى يصير بحيرة من فضة

والحق تسير إليه خطوة فخطوة

الحق هو القوة الوحيدة في الكون

وفي قصيده "بروميثيوس"، يقدم فكرت للشباب نموذجًا للشجاعة والعظمة، إذ يقف بروميثيوس في وجه زيوس رب الأرباب متحديًا:

ليس من قوة تجبرني أن أبوح بالسر

فليفجر زيوس البروق والرعود في السماوات

ولترفرف أجنحة الثلج فوق القيعان

لتدمر الزلازل والبراكين العوالم جميعًا

فلن أتكلم ولن أغيّر آرائي

وحين يشتد عليه العذاب وتثقل أوجاعه، يلتمس العزاء في تذكر فضائله الجميلة:

في كل لحظة ينبض في القلب توق علوي

أحس لذع ناره فأسأله محزونًا:

أيقيمون في السماء، وأنا في الحفر؟

أتضحك الأكوان مني، ودموعي عزائي الوحيد؟

لكنَّ نسمة الحياة في جسده تمدهُ بالقوة، وتعاودهُ شجاعته حين يفكر بنار العلم التي سرقها من السماء، ووهبها للإنسان الهابط على الأرض:

أيتها الحياة الملتهبة يا روح جميع الكائنات

ليس جديرًا بالتقديس إلا الإنسان

فهو سيد كلّ شيء على سطح الأرض

في قصيدة "آمنتُ" يقدم فكرت لأبنه خلوق المبادئ التي يريد له أن يعتنقها، لأنّها نتاج الحضارة العصرية التي يصرُّ العثمانيون على رفضها وإنكارها، وهو يرى أنّ وطن الإنسان يجب أن يمتد ليشمل الأرض كلها، فالإنسان هو ابن الأرض، والبشر بهذا المعنى أخوة لأنّ أمهم واحدة، ثم أن الأرض، مادامت آهلة بالبشر، فإنها جَنّتهم الحقيقية، ويعلن فكرت أيضًا أن المستقبل لصيق بالعقل، لأنَّ الحضارة هي بنت العقل، في حين تنبع الهمجية من الغرائز العمياء

والنزوات الآنية، والعقل عنده معادلُ للحقيقة، كلُ هذه الأفكار لابدّ أن تعيد إلى الذاكرة أفكار الشاعر الإنجليزي الرومانسي شيللي، في قصيدته المطوّلة "بروميثيوس طليقًا" وخلاصة مذهب "فكرت" في هذا الديوان هي "أومن بعالم إنساني عقلاني مرتبط بالحياة".

في هذه المرحلة يبدو توفيق فكرت متفائلاً متوقعًا للبشر مستقبلاً عظيمًا، تسود فيه مبادئ الحرية والعدالة والثقافة للجميع، وهو لا يكتفي بالتعميمات الغامضة بل يشدد على أن الحضارة الحقيقية هي حضارة عصرنا الحديث التي يتربع العالم الغربي على قمتها، لأنّ العلم، الذي هو عصارة هذه الحضارة، مستقر بأيدي أبنائها.

إنَّ قصائد "دفتر خلوق" كُتبت جميعًا بين 1910-1912 أي حين كان العهد بإعلان الدستور وبسقوط استبداد عبد الحميد مازال قريبًا.

لما كان فكرت مهمتًا بتربية الشباب فإنّه لم يغفل الحديث ضمن قصائد الديوان، عن أحد أهمّ أسباب تأخر البلاد العثمانية عمومًا إلا وهو انحطاط قيمة المرأة في المجتمع، ففي إحدى القصائد أعاد الشاعر إلى الأذهان عهود ازدهار الدولة العثمانية، وما قدمته من منجزات حضارية، ثم تحاول إلى الدفاع عن الثقافة والعلم، وانتهى إلى التذكير بانحطاط مركز المرأة في العصر العثماني الأخير مشيرًا إلى أنَّ أمَةْ تهمل نصف المجتمع بأية ذريعة كانت، تاركةً هذا العدد الضخم من أبنائها في دياجير العمي والتأخر إنما هي أمّة تعترف بأعلى صوت بضعفها وعجزها.

في إنتاجه الشعري مَرَّ "فكرت" بعدة مراحل، ففي عهد كتابة "القيثارة المحطمة" يبدو شاعرًا فردي النزعة، شديد الاهتمام بالشكل والصنعة، في حين نجده مع "دفتر خلوق" منحازًا إلى مذهب "الفن في خدمة المجتمع"، أما عن فترة ديوان "شيرمين" فإنه يعود إلى الحنين لأيام الطفولة ويكتب قصائد للأطفال، فيكون بذلك أول شاعر تركي يوجه شعره هذه الوجهة التربوية.

بهذا يمكننا القوم إنَّ صلة "فكرت" بالفن والمجتمع تطورت بالشكل الذي نتوقعه من أي شاعر كبير مثله، في قصيدة "آمنتُ" يوجه الناس إلى الإيمان بقدراتهم الذاتية الخلاقة من ناحية، وبالإخاء البشري من ناحية أخرى:

الأرض وطني وجنسُ البشر قومي

الشيطانُ هو نحن، والجنُ نحن أيضًا

والفردوس الحقيقي هو دنيانا هذه

ثم يعلن ثقته بالنظريات العلمية الحديثة حول المادة والحركة والطاقة... إلخ مؤيدًا لفكرة التطور الذي يراه سُنّة الكون، لأنّ الكتب الدينية أيضًا تؤكد هذه الحقيقة الواضحة.

إن دفتر خلوق يتضمن تأكيدًا لحاجة الإمبراطورية العثمانية للإنسان العصري الذي لا يستطيع غيره إنقاذها من الهوة التي وقعت فيها، كما أن أشعار هذا الديوان هي دعوة حارة إلى تغيير مناهج التعليم وشؤون التربية من أجل صنع ذلك الإنسان.

في ذلك العهد انشغل التربويون الأتراك بمناقشات حامية حول إصلاح التعليم، ووقف "فكرت" إلى جانب الرأي الذي يحبذ إصلاح المناهج من المراحل الدراسية الأولى أي الابتدائية رافضًا فكرة التركيز على الدراسات الجامعية بحجة الاحتياج السريع للخرجين، ولكي يساهم في تسهيل الأمر على واضعي منهج القراءة والمحفوظات للمدارس الابتدائية، نشر ديوان "شيرمين" هديةً مجانيةً للأطفال.

أهمل فكرت في أشعار الديوان أوزان العروض التقليدية، مستخدمًا بدلها أسلوب التفعيلة hece في الوقت الذي خلص شعره أيضًا من جميع المحسنات البلاغية، وتجلتْ في هذه الأشعار أهداف فكرت التربوية، فقد كان من رأيه أن الهدف الأساسي للتعليم هو إعداد الطفل للحياة، وليس مجرد حشو دماغه بالمعلومات، من ناحية ثانية أيد "فكرت" آراء الفيلسوف الأمريكي "جون ديوي" في التربية، مطالبًا بتطبيق أسلوبه في تعليم الأطفال عن طريق اللعب، والاهتمام بالتجربة والتطبيق، أكثر من الحفظ عن ظهر قلب لمفردات وتفاصيل المادة العلمية. يقول "فكرت" في إحدى قصائد الديوان:

اليد والذراع في حاجة أبدية إلى العمل

وإلى العمل تسكن النفس وترتاح

بالعينين ينظر الإنسان ويتأمل

وباليد يحرك الآلة ويحقق المقاصد

فلا تصدق الأكاذيب التي تنكر هذه الحقائق

لأنَّ العظمة كلها في اليد العاملة

وينصح فكرت الآباء والمربين بإتباع أسلوب الإقناع، وليس الفرض بالقوة والعصا أو بالتهديد والتخويف من العفاريت والجن، وذلك يقودهُ إلى تنبيه المربين إلى غرس حب الطبيعية وعشق الحياة في نفوس الأطفال، ونبذ الطرق التعليمية البالية القديمة.

ولما كان "فكرت" متمكنًا من العروض، فقد استطاع أن يكيفه لمقتضيات اللغة التركية وأصواتها، بدلا من طريقة الشعراء الديوانيين الذين كانوا يطوعون الحرف التركي لمقتضيات العروض، وهو شيء غير طبيعي لغويًا وفنيًا.

ترجم فكرت كثيرًا من أشهر القصائد الفرنسية إلى التركية، وأحب في الشعر الغربي عمومًا أنه نابع من صميم الحياة ومعبّر عن أحاسيس الشاعر نفسه، وأنه لا يستسيغ التقليد ولا يعرفه، ولم يتردد فكرت في مهاجمة الشعر الديواني بشدة وبعنف، دون تحرج من الشعراء المقربين من القصر، المصّرين على المحافظة على القوالب الشعرية البالية التي أكل الدهر عليها وشرب، حتى تحجرت وتحولت إلى مومياوات.

ومع ذلك، فإنّ لغة فكرت ظلتْ، أساسًا، لغة عثمانية، ولم تكن تركية عصرية، لكن أسلوب الإيجاز الذي أخذه به، أعانه على التعبير عن أفكاره العصرية الحديثة بسهولة ويسر، ويُعَدّ فكرت الشاعر التركي

الأول الذي سعى جديًا وعن قصد، إلى كسر وحدة البيت، إضافةً إلى أنه وفق إلى نفث الروح والحركة في الشعر التركي.

إنَّ تأثر فكرت بالمدرستين البارناسية والرمزية انعكس في شعره على شكل عناية شديدة بالإيقاعات والأنغام، كما أنه يبدو في أحيان كثيرة في قصائده، وكأنّه رسام أو مصور.

بعد "فكرت" تصاعد اهتمام الشعر التركي بالعلم والفكر، مقتفيًا خطى هذا الرائد الشجاع، وبهذا يكون "فكرت" الشاعر الأول الذي نجح في إنقاذ الشعر التركي من الأجواء الصوفية التهويمية التي غرق فيها لمئات السنين، وفي تحويله إلى فن ذي صلة بالحياة اليومية وبالأحاسيس الفردية.

يصف الشاعر الشهير أحمد هاشم الألوسي(7) شاعرية "فكرت" على الشكل التالي: "أشبّه فكرت ببحر تتلاطم أمواجه فوق كتل صخرية هائلة، بينها يتألّق برج ذهبي سامق على قمته يجلس توفيق فكرت".

(7) أحمد هاشم الألوسي "1884-1933": أهم شعراء جماعة "الفجر الآتي" التركية الأدبية، جدهُ الثاني هو الكاتب الشهير محمود شهاب الدين الآلوسي. ولد أحمد هاشم في بغداد، لكنه قضى كل حياته في استانبول، من الشعراء الذين أثروا فيه :توفيق فكرت. التزم "هاشم" بنظرية الفن للفن مثل جماعة "الفجر الآتي" وتأثر بالمدرستين الرمزية والانطباعية، لكنه على العموم حافظ على تقاليد الأدب العثماني الديواني، ليس في شعره أيه اتجاهات اجتماعية.

أتاتورك وتوفيق فكرت

عُرف عن كمال أتاتورك حبه الشديد لتوفيق فكرت وإعجابه العظيم بشعره، رغم عدم وقوع أيّ تعارف بينهما، وهناك مناسبات كثيرة اكتشف فيها الناس مدى هذا الحب، فبعد مضي ثلاثة أعوام على وفاة فكرت، حدث أن مر موكب مصطفى كمال باشا بمنطقة روميلي حصار التي تقع فيها دار "أشيان" حيث قضى "فكرت" آخر سنوات حياته، وكان الكاتب سليمان نظيف ضمن المرافقين فاستأذن الغازي كمال أن يسمح له بالتوقيع في دفتر الذكريات الموجود في مدخل الدار، ثم كتب العبارة التالية "المتفاخر بحبْ فكرت حبْ عبادة في ذكرى طوافنا بداره، التوقيع سليمان نظيف"، وما كان أشد دهشة الجميع حين تقدم مصطفى كمال ووضع توقيعه هو الآخر بجانب توقيع سليمان نظيف، معترفًا بهذا أمام التاريخ، بأن حبه لفكرت يصل إلى حد العبادة، وقع هذا الحادث في 19 أغسطس/ آب 1918.

وفي أحد أيام سنة 1925، كان مصطفى كمال يزور مدرسة للبنين، فقال للمعلمين "تذكروا دائمًا أنّ الجمهورية تطالبكم بإنشاء جيل شبيه بالجيل الذي أنتج توفيق فكرت، وإياكم أن تنسوا شعاره الجميل: "فكرٌ حُرٌ، وجدانٌ حرٌ، عرفانٌ حرٌ".

ثم أن أتاتورك زار مدرسة للبنات، ومضى يحدث الطالبات عن أحوال المرأة التركية، وعن مستقبلها، وختم كلامه بما يلي "في هذا المقام لا أنسى قول المرحوم توفيق فكرت: إذا تعرضت المرأة للهوان سقط المجتمع في هوة الانحطاط".

في مناسبة أخرى، وكان كمال أتاتورك يقوم بنزهة بحرية، تجمع حوله طائفة من الشبان، وراح يتحدث إليهم، ثم انتقل الحديث إلى الأدب فاستأذنه أحد الشبان أن ينشد قصيدة "الغد" لتوفيق فكرت، فورًا لانت أسارير مصطفى كمال وقال مبتسمًا "الغد، هذه أحبّ القصائد إليَّ وأحب أن أنشدها لكم بنفسي"، ثم مضى يتلو القصيدة بيتًا بيتًا، دون أن ينسى منها شيئًا:-

كلُ شيء لكم أساسا أليس كذلك يا شباب؟

تعرفون أنّ عصرنا هذا هو عصر النور عصر الازدهار

كلّ ليلة، مع بريق كل نجمة، يختفي ظلٌ قاتم

فتتفتح آفاق الروح وتسمو إلى العلى

فلتحولوا وجوهكم إلى السماء حتى تلمس أديمها

ولتشاركوا الطيور تحليقها نحو اللامحدود

جدوا ، كافحوا، فكّروا، ابحثوا

اجروا، ثبوا، اهتفوا أجمعين:

زمن الخمول مضى، وعصر الكفاح قد حان.

في سنة 1938 قدم أتاتورك إلى بلدة "إيلازك"، وفي اجتماع عقده مع أهاليها أشار أتاتورك إلى الأديب "إسماعيل مياكون" أن يلقي على الموجودين طائفة من أشهر قصائد توفيق فكرت، فشرع الرجل بإنشاء قصائد "الغد" و"الضباب" و"رجوع"...إلخ، ولما بدا التعب

عليه توقف قليلاً التماسًا للراحة، فالتفت أتاتورك إلى الحاضرين قائلاً:

أتعرفون شاعرًا غير "فكرت" أبدع مثل هذه الأشعار الثورية؟

ثم عاد الأديب إلى إنشاد الأشعار، ومصطفى كمال يستعيد الأبيات مرَةً بعد أخرى دول ملل أو كلل، بعد ذلك شرع الرجل بإنشاد هجائية "فكرت" للشاعر السلفي محمد عاكف(8) فتجلت أمارات السرور على وجه أتاتورك، ومضى يدير بصره مبتهجًا في وجوه المستمعين.

ولما انتهى الرجل من إنشاده بدأ مصطفى كمال بالتحدث عن كفاح فكرت ضد الرجعيين أنصار الفكر العثماني المتأخر، وعن إيمان فكرت بالمستقبل وبالإنسانية ومُثُلها الجميلة.

وفي الحقيقة فإنّ تعاطف أتاتورك مع فكرت يجب ألا يثير الاستغراب ذلك أنّ أفكار هذا الشاعر كانت اللبنات الأساسية في بناء الثورة التركية الحديثة، وفكرت بهذا المعنى كان المهندس الأول لفكر تلك الثورة.

---

(8) محمد عاكف أرسوي: 1873-1936، كان إنسانًا قوي الشكيمة وشاعرًا متنوع المواهب، تخرج في المكتب البيطري ومارس المصارعة وشارك في حرب التحرير بالأناضول، وكتب "مارش الاستقلال" الذي مازال حتى اليوم، النشيد الوطني الرسمي لتركيا، رغم الخلاف الشديد الذي نشأ بين أتاتورك وبين الشاعر.

عُرف عن محمد عاكف العداء الشديد للحضارة الغربية الحديثة، والتعصب للاتحاد الإسلامي، أفكاره قريبة من أفكار جمال الدين الأفغاني، كان إعلان الجمهورية في تركيا برئاسة كمال أتاتورك بمثابة ضربة قاضية على محمد عاكف، قضى العقد الأخير من عمره في مصر مدرسًا للغة التركية في جامعتها.

يقول الكابت المعروف جتين آلتان "إن فكرت أقرب إلى تركيا الحاضرة من تركيا التي عاش فيها، ولو عاصرنا لاستطعنا أن نفهمه أفضل مما فهمه الذين أقام بينهم، إن جميع مؤيدي أتاتورك، وجميع العصرين لابدَّ لهم أن يتعرفوا على أثار هذا الإنسان والشاعر الكبير، فلقد كان فكرت أشد الثوريين حميةً وشجاعةً وإخلاصًا".

"المجابهة مع الشاعر محمد عاكف أرسوي"

لا يمكننا أن نعدّ الجدال الذي احتدم أوراه بين توفيق فكرت ومحمد عاكف على صفحات الجرائد والمجلات، معركة أدبية بأيّ شكل من الأشكال، ذلك أن الخصومة التي ثارت بين الطرفين لم تكن ذات صلة بقضية لغوية أو بمحتوى أدبي، كما أنها لم تسفر عن أي موضوع ثقافي محدد، ثم أن هذه الخصومة لم تبدأ في تاريخ معين، فمع أن الجدال ثار منذ عام 1912، إلا أن بذور الخصومة كانت قد ألقيت قبل ذلك بوقت طويل، ثم أن الشقاق والشجار لم ينتهيا بوفاة الشاعرين، بل استمرا إلى ما بعد ذلك لفترة طويلة، بل يمكن القول إن المعركة مازالت محتدمة، حتى اليوم يجسّدها ذلك الصراع الأبدي بين القديم والجديد.

كان محمد عاكف أرسوي رجلاً محافظًا، شديد النفور من الروح التجريبية القلقة التي تميز الحضارة الغربية الحديثة، مفضلاً عليها السكون اليقيني الراسخ الذي هو طابع السلفيين جميعا. ولما كان مؤمناً بفكرة "اتحاد الملة الإسلامية" التي نادت بها الدولة العثمانية، كي يسهل عليها حكم جميع الشعوب الإسلامية المتباينة الداخلة في جسم الإمبراطورية، فإنّ المبادئ القومية التي نادى بها أتاتورك

زرعتْ في قلب محمد عاكف بذور الرعب، إذ أدرك بأنّ انتصار هذه الأفكار لا يعني، في النهاية، إلا انحسار السيادة العثمانية عن الشعوب الإسلامية، وزوال جميع الآمال ببزوغ فجر الدولة الإسلامية الكبرى التي تصور أنها وحدها القادرة على كسف شمس الحضارة الغربية الحديثة، ومن أقوال محمد عاكف الشهيرة ما يلي: "النبي محمد لغن التعصب القومي".

عُرف عن محمد عاكف إخلاصه الشديد لمعتقداته، ولم يكن في آرائه الاتحادية عيب لو لم يكن الألمان هم الذين كانوا يغذون تلك الاتجاهات وقد أشرنا إلى أن الاتحاديين "ومحمد عاكف عضو في جمعيتهم" كانوا منحازين إلى الألمان، لأن قوتهم الأساسية مستمدة منهم، ولهذا كان محمد عاكف ضمن المثقفين الأتراك الذين دُعوا لزيارة ألمانية وقتئذ توثيقًا للعلاقات بين البلدين، ولهذا السبب أيضًا اختاره الاتحاديون للتوجه إلى الجزيرة العربية من أجل إقناع شيوخها للانضمام إلى تركيا، في حين كان "لورنس" الإنجليزي المختص بالشؤون العربية، قد نجح في اجتذابهم إلى بني قومه، وكان الهدف الأول للإنجليز في ذلك الوقت، تقسيم ممتلكات "الرجل المريض" بينهم وبين زملائهم الأوروبيين.

مع هذا الاختلاف الجذري بين توفيق فكرت، ومحمد عاكف، فإنّ بعض الدارسين رأى أنَّ التماثل التام بين شخصيتي هذين الشاعرين كان هو السبب الحقيقي في الخصام الذي وقع بينهما، لأن التماثل التام قد يؤدي إلى النفور وليس إلى الوئام، في كثير من الأحيان، لقد تميز كلٌ من الشاعرين بالانفعالية العالية، وبالإخلاص الشديد للمبادئ التي

يعتنقها، وبرفض أي نوع من التساوم على تلك المبادئ، ومن أوجه التشابه بينهما أنَّ كلاً منهما كان ساخطًا على الوضع القائم لكن أسباب ذلك السخط لم تكن متقاربة، كما أنّ الغايات التي يسعى كلٌ منهما إلى تحقيقها تباينتْ تمامًا، توفيق فكرت كان مؤمنًا بالحضارة الغربية الحديثة، وبقيمها الإنسانية، التي كافحتْ شعوبُها طويلاً من أجل تطبيقها، كان متمسكًا بالمدنية "لبّها وليس قشورها" واثقًا بانتصار العلم على الخرافة والجهل، تواقًا لنقل جميع ثمار الحضارة إلى وطنه، بخاصةْ، إلى الشرق عامة، أما محمد عاكف فكان على الضدّ من ذلك تمامًا فهو خائف من المدنية الغربية، مرتاب بثمار العلم، حاقد على الروح التجريبية التي تمثل الحجر الأساسي في بناء تلك الحضارة، من ثم كان محمد عاكف شديد الحرص على رسوخ كيان الدولة العثمانية بأي ثمن كان، مع أنها كانت تمثل قلعة الرجعية في العالم يومئذٍ، لقد آمن بوجهة نظر ذات طرف واحد، في الواقع أن مأساة محمد عاكف تلخصتْ في أنه لم يميز بين الشعارات وبين تطبيقاتها، وكان عليه أولاً أن يسأل نفسه؛ ما سرُ تمسك الألمان به وبأمثاله من أعداء المدنية الحديثة، مع أن ألمانيا نفسها هي إحدى ركائز المدنية الغربية العصرية؟

نشر توفيق فكرت قصيدته الثورية، "التاريخ القديم" سنة 1905، ولما أغلق الاتحاديون المجلس سنة 1909 هاجم فكرت بقصيدته "عودة إلى 95" أي إلى عام 1295هـ الذي أغلق فيه العثمانيون مجلس المبعوثان، وقد أثارت هاتان القصيدتان جدالاً حادًا بين أنصار القديم والجديد، ومع ذلك فإن محمد عاكف سكت ولم يحرك ساكنا وظلَّ صامتًا حتى سنة 1912 حين هبَّ يحرض الناس، في جوامع

"بايزيد" و"فاتح" والسليمانية" ويؤلبهم على توفيق فكرت، باسم المقدسات والتقاليد والأعراف، ويحق للإنسان أن يتساءل عن سرّ هذا الانتظار والسكوت مدة سبعة أعوام، فلا يجد إلا جوابًا مقنعًا واحدًا وهو تدخل القوى الخارجية ذات المصالح الخاصة، فقد كانت الأحداث تتصاعد بسرعة، والحرب العالمية الأولى على الأبواب، والدول الغربية تستعد بشوق شديد لتقسيم أملاك الرجل المريض والساحة التركية جاهزة للفتن والاضطرابات، فلا عجب أن يتقدم محمد عاكف ليؤدي دوره في "قهر أعداء الاتحاد الإسلامي" متناسيًا حاجة وطنه إلى اتحاد أبنائه ليكونوا يدًا واحدة ضدّ العدو الخارجي المشترك، وقد أدت سذاجته السياسية إلى انجراره للمشاركة في اللعبة الخطرة الشائكة التي تدير خيوطُها جميعًا الدول الاستعمارية آنذاك، والتي لم يكن يهمها إلا تحقيق هدف واحد هو ابتلاع أراضي المسلمين التي كانت تحت حكم العثمانيين في لقمة سائغة واحدة، وذلك لا يتم إلا بشرط إسقاط الدولة العثمانية ذاتها في حين ظن الشاعر المحتمي أنه هو، أقوى المدافعين عنها! وتلك هي التراجيديا التي يمثلها أمثال محمد عاكف من بسطاء الشرقيين دائمًا وأبدًا.

على أنّ محمد عاكف كان مختلفًا عن جميع زملائه المحافظين في مسألة واحدة، هي أنه كان معصوب العينين بسب حماسه الشديد في إيمانه بمعتقداته من صميم قلبه، في حين كان بقية السفليين عالمون عارفون بما يفعلون، فلا عجب أن يقفوا مترددين منتظرين ما تسفر عنه المعركة لينضموا إلى المنتصر والأقوى.

في أربعينيات القرن العشرين شبَّت نار الفتنة من جديد، حين نشرت بعض الصحف التركية ذكريات الخصومة بين فكرت وعاكف، وإذا بتطور يطرأ على الأحداث، فقد تعالت أصوات غريبة تطالب بإحراق مؤلفات توفيق فكرت، باسم الدين، ولو شئنا تقصي أسباب اشتعال فتيل النار في ذلك الوقت لما صعب العثور على الجواب، ففي تلك الآونة كان نجم النازية والفاشية قد علا وارتفع في ألمانية وإيطاليا، وتحرك أنصارهما في كل مكان يرفعون رايتهما، مؤلبين الشعوب بعضها ضد بعض من أجل إثارة الأحقاد والنعرات، مشيعين الرعب والفزع في القلوب إزاء أشباح غامضة مجهولة قادمة بلا ريب، وكان للفاشية يومئذ أنصار أقوياء في تركيا وكادوا ينجحون في مساعيهم لولا أن الأمور هناك اتخذت مسارات أخرى ليس هذا موضع التفصيل فيها.

خاتمة حياة

مضتْ الأعوام الأخيرة من حياة فكرت في معاناة أليمة من ضروب الأوجاع والأوصاب الجسدية والروحية، كان هذا الإنسان المؤمن بالحضارة، المتعطش لنور العلم، شديد الخوف من الأطباء، كارهًا للعلاج مع أن إمارات السلّ ظهرت عليه في عهد الشباب الأول ثم أضيف إليه داء السكري، ومن المؤكد أنّ أمراضه وعلله تضاعفت بسبب المحن والكوارث التي تعرض لها وطنه في تلك الفترة كالمجاعة والحروب والوباء، فضلاً عن تفشي الجهالة والتعصب والفساد في كل أمور المجتمع، مما يؤدي بالإنسان الحساس إلى اليأس التام من إمكانية تحسن الأحوال، في بادئ أمره حاول فكرت

اللجوء إلى الطبيعة التماسًا للعلاج الشافي فأقام فترة في جزيرة "هيبة لي" الجميلة في ولاية استانبول، لكن صحته لم تتحسن، يوضح الكاتب "على أكرم" حالة صديقه فكرت في تلك الآونة بما يلي:

"حين بلغني نبأ مرضه توجهتْ إلى "هيبة لي" حيث يقيم فرأيته نحيلاً شاحب اللون، مع إنني كنت قد شاهدته قبل ذلك بوقت قصير وكان في صحة حسنة، لكنه اليوم كان يمضي والإعياء بادٍ عليه، فقلت له:

يا عزيزي فكرت ما بك؟ وما هذا النحول؟

ليس هناك شيء، كل ما في الأمر إنني أصيبت ببرد، ورقدت على السرير بضعة أيام، عندي الآن ألم حاد في اللثة ربما تسبب عن البرد.

ولماذا تربط يدك؟

ظهرت فيها بثرة متقيحة.

وماذا صنعت لها؟

لا شيء، ضجرت من الدواء ويدي لا تشفى؟

يا أخي ألا تعرض نفسك على طبيب؟

دعنا من الأطباء، إنهم لا يعرفون إلا قتل الناس.

لا يا فكرت العناد لا جدوى منه، وعلتك ستزداد سوءا بهذه الطريقة.

تريد أن تقول بأنني سائر إلى القبر؟ فليكن، سأجد في ذلك الخلاص، ألا ترى أنّ العيش في هذا البلد يعني موتاً في كل لحظة؟

وسحبني عند هذا من يدي، وسار بي إلى ضاحية "بيبيك" على البسفور، وعند جلوسنا مضى يعدد الكوارث التي يعاني منها الوطن" الإدارة الفاسدة، اللصوصية، الرشوة، الوباء، المجاعة، سلطة الموظفين، الخراب الشامل والدمار في كل موضع، كان يتحدث وكأنهَّ فمه يلفظ جمرات النار، لم يكفَ عن الكلام، بل استمر يقول ويقول مع إني حاولتُ توجيه الحديث إلى صحته لكن بلا جدوى، حين نهضتُ لأفارقه قال مودعًا:

العذاب من إقامتي في هذه الأرض بلغ مداه

ألا راحة من هذا الشقاء؟

الجسد ناحل، اللسان أخرس، الخيال واهن

كل ما في العالم يؤدي بنا إلى التعاسة...

في 15 آب 1915 فارق فكرت هذا العالم القاسي ولم يتجاوز الثامنة والأربعين من العمر، ودفنوه في مقبرة السلطان أيوب "أبو أيوب الأنصاري المدفون في استانبول"، ولم يمش في جنازته إلا عدد ضئيل من الناس، لكن الشوارع اكتظت بالمشيعين حين نقلت رفاته سنة 1961 إلى داره في "آشيان" حتى بلغ عددهم الآلاف المؤلفة.

*** ***

في حركة التوجه نحو الحضارة الغربية التي حققتها الطبقة الوسطى في تركيا بقيادة المثقفين، عُدَّ توفيق فكرت زعيمًا لحركة الأدب الجديد، والممثل الأول لتيار "ثروة الفنون" الذي كان بمثابة الخطوة الحقيقية الأولى لهذه الحركة التجديدية.

نجح توفيق فكرت في استخدام "العروض" أفضل استخدام في شعره، دون أن يفسد إيقاعات الحرف التركي وأصواته المباينة لنظيراتها في العربية، وهي معادلة فشل في تحقيقها الشعراء الأتراك القدامى، كذلك وفق فكرت إلى نقل أشدَّ المعاني دقةً بأبسط الألفاظ المستعملة في لغة الكلام العادي، وبهذا استطاع أن يخلق لنفسه لغةً شعرية سليمة كسرت طوق "التقليد" الذي غرق فيه الشعراء الديوانيون من قبلُ، كذلك استطاع فكرت إدخال كثير من الأغراض والأساليب الشعرية التي لم يعرفها الشعر التركي قبله، ومع كل هذا فإنّ لغته الشعرية بقيت نقيةً رصينةً مؤثرة، نعم حاول شناسي(9) قبل زمن فكرت تجديد الأدب التركي، متأثرًا بالأساليب الغربية أيضًا، لكن التجديد الأكمل لم يقع إلا على يد توفيق فكرت الذي تميّز عن بقية أدباء النهضة التركية بنزعته الإنسانية وعشقه للجديد ونفوره من الجمود، والتعصب الأعمى، وبلادة الجهل، واستطاع

(9) شناسي 1826-1871: هو مؤسس الصحيفتين الشهيرتين "ترجمان أحوال" و"تصوير أفكار" في استانبول، يعد المجدد الأول للأدب التركي عمومًا، فهو أول من ترجم الشعر الأوروبي إلى التركية، وأول من كتب المقالة، وأول من وجه كتابته إلى الكتل الشعبية وليس إلى الخواص، وأول من أدخل علامات التنقيط في الكتابة التركية، وأول من استعمل ألفاظ "الشعب، الوطن، القومية" بمفهومها الحديث، وكان شناسي مؤمنًا بمذهب "الفن من أجل الشعب".

تحويل حماسه العفوي إلى تطلعات إنسانية نبيلة، ونجح في أن يجعل من شعره صدىً حيًا لروح عصرنا الحديث.

آمن فكرت بمبدأ الحرية حرية المجتمع، وحرية الفرد، ودعا إلى تحرير الإنسان الشرقي من قيود التقاليد السقيمة البالية التي تطحن الأفراد جيلاً بعد جيل، دون أن يكون لها أية فائدة، إلا للقوى المستغلة الطفيلية، كان مؤمنًا بحقّ كل فرد، مهما كانت منزلته الاجتماعية، أو جنسه أو قوميته، في اعتناق الآراء والأفكار التي يراها صائبة، ومناسبة لنفسه ولمجتمعه، وكافح كفاحًا صعبًا من أجل حفظ كرامة الإنسان في المجتمع الشرقي المحافظ الذي عاش فيه تحت سطوة الدولة العثمانية المتخلفة، هذه المفاهيم بدت غريبة تمامًا على معاصريه إذ لم يكن لهم أي عهد بها، وبهذا يُعد فكرت المثقف التركي الأول الذي نادى بأعلى صوته مطالبًا بمجتمع حر قادر على تربية أشخاص أحرار.

يقول الكاتب زكي باش تيمارBastimar: لا أظن أيًا من شعراء النهضة التركية قد نجح في أن يترك من الأثر العميق في مشاعر المثقفين كالذي تركه توفيق فكرت، وأحسن دليل على حيوية فكره أنّ القوى الشريرة التي كافح ضدها مازالت حتى اليوم تبدل المساعي المحمومة ذاتها من أجل إيقاف عجلة الحياة، وخنق أنفاس الحرية في كل مكان".

تلقى الحادثة التالية التي يحكيها الأديب صالح كرامت نيغار ضوءًا ساطعًا على وطنية توفيق فكرت:

"قبل إعلان دستور 1908 بأربعة أشهر طلبت من توفيق فكرت الانضمام إلى جماعة الاتحاد والترقي، فأجابني قائلاً:

"أنا أيضًا مثلكم أريد إسقاط الحكم الاستبدادي، لكن علينا أولاً أن نكون شديدي الحذر، إذ أخشى أن تنتقل السلطة، بعد خلع عبد الحميد إلى أيدي حفنة أشخاص لا يهتمون بغير مطامعهم الخاصة الأنانية متناسين تمامًا مصالح الشعب الذي تظاهروا بالغيرة على مصيره".

يقول صالح كرامت مواصلاً حديثه: "وفي ذلك الوقت أراد الاتحاديون من "فكرت" كتابه نشيد ثوري للشعب، ولما أوصلت هذا الطلب إلى فكرت، جاءني بعد أسبوعين وبيده الأنشودة التالية:

إذا كان للظلم مدفع ودرع وحصن

فإن للحق ذراعًا لا تنثني ووجهًا لا يتلفت

حتى لو أغمضنا أعيننا خشية وهج الشمس

حتى لو غرقنا في دياجير الظلمات

فلا بد لليل من صبح!

**

طريقي الذي لزمته هو طريق الحرية

فالحياة والحرية لك يا شعبي

لعل أفضل خاتمة لحديثنا عن توفيق فكرت، التحليل التالي الذي تقدمه الكاتبة التركية "صبيحة سرتيل" لشخصية فكرت وأدبه:

"لو تفحصنا آثار فكرت جميعها، لتوصلنا إلى أنه كان شاعرًا إنسانيًا وثوريًا في الوقت ذاته، ذلك يعنى عنده أنّ كل إنسان بحاجة إلى الحرية التي هي حق له منذ مجيئه إلى هذه الدنيا، شأنه شأن أي كائن حي، وأن العدالة يجب أن تسود في المجتمع كله، فلا يسمح باستغلال القوي للضعيف، بأي اسم جاء هذا الاستغلال، على أن فكرت عجز عن معرفة الطريق الموصل إلى هذه الأهداف السامية، كل ما تصوره أن الحكم لو وضع في أيدي أشراف الناس "أشرفهم أخلاقًا" لنتج عن ذلك أوتوماتيكيا تحقيق العدالة والحرية والإخاء بين البشر، واعتقد أن خلاص الناس حاصل بمجرد انتشار الثقافة بين مختلف الطبقات، لأنّ ذكاء الإنسان سيوصله حتمًا إلى تلك النتيجة الباهرة، وخيل إليه أن التراب سيتحول إلى ذهب بمجرد أن يمتلك الفلاح سلاح الثقافة، لقد آمن فكرت بنوع من الاشتراكية الطوباوية التي اطلع عليها في مؤلفات سان سيمون وفورييه وغيرهما في حين أنه كان بحاجة إلى اكتشاف تعقيدات الحياة السياسية، والمشاكل الاقتصادية، والتراث الاجتماعي طويل الأمد، وغير ذلك من الأمور التي تحدد مسيرة المجتمعات، وتقف في طريق تحقيق الأماني والأحلام.

لقد تخيل أن فساد الإدارة هو المسؤول الأول عن الخراب الشامل، لذلك لم يقدم في أثاره إلا الحلول الفوقية السريعة التي ما كانت بقادرة على تحقيق المقاصد المرجوة حتى لو تغيرت رئاسة السلطة، وبالفعل

فقد خُلع السلطان عبد الحميد، وتسلمت جماعة الاتحاد والترقي السلطة التنفيذية، فكان عهدها أسوأ من عهد عبد الحميد وأقسى ولهذا أشتد أثر الصدمة في نفس توفيق فكرت، ولم يعرف كيف يفكر بعدها، وفي غمرة يأسه التفت إلى الشباب مؤملاً عندهم الخلاص المنشود، وهو بذلك أيضًا لا يعرف أنه ماضٍ في أوهام الخيال مستغرق في أحلام المثالية، فلا عجب أن ينتهي إلى اليأس التامّ، ولا يبقى له إلا الانزواء داخل داره "أشيان" مكتفيًا بنفث آهاته وحسراته المعبرة عن عذابه النفسي في عهد تلاشي قواه الجسدية وانهيار مقاومته الروحية".

في الواقع كان توفيق فكرت شاعرًا، وليس من مهمات الشاعر أن يكون أو يقوم بمهمة المصلح الاجتماعي، وإنما وظيفته أن يبدع آثاره الفنية بآلته اللغوية، وليس ذلك بالأمر السهل كما قد يبدو للعين الساذجة، فآثار الشاعر هي دم قلبه متقطرًا في حروف الكلمة.

وذلك أيضًا هو سلاحه وليس من سلاح يعادل سلاحه القوي هذا؛ لأنّ حاملي السلاح الشجعان إذا كانوا بالآلاف في كل زمان ومكان، فإنّ مبدعي الفن لن يتجاوزوا عدد الأصابع في الفترة ذاتها، وإذا كان في قدرة الأنبياء أن يدفعوا الناس للقيام بتغيير الأوضاع الراكدة فإنْ الشعراء بهذا المعنى أنبياء أيضًا، لأنهم يلهمون النفوس أسمى الأهداف وأنبل المعاني ثم تستقر آثارهم في قلوب البشر وتصبح جزءًا منها، وتلك هي مهمتهم.

*** ***

هاليكارناس بالكجي سي

"1886-1973"

"حين أفكر بالكاتب التركي الذي يستحق جائزة نوبل فإنَّ أول اسم يخطل ببالي هو هاليكارناس بالكجي سي – يشار كمال.

هاليكارناس بالكجي سي هو اللقب الذي أطلقه على نفسه الكاتب التركي الشهير جواد شاكر باشا فشاع اللقب حتى أُهمل الاسم الأصلي، أنه الكاتب الروائي، الباحث الأكاديمي، المؤرخ المدقق، الرسام المبدع، البحار المغامر، عالم النبات، عاشق الطبيعة، شاعر البحر وزرقة السماء، رائد نظرية مثيرة في تاريخ منطقة بحر إيجه والأناضول، الرجل الذي استطاع بمفرده وبجهوده الخاصة أن يجعل مدينة بود روم، وسواحل بحر إيجه الشرقية أهم مراكز السياحة في تركيا، الشخصية الغربية المناقضة لكل ما هو مألوف في حياة الناس اليومية، جواد ابن الباشا محمد شاكر، وابن أخي الصدر الأعظم أحمد جواد باشا.

ولأن بالكجي سي كان يمقت الجمود والتقليد والتقولب في إطارات ضيقة تحددها الأعراف السائدة دون أي اعتبار لفردية الإنسان وشخصيته، فليس من الإنصاف أن تورد سيرتُه بالأسلوب المدرسي المعهود، ومع ذلك فإنَّ مسيرة بالكجي في الحياة توجب العودة، ولو بشكل سريع إلى جذوره العائلية كي يتيسر للقارئ أن يفهم غوامض

هذه الشخصية الفذة التي لم تستطع يومًا أن تتآلف مع أي من الأمور المعتادة أو المتعارف عليها.

جواد شاكر الملقب هاليكارناس بالكجي سي من أحفاد كولونيل البحر في الدولة العثمانية مصطفى عاصم بيك، كان لمصطفى عاصم ولدان وبنت واحدة، الابن الأكبر أحمد جواد باشا عُرف بالشجاعة وسداد الرأي مما أكسبه الحظوة لدي السلطان، وظلَّ يترقى في المناصب العالية حتى وصل إلى مرتبة الصدر الأعظم "رئيس الوزراء" في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، أما الابن الثاني محمد شاكر باشا، المولود عام 1855 - وهو الذي سيكون والد بالكجي- فقد عُهد به وبأخويه وهم مازالوا صغارًا إلى أحد أقاربهم ليقوم برعايتهم والإشراف على تعليمهم بعد وفاة والدهم مصطفى عاصم بيك .

في عام 1880 تم تعيين محمد شاكر ضابطًا في الجيش العثماني برتبة يوزباشي، ولم يكن أقل همةً من أخيه، فتواصل تقدمُه في عمله إلى أن أصبح ملحقًا عسكريًا في إحدى السفارات، ورُفع إلى رتبة "فريق" في عام 1908 وهو مايزال قائمًا بمهامه الدبلوماسية ثم أنه طلب إحالته على التقاعد وتم له ما أراد، وبناء على رغبته عُيّن مدرسًا فخريًا للتاريخ في ثانوية "غالاطة سراي".

كان محمد شاكر باشا قد اشترى مزرعةً في بعض نواحي استانبول وصار يتردد عليها بين الحين والآخر، وفي يوم من أيام رمضان عام 1919 بينما كان محمد شاكر في زيارة للمزرعة أصيب بطلقة مسدس قتلته في الحال، قيل أن الرصاصة انطلقت من سلاح كان أبنه جواد

يحمله في يده، من هذا اليوم أصبح ذلك هو السرّ الخطير الذي ظل جواد " هاليكارناس بالكجي سي" يخفيه عن الناس حتى وفاته.

أما أحمد جواد باشا الابن الأول لمصطفى عاصم بيك فقد ولد في الشام عام 1851 حين كان والده يقوم بمهام وظيفته فيها، أكمل أحمد جواد تعليمه الثانوي في المدرسة العسكرية الحربية، ثم عُين ضابطًا في الجيش العثماني حيث تواصل تقدمُه في المسلك إلى أن منح لقب "باشا" عام 1884 بعد فوزه بمكافآت ونياشين عسكرية كثيرة، وفي عام 1892 ارتقى إلى منصب الصدر الأعظم للدولة العثمانية، لكنه لم يستطع البقاء في هذه الوظيفة أكثر من ثلاث سنين نظرًا لما كان يمتلكه من أوصاف تستدعي استثارة السلطان عبد الحميد الثاني بما عُرف عنه من أوهام ووساوس، إذ كان أحمد جواد باشا عسكريًا شجاعًا وموظفًا نزيهًا وإنسانًا مستقيمًا فضلاً عن علو مقامه في دنيا الثقافة والعرفان، فلا عجب أن يصدر الأمر بإعفائه من مناصبه والحكم عليه بالإقامة الجبرية في منزله، ومع أنه أعيد إلى الجيش بعد ذلك برتبة مارشال، إلا أن تدهور صحته أدى إلى إحالته على التقاعد ولم يعش طويلاً فقد قضى نحبه عام 1900، وكان قد أهدى مكتبته التي تضم آلاف الكتب إلى المكتبة الوطنية العثمانية.

من أهم مؤلفات أحمد جواد باشا كتابه "التاريخ العثماني العسكري" كذلك اشتغل فترةً مديرًا لمجلة اسمها التذكار adigar وصدر منها 24 عددًا.

أما مؤلفات أخي محمد شاكر باشا "والد بالكجي" فمنها ما يلي:

التاريخ العثماني "خمسة مجلدات".

التاريخ الإسلامي العثماني "كان ضمن مناهج المدارس العثمانية".

صلاح الدين الأيوبي.

كذلك له كتب مترجمة عن الآداب الغربية.

فيما عدا تأثيرات والده وعمه على شخصيته، فإنّ بالكجي وقع تحت تأثيرات أوروبية عن طريق بعض نساء أسرته ممن انشغلن بالفنون الحديثة، وفي مقدمة هؤلاء الأميرة فخر النساء زيد، وهي رسامة عالمية، والفنانتان نجاة وعالية بيرغر Berger والممثلة شيرين دفيريم.

*** ***

مرحلة الدراسة والحياة العلمية

اسمه الأصلي جواد شاكر قبا أغاجلي Kaba agacle وُلد في جزيرة كريت في 17 نيسان/أبريل 1886.

أبوه محمد شاكر باشا، أمه : ساري عصمت هانم، ولد لهما ستة أطفال، توفي أحدهم، وعاش منهم خمسة أحدهم "جواد"، كانت أمه يونانية الأصل.

السنوات الثلاث الأول من حياة جواد انقضت في أثينا، بعدها انتقلت الأسرة إلى استانبول حيث أكمل دراسته الابتدائية، في هذه المرحلة أبدى تفوقًا في اللغة الإنجليزية التي كان يدرسها على يد مدرس

خاص مما يسر له دخول ثانوية روبرت كوليج دون المشاركة في امتحان القبول فيها، تخرج في ثانوية روبرت كوليج بتفوق بعد أن فتحتْ له آفاقًا ثقافية واسعة وجديدة، وكان لمكتبتها الفضل الأكبر في ذلك إذ كان دائم التردد عليها، لا يشبع من استعارة كتبها والتهام صفحاتها التهامًا حتى وصل الأمر بمدير المكتبة إلى أن يمنعه من الاستعارة مختلقًا مختلف الأعذار! لكنّ بالكجي لم يكن ممن تعوقه العقبات عن بلوغ أهدافه فبدأ يستعين بزملائه من التلاميذ يستعيروا له الكتب بأسمائهم.

على أن هذه لم تكن العقبة الأولى في طريق توسيع ثقافته أيام روبرت كوليج، لقد كان على الطلبة في القسم الداخلي، وهو منهم، أن يخلدوا إلى النوم في ساعة مبكرة من الليل كي يستيقظوا صباحًا مبكرين، وكانت الأنوار تُطفأ في تلك الساعة، فكيف يتحمل جواد أن يضيع ساعات السكون في النوم؟ أحضر مصباحًا يدويًا وحالما تُطفأ الأنوار كان يشعل المصباح تحت الغطاء السميك ويشرع في القراءة والكتابة والترجمة ساعاتْ طوالاً من الليل.

انقضت أيام روبرت كوليج وتخرج فيها عام 1904، كانت أمنيته الكبرى أن يصبح بحارًا، وأراد دخول الكلية العسكرية البحرية، لكنَّ والده شاكر باشا عارض الفكرة، وأرسل ولده إلى إنجلترا ليدرس في جامعة أكسفورد موضوع "تاريخ العصور الحديثة" وبعد أربع سنوات أكمل جواد دراسته، وعاد إلى استانبول عام 1908.

كان لجامعة أكسفورد أثر عظيم في التكوين الثقافي والنفس لجواد شاكر إذ ساهمتْ في تعريفه على مصادر الثقافة الأوروبية، واطلاعه على أهم التيارات الفكرية الغربية في تلك الفترة.

لدى عودته إلى استانبول شرع في العمل في الصحافة كاتبًا، ومراسلاً ورسام كاريكاتور ومصمماً لأغلفة الكتب والمجلات، ومنذ عام 1910 بدأ بنشر القصص والروايات والمذكرات والتحقيقات الصحفية إضافة إلى أعماله الفنية في الرسوم والتصميمات وما إلى ذلك.

في نهاية الحرب العالمية الأولى اجتاحت الجيوش الإنجليزية والفرنسية واليونانية المتحالفة أراضي تركيا واحتلتها فأصيب جواد شاكر بصدمة نفسية أليمة لما تعرض له وطنْه من مذلة وهوان على أيدي جنود الاحتلال الغربيين، شأنه شأن بقية المثقفين الأتراك، وكان بوده أن ينضم إلى جيش التحرير الذي يقوده مصطفى كمال، لكنَّ ظهور علامات مرض السرطان على رئته، أقعده عن تحقيق مرامه، وكان المحتلون يتعقبون أمثاله من الصحفيين والمثقفين، فهداه التفكير إلى التنكر بزي الدراويش والاختباء في تكية الصوفي الشيخ أحمد الرفاعي، حيث أمضى حقبة من الزمن بين الشيوخ والدراويش.

وفي أثناء تحقيق الانتصارات الأولى لجيش التحرير بزعامة مصطفى كمال باشا، انضم جواد شاكر إلى هيئة تحرير مجلتين أسبوعيتين كانتا تصدران وقتئذ باسم "الشهر المصور" و"الأسبوع المصور" وراح يعمل فيهما رسامًا وكاتب مقالات، وقد تميز عن غيره بالسرعة المذهلة في الكتابة وفي تصميم الرسوم بمختلف

أغراضها، أحيانًا كان يترجم في اليوم الواحد مائة صفحة، يفعل ذلك مكرهًا تحت ضغط الحاجة المعاشية، وينشر إنتاجه تحت أسماء مستعارة.

في شهر رمضان عام 1919 استدعيّ جواد شاكر إلى المحكمة بتهمة قتل والده، لكنّ التهمة لم تثبت عليه، فصدر الحكم بالبراءة، بعد انتهاء الجلسة التفت الحاكم إلى جواد شاكر وقال له "إياك أن تَمْثُل أمامي مرةً أخرى"، لكنّ الأقدار كان لها رأي آخر، فقد وقف جواد شاكر مرةً ثانية أمام هذا الحاكم بعد سنوات قلائل، ففي شهر نيسان عام 1925 نشر جواد شاكر في إحدى الصحف، وتحت اسم مستعار مقالاً أقام القيامة في أوساط الحكومة الجمهورية الفتية، كان العنوان "السجناء المحكومون بالإعدام، كيف يسيرون سويةً نحو المشنقة" فورًا أحيل جواد شاكر ومدير الصحيفة، زكريا سرتيل إلى محكمة الاستقلال، ووُجهتْ إليهما تهمة تحريض الجنود ضد الخدمة العسكرية، ثم صدر الحكم بنفي سرتيل إلى بلدة سينوب، ونفي جواد شاكر إلى بلده بودروم لمدة ثلاث سنين.

إن بودروم هي تحريف كلمة "بيترونيوم" نسبةً إلى بيتر "بطرس" حواري المسيح، الصليبيون هم الذين أطلقوا الاسم على هذا الموضع بعد أن بنوا القلعة فيه. على أن هذا الموضع كان له اسم آخر فيما سبق ذلك في العصور وهو "هاليكارناسوس" هذا الاسم أثار إعجاب جواد شاكر ومنذ وصوله إلى بودروم، صار يوقع على جميع كتاباته اسم "هاليكارناس بالكجي سي" أما كلمة "بالكجي" فهي تركية، وتعني بائع السمك، لأن جواد شاكر عمل مع بائعي السمك فترةً بعد

عودته من إنجلترا، والتصق اللقب بجواد شاكر حتى نُسي اسمه الأصلي.

لم تم عملية نقل جواد شاكر من أنقرة إلى منفاه فورًا، بل كان عليه الانتقال مخفورًا من مركز بوليس إلى آخر عبر قرى وقصبات متباعدة، ولم يبلغوا غايتهم إلا بعد ستة أشهر على ظهور البغال إذ لم يكن طريق بودروم ممهدًا، وأثناء تلك الرحلة الطويلة تعرض بالكجي لأغرب الحوادث مما حفر في نفسه أعمق الآثار.

ذهل جواد شاكر من المنظر الخلاب الذي وقع عليه بصره، عند دخوله القلعة: البحر الأزرق المتألق الممتد إلى الأبدية، الهدوء الكلي المخيم على المكان، الجبال المتوحدة تطل متأملة وكأنما تمتلك الجمال وتستأثر به دون منافس أو رقيب، في هذا الوقت كان جواد شاكر رجلاً قد حنكته التجارب، كان من أسياد استانبول، ومن مشهوري كتاب الصحف وفجأة يجد نفسه ملقًى في هذا الموضع النائي المعزول، ويخيل إليه أنهم سيغلقون عليه أبواب القلعة ويعودون أدراجهم، لكن ما كان أشد دهشة حين وجد القلعة خرابةً بلا أبواب ولا شبابيك بل بدون غُرف أصلاً.

في تلك الليلة الغريبة عثر على دار قريبة ذات أربع غرف أستأجرها بخمسة وعشرين قرشًا لمدة ثلاثة أشهر، وكانت الدار تطل على البحر مباشرةً، في ساعة متأخرة من الليل استيقظ مذعورًا على صوت انفجار عنيف، كلن ظهر بعد ذلك أن عددًا من المهربين أرادوا بالانفجار تضليل شرطة الكمارك كي تسهل عليهم إحدى عمليات التهريب، بعد دقائق يتحرك في الظلام الدامس نور صغير

خاطف فينشرح قلب جواد شاكر حين يكتشف أنها الحشرة المضيئة جاءت تؤنس وحدته.

وسرعان ما يندمج بالكجي في الحياة اليومية ببودروم، ويبدأ فورًا بالعمل للاستفادة من وجوده في هذا المكان الغريب، ويشرع بدراسة أراضي الموضع وتاريخه ونباتاته وحيواناته، ويجمع أصناف البذور، ويقوم بعمليات زرع واستصلاح التربة وحدهُ في أغلب الأحيان، وبمساعدة أهل البلدة أحيانًا أخرى.

كانت مدة محكومية الكجي ثلاث سنوات، وإذ قضى نصفها صدر قرار محكمة الاستقلال بأن يقضي النصف الباقي منها في استانبول مما أثار استياءه، فلقد ارتبط بمدينة بودروم "هاليكارناسوس" ارتباطًا روحيا ولم يعد سهلاً عليه مفارقتها، وحين أقام من جديد في استانبول ظلَّ متلهفًا للرجوع إلى جنته المفقودة، ولم يطب له المقام حتى حان وقت السفر.

ولم ينسَ قبل مغادرته استانبول أن يجمع أصناف الثمار والبذور والشتلات ليغرسها في بودروم البلدة المهجورة التي حولّها بجهوده وحدها إلى إحدى أفضل المدن السياحية في تركيا خلال عقدين من الزمان تقريبًا، كان يشتري كتبًا زراعية في مختلف اللغات التي يحسنها، الإنجليزية، الفرنسية، الإيطالية، مقتطعًا أثمانها من لقمة طعامه كي يحول أراضي بودروم إلى جنائن ساحرة تجتذب السياح من كل أنحاء العالم، على سبيل المثال كان هو الذي أنبت شجرة "الجريب فورت" لأول مرة في الأراضي التركية!!

بعد انتهاء محكوميته استقر بالكجي في بودروم، ولم يغادرها إلا بعد ربع قرن من الزمان، عند أول وصوله إليها منفيًّا، كان يسلي نفسه بالتنزه وحيدًا بين أرجائها، وماذا كان في طاقته أن يصنع مع أهل هذه البلدة الصغيرة المعزولة عن الحواضر والمدنية؟ كان في البلدة مقهى حقير يجتمع فيه عدد من الكسالى يمضون أوقاتهم بلعب الطاولة والنرد، ومثل هذه الملاهي لا ترد على بال بالكجي وإضرابه من المبدعين الذين يرون الوقت أغلى من كل مجوهرات العالم، كان يعرف أين يجد صديقه الحبيبة، الطبيعة أمنا الحنون، كان يمضي نهاره ماشيًا ليتفحص التربة كأي عالم طبيعة متخصص واهتم بغرس الأشجار الضخمة سريعة النمو كاليوكالبتوس والنخيل، وكان يرعاها واحدةً واحدة، يسقيها ويشذب أوراقها ويحميها من تقلبات الجو وهبوب الرياح، ويكتب عنها في دفاتره مسجلاً تواريخ غرسها ومواعيد إنباتها...إلخ.

من ناحية أخرى وجد بالكجي في هذه البلدة بغيته التي طالما التمسها، أي التعرف الحقيقي على البحر، صديقه القديم، فمضى يقوي علاقاته بصيادي السمك والإسفنج ورجال المراكب والقوارب ويعمل معهم فأحبه هؤلاء، وكان يحنو عليهم مثل أب شقيق، ويعالجهم من الأمراض بدلاً من الطبيب، ويقدم لهم ضروب المشورة في كل ما يحتاجون إليه، وبهذا اعتاد على حياة البحر مثلهم وقد استأجر زورقًا من أحد الصيادين، ثم صنع بنفسه زورقًا قويًا يسمونه "ياتاغان" وراح يستخدمه متى أراد.

يتجلى عشق بالكجي للطبيعة في جميع مؤلفاته يقول في إحداها: "أنا أحيا مع كل الكائنات التي تحيط بي... الطيور، البحر، الشجر، الحصى، الرمل، التراب والناس، أنا جزء من كل ذلك، ذلك ما أحسه"، كان يحب الحيوانات بمختلف أنواعها، ما هو مفيد للإنسان وحتى ما هو مضر له، أو خطر عليه.

في أحد كتبه يروي الحادثة التالية:

"كنا في طريق سفر، فجأة دّوَّى طلق ناري، فالتفتُّ إلى الوراء، على جانب الشارع رقد ثعبان ميت، كان مثلنا يطلب الدفء في نور الشمس، مسكين أي ذنب جناه حتى يُقتل بهذه الوحشية؟!"

كيف كان بالكجي يكسب عيشه؟

هنا يتجلّى أحد أطرف جوانب حيانه وأشدها غرابة وأشدها غرابة. الوظائف الحكومية المخصصة للخريجين لم تثر اهتمامه، لذلك هبط إلى الشارع، ومضى يشارك العامة أعمالهم العضلية المرهقة، فتراه مَرةً بائع فواكه، وأخرى صياد أسماك، وثالثة غطاسًا يبحث عن الإسفنج في عمق البحر، وأخيرًا اختار لنفسه المهنة التي سترافقه حتى نهاية حياته، مرشدًا للسياح الأجانب، وأثناء ذلك كان يواصل الكتابة والتأليف ونشر المقالات والبحوث في الصحف والمجلات ولقد كان لبودروم تأثير كبير في تكوين شخصيته.

فتغيرت مفاهيمه عن الحياة والناس، ولم تعد للمقاييس الاجتماعية المتعارف عليها أهمية كبيرة في نظر، فلا عجب أن تأخذ حياته مجارٍ أو مسارات غير مألوفة، ومصنفاته جميعًا تلقي الضوء على

خفايا شخصيته، لاسيما كتابه الشهير "المنفي الأزرق" ويعني هذا العنوان مدينته التي اكتشفها بودروم.

حياته الخاصة

من مجمل ما سبق لن يتوقع المرء أن تجري حياة بالكجي العاطفية المجرى العام المعروف، كان بالفطرة إنسانًا قلقًا، متحمسًا لأمور وأشياء لا تثير اهتمام غيره، كان ذا مزاج خاص، يكره الجمود ولا يعرف للاستقرار معنى، وانعكستْ صفاته هذه في علاقاته بالنساء.

ففي عام 1913، تزوج فتاة إيطالية، وولد لهما بنت، عاشتْ وتزوجتْ وأصبح لبالكجي منها حفيدة، تزوجتْ بمحام يعمل في الفاتيكان، هذا الزواج يَسَّر لبالكجي الإقامة في الأراضي الإيطالية وإتقان اللغتين: الإيطالية الحديثة، واللاتينية، وبذلك استطاع الاطلاع بصورة معمقة على آداب هاتين اللغتين، من ناحية ثانية مَكَّنته إقامته في إيطاليا إشباع عشقه لفني الرسم والنحت، وبذلك اكتسب معرفةً جيدةً بروائع الأثار الكلاسيكية المنتشرة في جميع أرجاء إيطاليا.

في مرحلة أخرى من حياته أقام بالكجي علاقةً عاطفيةً بشابة إسبانية، وعاشا معًا فترة، وأصبح لهما ولد عاش حتى شَبَّتْ نار الحرب الأهلية الإسبانية، فقتُل فيها، وهو ما يزال دون الثامنة عشرة من العمر.

وقبل نفيه إلى بودروم كان بالكجي متزوجًا بفتاة تركية اسمها حمدية هانم، وكان لهما بنت أسمها سيناء، وكان الزواج موفقًا، ولما صدر

القرار بنفيه إلى بودروم، رفضتْ زوجته هذه مرافقته إلى البلدة النائية، فاضطر إلى تطليقها، وبقيتْ ابنتهما معها.

أخيرًا تزوج بالكجي بخديجة هانم التي وَلدتْ له بنتين: عصمتْ وعالية، وولدًا أطلق عليه اسم سعاد (سعاد بالعربية اسم لمؤنث لكنه بالتركية يقع على المذكّر، مثله مثل صباح وسهام وغيرها)، ولما أتم هؤلاء دراستهم المتوسطة في بودروم، اضطرت الأسرة إلى النزوح عنها لعدم وجود مدرسة ثانوية فيها، واختار بالكجي مدينة أزمير لأنها أقرب حاضرة وكبيرة إلى بودروم، وتم الانتقال إليها عام 1947 بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وللمرة الثانية في حياته كان على بالكجي أن يبدأ من الصفر. فأزمير ليستْ بلدة مهجورة مثل بودروم، وإنما هي مدينة مزدحمة بالسكان مما يعفي زيادة النفقات، في بادئ الأمر اشتغل بستانيًا في "متنزه الثقافة" لكنَّ ضآلة رابته الشهري اضطرته إلى البحث عن عمل آخر، وومضتْ في رأسه فكرة عجيبة، لمّ لا يقوم بمهمة مرشد ودليل للسياح الأجانب الذين يفدون بأعداد كبيرة على مدار السنة إلى سواحل بحر إيجة للاطلاع على الآثار الإغريقية والبيزنطية في هذه المواضع؟ ألم يقض سنوات طوالاً من حياته منهمكا في المهنة الملائمة له، من يومها التحق بالكجي بالوظيفة، ولم يتركها حتى وفاته، وفي الوقت ذاته وأصل العمل كمترجم مستفيدًا من اللغات الكثيرة التي يحسنها.

على أن الوظيفة لم تكن تهتم بالكجي إلا بقدر ما تسدّ حاجاته المادية، وإنما الذي كان يشغل باله هو نشر ثمار دراسته الخاصة في هذا

الموضوع الهام، لقد توصل إلى نظرية رائدة فحواها أن الحضارة الإغريقية في جانبها الفلسفي العلمي "المادي وليس الميتافيزيقي"، إنما نشأت وترعرعت في أراضي غربي الأناضول - ما كان يسمى في التاريخ: أيونيا- على ضفاف بحر إيجه، ومن هذه الأرض انتقلت الحضارة إلى اليونان، في حين يؤكد علماء الغرب أنّ اليونان هي مهد الحضارة الغربية، والحضارة انتقلت في رأيهم من الأرض اليونانية إلى أيونيا "في الأناضول" مع هجرة اليونانيين إليها وإنشائهم المستعمرات المدنية فيها وبسبب هذا يصرّ علماء الغرب على إهمال حضارة أيونيا، ويشددون فقط على أهمية مدن اليونان وسكانها من الإغريق، أي أنهم ينسبون الحضارة الإغريقية إلى اليونان وحدها، في حين يؤكد بالكج أن أهم جانب في حضارة الإغريق، وهو الجانب العلمي المادي "المتمثل في فلسفة هيراقليطس ابن مدينة "أفيس" في أزمير" إنما نشأ وازدهر في الأناضول، "بلاد أيونيا القديمة" وليس في اليونان، وبهذا فإن حضارة أيونيا وعلمها وفلسفتها هي مصادر حضارة الغرب وأوروبا المعاصرة، من ثم فإن الأناضول هي التي ينبغي أن تعد منبع العلم الحديث كله، وكل هذه الآراء مضادة تمامًا لاستنتاجات المؤرخين الأوروبيين.

وتصبح هذه القضية الشغل الشاغل لبالكجي، فيكتب موضحًا نظريته: "لا.. ليس هناك معجزة إغريقية، العظمة هي عظمة أهالي الأناضول الغربية، أبناء أيونيا، هنا على ضفاف بحر إيجة وُلدتْ الفلسفة الطبيعية الأولى، ومن هذه الأرض هاجرتْ إلى اليونان، وليس كما يزعم المؤرخون الغربيون، الدليل على ذلك أنّ الإغريق، حالما تسلموا هذه الفلسفة العلمية انحدروا بها إلى الميتافيزيقا، وتلك كانت

مهمة سقراط وأفلاطون وحتى أرسطو، هل اكتفى الإغريق بهذا؟ كلا... بل سلموا علمهم إلى أفلوطين فانحدر به إلى حضيض التهويمات الصوفية والمفارقات اللغوية، وهكذا وُجهتْ أفظع ضربة للفكر العلمي اليافع، وتعطل التقدم الحضاري مدة ألفي سنة".

ولنعد إلى السيرة الشخصية..ف في أزمر بني بالكجي بيديه داره التي سيقيم بها مع أسرته، مثلما فعل في بودروم، وفي هذه الدار بقي حتى وفاته، ومن بعده احتفظت أسرته بالدار ولم تتخل عنها، أما عن عمله فإنّ مهنته السياحية لم تؤثر على نشاطه الأدبي ولا الفني فاستمر في الإنتاج والنشر وبيع الصور أو الرسوم الكاريكاتورية، وأصبح من مشاهير الكُتَّاب والمفكرين في تركيا، ومَثَّل بلاده في عدة مؤتمرات أدبية مقامة في الخارج، على أن اعتماده في كسب رزقه على إنتاج الأدبي والفني "إضافة" إلى منته السياحية" أوقعه في ضيق مالي دائم، ومع ذلك فكان لابدَّ له من الكتابة والرسم، كان الفن في دمه، وهو جزء لا يتجزأ من شخصيته ذاتها، وبسبب قلة موارده المالية اضطر إلى العيش في محلة يغلب عليها الطابع الشعبي، وكان بيته مكونًا من طابقين مثل جميع المساكن الصغيرة.

*** ***

شخصيته

أول ما يلفت النظر في شخصية بالكجي تنوع اتجاهاته وثراء نفسه، فهو عاشق الطبيعة المولع بمظاهر حسنها، وهو فنان حاد الأحاسيس، وتتجلى عواطفه في شخصيات أبطال رواياته، فهم يبرقون ويرعدون

وتفور دماؤهم كالنار، شأنهم شأن الطبيعة التي اندمج هو فيها، وعَلَّم الناس كيف يفهمونها ويحبونها، وهو مؤرخ متخصص خبير بكل ما يخص الأناضول، وهو أديب متميز الأسلوب لا يمكن التقليل من منزلته العظيمة في دنيا الأدب، وهو رجل شعبي عاش مع الطبقات الفقيرة واشتغل معهم في العمل العضلي الذي يستنكف منه الخريجون، مع أنه ابن جامعة أكسفورد!!

وهو رجل عملي يزرع الأرض ويغرس الشتلات ويطعّم الورود والثمار بمختلف الأصناف النباتية، يبني داره بيده ويصبغه ويصنع أثاثه، لأنه يجد في ذلك كله لذةً وسرورًا. يصوّر الروائي أورهان كمال شخصية بالكجي بالشكل التالي: "حين أقرأ مؤلفات بالكجي أشعر بأنه يختبل حماسًا وعنفًا وعاطفةً، إنه شاعر حتى في نثره، ثم أن قارئ بالكجي لابدَّ أن يتصوره من أصحابه المقربين وكأنّه يعرفه من آلاف السنين، إنه ابن الأرض.. الأرض بمعناها المجرد، منه تعلمتُ كيف أعشق الدنيا وأحب الحياة".

ومن رأي الكاتب عصمت زكي أيوب أوغلو "صديقي بالكجي لم يكتب بالحبر وإنما بعصارة قلبه، الكتابة عنده تعني الحياة، ومثل الحياة فالكتابة عنده بلا حدود، كان بالكجي يمقت كل الحدود والقيود، حدود الزمان وحدود المكان بما فيها الحدود المقامة بين البلدان، لأنَّ الطبيعة لا تضع حدودًا بين الأشياء وهو ابن الطبيعة، وحين يغرق الإنسان في صفحات مؤلفاته يشعر وكأنّ بروميثيوس ماثل أمامه بكل كبريائه وصلابته.

ومثل بروميثيوس كان حبُه للناس يدفعه لبذل كلّ شيء من أجل إيصال المعرفة إليهم، ومثل بروميثيوس كان عنيدًا في تحقيق ما يراه نافعًا، مهما كلفه ذلك من جهود وتضحيات، ومهما جابه من عقبات".

من مظاهر اهتماماته المنوعة ميله للتجوال بين المدن والأرياف في الأناضول، كان معتادًا على التنقل والسفر بين مختلف أرجاء بلاده، يُمضي الوقت في التحدث إلى الناس الذين لا يعرفهم، وعلى الأخص إلى المتقدمين في السن منهم، يسألهم عن مشاهداتهم وذكرياتهم، وكان لا يفتأ يُذَكّر مواطنيه بعظمة أرضهم الأناضول، التي ازدهرت فوق سطحها حضارات عظمى لأنها كانت ملتقى ثقافات القارات العتيقة الثلاث: آسيا وأوروبا وأفريقيا، كان يعقّب على ذلك بقوله: "يكفيكم أنَّ الأناضول احتوتْ وحدها على ثلاث من عجائب الدنيا السبع".

من أهم جوانب شخصية بالكجي عشقُه للغات، كان يحب أن يتعلم مختلف اللغات، لأنّ الإنسان في رأيه لا يمكن أن يتعرف إلى خصائص أي شعب من الشعوب وحتى أي فرد من الأفراد دون أن يفهم لسانه، ويعرف لغته، وحبهُ للبشر جعله يحرص على محاولة الاقتراب منهم عن طريق تعلم لغاتهم المختلفة، بواسطة دراسته في جامعة أكسفورد أكتسب لهجة هذه الجامعة العريقة، وبسبب إعجابه بحركة النهضة الأوروبية، "رينيسانس" ورغبته في دراسة الآثار الفنية وروائعها في إيطاليا، سافر إلى هذا البلد، وتزوج فتاةْ إيطالية، وبذلك تيسر له إتقان اللغة الإيطالية ثم اللاتينية، وعن طريق صلة عاطفية نشأت بينه وبين فتاة إسبانية تعلم الإسبانية بشكل ممتاز، أما

الإغريقية فليس من الصعب اكتشاف دوافعه إلى تعلمها، وهو المهتم بآثار الإغريق في الأناضول، بالإضافة إلى كونه ابن امرأة يونانية الأصل.

كانت معرفة بالكجي باللغة الإيطالية عميقة، كان قد حفظ أغلب فصول الكوميديا الإلهية لدانتي، واعتاد أن يناقش أصدقاءه في مدلولات ألفاظها بشكل خاص، وكثيرًا ما تمنى أن يكون دانتي قد اختار ألفاظًا إيطالية غير التي استخدمها في النص لأنه، أي بالكجي، يجدها أكثر ملاءمةً وجمالاً.

ثم أنّ معرفة بالكجي باللغات التي يحسنها لم تقتصر على لغة الكلام، بل امتدت لتشمل الكتابة وحتى التأليف فيها على ما سنرى في قائمة آثاره ومؤلفاته، وتجده حين يتحدث بأي لسان من تلك الألسن، يكثر من إيراد الحكم والأمثال وروائع الأشعار المعروفة في ذلك اللسان، على أن ممارسته لتلك اللغات لم تختص بموضوع الأدب وحده، وإنما تجاوزته إلى ميادين الفلسفة والتاريخ والاقتصاد والحياة العملية اليومية، لقد كان هذا الرجل أشبه بمكتبة متحركة تمشي على رجلين.

عُرف عن بالكجي ولعه باستعمال كلمة "مرحبًا" العربية، أحيانا بمدلولها الأصلي وأحيانًا كثيرة في مناسبات غير معهودة ولا صلة لها بمعناها، فهو يقولها حين يُصاب بالدهشة، وحين يختم مقالاته أو رسائله، وحين يخرج من دار أصدقائه مودعًا، وحين يريد استثارة الانتباه، وحين يطرأ خاطر على ذهنه وهلم جراً، وبسبب طريقته الغريبة هذه في استخدام لفظة "مرحبًا" فقد التصقتْ به، حتى صارت "مرحبًا" توأم اسم " بالكجي".

من أشدّ ما كان يُشغف به قلب بالكجي مشاهدة الطبيعة وظواهرها المنوعة، كان يعشق الأمطار والغيوم، وهدير الرعد، ووميض البرق، وزرقة السماء، والبحر، وتلاطم الموج، وتلوينات الأعشاب والزهور، وتباين خضرة الأوراق، وتشقق الرمال على ضفاف الأنهار، وعجائب أشكال الحصى والأصداف على شواطئ البحار، وذبول الأوراق في وحشة أيام الخريف.

من ناحية أخرى كان شديد العطف والحنو على الحيوانات حتى لو كانت مؤذية للإنسان. في ذات يوم استُدعى رجل يعمل "حاويًا" إلى دائرة الكَمارك في بودروم وكان بيده سلة تحتوي على ثعابين يقوم بعرضها على الناس ويكسب رزقه من ورائها، سأله الشرطي عما إذا كان لدية شهادة طبية بيطرية تثبت خلو الثعابين من الأمراض المعدية، بحسب قانون حماية الحيوانات؟

وإذ كان الحاوي لا يعلم بوجود مثل هذا القانون في تركيا، فإنه لم يصطحب مثل تلك الشهادة، عند ذلك أخذ الشرطي السلة من الحاوي قائلاً أن الثعابين يجب إتلافها مادام صاحبها عاجزًا عن إبراز شهادة خلوَها من لأمراض المعدية لثعابين البلاد، وذلك هو أقصى ما بيده من إمكانيات.

شرع الحاوي بالبكاء، إذ كيف سيقيم أوده بدون الثعابين، وليس لديه أي مصدر رزق آخر، وهو غريب؟ كان بالكجي وقتئذ واقفًا ينتظر دوره، ويراقب المشهد باهتمام، وهو يدير في فكره الوسائل الممكنة لإنقاذ الزواحف البريئة من المصير الذي يتهددها، وخطرت له فكرة.. كانت دائرة الكمارك تعرف بالكجي جيدًا، إذ اعتاد أن يسافر

دائمًا إلى خارج تركيا وعند عودته إليها كان يجلب أصناف مختلفة من البذور والثمار وشتلات الزهور والنباتات، ومعها وثائق تثبت خلوها من الآفات الزراعة، قال للشرطي: "سأكتب لك بخط يدي كخبير متخصص اسم نوعين من الأمراض التي تصيب النباتات، بالحروف اللاتينية أرفق ورقتي هذه باستمارة دائرتكم، وأذكر أن الخبير قد أكد خلو الثعابين من المرضين كذا وكذا، والمرفقة شهادته باستمارة الدائرة. وستكون الأسماء اللاتينية أحسن إثبات "أخذ الشرطي بنصيحة بالكجي فورًا، وهكذا نجت الثعابين من موت محقق، واستعاد الحاوي كنزه الثمين!

تجلى عشق بالكجي للطبيعة في جميع آثاره المكتوبة، هذه مقتطفات من مقالة كتبها مستعيداً ذكرياته القديمة واصفًا ليلته الأولى في منفاه ببلدة بودروم "هاليكارناسوس" :

"سرتُ في فناء منزلي الذي استأجرته على ساحل البحر، وأقفلت البوابة الخارجية، ثم فتحت الباب المطل على البحر.. يا للروعة أيّ منظر خلاب هذا؟ شواطئ البحر الممتدة بعيدًا تتلألأ بالمنازل البيض المتراصة على طولها، والحدود النائية الشاحبة لجزر البحر امتزجتْ بحمرة الشمس المودّعة للنهار فتحول لونها إلى البنفسجي الخفيف، وخيوط الأشعة الملونة راحت تلهب ذرى الموج المتصاعد إلى الأعلى، وأمواج هائلة من البحر كانت تضرب بعنف أساسات منزل فلا أرتعب لأنني أعرفها منذ عهد بعيد. بين حبات الرمال على الشاطئ أبرزت شجيرات الفطر رؤوسها باستحياء وتردد، تشم عطر الهواء النقي الذي لم يجرب عَفَن التلوث بعدُ، منذ طفولتي لم أبكِ

بتأثر شديد كما حدث لي في ذلك اليوم، ووجدتني أنتحب وأنا جاثٍ على ركبتي فوق الرمال عند عتبة الباب، ثم تحول ذهولي أمام سحر المنظر إلى شعور بالامتنان لحسن حظي الذي جاء بي إلى هنا ونسيت تمامًا الألم بالنفي، وإزعاجات الأشهر السابقة، حشرت أصابعي في الرمل، ولمستُ نباتات الفطر وقد بدتْ في عيني أشبه بأحجار اللؤلؤ والبرلنتي في حسنها، ودون وعي مضيت أغترف براحتي ذرات الرمل أمسح بها وجهي، وكأنني أباركه بالتراب المقدس على طريقة الإنسان القديم في معابده، كان جلال البحر وحسن جزره يتفوقان على أروع ما رسمه خيال فنان، وكم آنستني همساتُ الأمواج بموسيقاها الغريبة غير المعهودة هنا يمكن أن يعيش الإنسان مدى عمره حتى على الخبز والماء وحدهما".

منذ عهد طفولته استثارتْ حساسية جواد شاكر للموسيقى دهشة أهله، فقد كان يجبر والدته وأخواته على الجلوس إلى البيانو، كلما شاء، ليعزفن القطع الموسيقية التي يحبها ولم يكن بوسع أيّ منهن أن تعصي له طلبًا في هذا الشأن، ولا شكَّ أن عشقه هذا للموسيقى ذا صلة تامة بشاعريته، وليس من عجب أن يكون شاعرًا حتى في نثره لاسيما في رواياته البحرية، وكثيرًا ما انساق بالكجي في أوصاف شعرية ورسم صور فنية قلما أمكن تحققها في النثر، لقد كان الشعر جزءًا من شخصيته ومن الممكن أن نؤكد أنه لم يتعمد يومًا تحويل بعض فقرات رواياته إلى شعر محض، لكنّ ذلك كان يأتي عفو الخاطر لا أكثر ولا أقل.

مما يلقي الضوء على أحد جوانب شخصية بالكجي حادثة رواها بنفسه في رسالة جوابية بعث بها إلى مجموعة من تلامذة "ثانوية بودروم" وكانوا قد وجهوا إليه بعض الأسئلة المتصلة بحياته وبشخصيته عام 1967 أي قبل وفاته بست سنوات، ومما رود في رسالة التلاميذ العبارات المؤثرة التالية "حيثما وجهنا النظر في أرجاء بلدتنا قابلَنا أثر من آثارك، ونحن أنفسنا أي طلاب هذه المدرسة الممتلئين عزمًا وإيمانًا نتاج للمدنية التي صنعتها أنت، وأشجار النخيل واليوكالبتوس المتطاولة إلى عنان السماء، ما تنفك تهمس باسمك كل ساعة في آذاننا، لأنك كنتَ الذي غرستها، وعنيت بها حتى قوي عودُها ورسخت جذورها في الأرض، فليس عجيبًا أن نتعلق بك دون أن نراك، وقد أحببنا أن نرد إليك بعض الجميل، فأعددنا حفلاً تكريميًا لك في شهر كانون الثاني المقبل، هلا شرفتنا بحضورك، إن لم يكن ذلك ممكنا، فنرجوك أن تتفضل بالإجابة على أسئلتنا التالية، ولك منا خالص التقدير والحب"، كان أحد تلك الأسئلة:

ما أجمل ذكرياتك ؟

الجواب:

"مرةً كنتُ مشغولاً بترجمة قصة كارمين لبروسبر ميريميه إلى التركية، في الحكاية فقرة أو جملة تقول : إنَّ كارمين خرجتْ من دكان، وقد ألصقتْ بشعرها باقة جميلة من زهور الميموزا، حين كنت أترجم هذه العبارة، خطرت لي فكرة: لماذا لا تجمل بنات بودروم رؤوسهن بمثل هذه الزهور؟ فورًا أرسلت إلى باريس طلبًا، ووصلتني بذور الميموزا بعد فترة قصيرة، وبعد أسابيع تفتحت

الزهور في الشوارع ما كان أشد فرحي حين قابلتني مجموعة بنات بودروم الفقيرات وقد ألصقن بشعورهن باقات ورد الميموزا، الورود التي جلبتُها من فرنسا، هذه هي واحدة من أجمل ذكرياتي".

*** ***

آثارهُ الأدبية وآراؤه

في جميع كتاباته حاول بالكجي إثبات رأيه القائل بأنّ أبناء الأناضول هم الورثة الحقيقيون لحضارة أيونيا القديمة التي تنسب إلى الإغريق ظلمًا، فإذا كان هذا الرأي صحيحًا تاريخيًا، فما الذي يستفيد منه الأناضوليون؟

يجيب بالكجي: إنّ ذلك سيخلصهم من عقدة نفسية عميقة!

يقول الكاتب التركي الشهير عزيز نسين:

"إن أفكار هاليكارناس بالكجي شأنها شأن آراء كمال طاهر، ستبقى مثار جدل حادّ بين المثقفين المهتمين بالأب والتاريخ والفلسفة والسياسة. كما ستكون مصدرًا لا ينضب للأفكار الجديدة.

بالكجي وكمال طاهر لم يخطر لهما أن ينزلا نفسيتهما منزلة الفلاسفة أو العلماء، وإنما اكتفى كلٌ منهما بأن يحتل موقع الكاتب الروائي الذي يعرف كيف يعرض آراءه ووجهات نظره دون أن يخل بمجرى أحداث روايته، ومع أنهما كانا من الكتاب الواقعيين إلا إنهما تجنبا بمهارة فائقة التكلم بلسان أي حزب سياسي من الأحزاب المتصارعة في بلادنا، بالكجي مثلاً لم يُبدِ أي اهتمام بالتقسيم الطبقي

للمجتمع الإغريقي، أو المجتمع الأناضولي القديم، واكتفى في بحوثه كلها بالنظرة التاريخية ذات الاتجاه العلمي، وكان همُه الأول اكتشاف الهوية الحقيقية لشعب آسيا الصغرى أو ما يسمى اليوم تركيا، كم أشعر بالضيق والأسى كلما تذكرتُ فداحة خسارتنا نحن أهل الأناضول بفقدان هذين الكاتبين المبدعين اللذين كان يمكن أن يهديا لوطنهما مزيدًا من آثارهما الرائعة، لكن القدر لم يشأ ذلك، فذهبا وهما في ذروة قدراتهما الإنتاجية مع الأسف الشديد".

ويى بدري رحمي أيوب أغلو أنَّ صديقه هاليكارناس بالكجي سي هو أول من دحض النظرية الغربية التي تزعم أن اليونان وحدها هي أرض الحضارة والفكر والفلسفة، فقد أعلن على رؤوس الأشهاد أن اليونان لا حقَّ لها في أن تفتخر بهذا الشرف لأنه من مفاخر الأناضول في حقيقة الأمر، ويعقب أيوب أوغلو على كلامه السابق بالعبارة التالية: "لا أعرف كتابا يُوَلّد السرور مثل كتاب بالكجي "هيه يا وطني العظيم".

وتقول الكاتبة عذراء أيرهات، مريدة بالكجي:

"كنتُ منهمكةً في ترجمة هوميروس وإعداد مقدمة للإلياذة، فقرأت في إحدى المجلات حديثا لهالكارناس بالكجي سي قلبَ جميعَ أفكاري حول الموضوع رأسًا على عقب، فقد كان من رأيه أن هوميروس أناضولي من أبناء أزمير، من ثم فإن عبقريته تنتسب إلى أرض الأناضول "أيونيا" وليستْ إلى اليونان، بل إنّ الحضارة اليونانية إنما شعَّتْ من الضفاف الشرقية لبحر إيجة أي من آسيا الصغرى أيضًا، هناك إذن غبن في هذه القضية ويجب إزالته. وبهذا يكون بالكجي قد

بدأ حربًا ضروسًا لا هوادة فيها ضد المؤرخين الغربيين" وتمضي عذراء إيرهات في حديثها قائلة:

" وبعد قراءتي لكتابات بالكجي وتسلمي للعديد من رسائله الموجهة إليَّ حول الموضوع، ومن خلال أحاديثه المطولة معي ومع بقية أصحابه، اقتنعتُ بدقة آرائه وبصحة النظرية التي كان يبشر بها، فقد كشفتْ لي مؤلفاته وكتاباته عن أنقاض المدن الأثرية: أفيسوس وملطية وفيرغانة...إلخ وسردتْ لي بالتفصيل تواريخ تلك المدن وغيرها من مخلفات الحضارات الأناضولية القديمة، إضافةً إلى تفاصيل علومها وفنونها، وحياة سكانها، وخفايا تربتها وأراضيها ونباتاتها وجيولوجيتها حتى شعرتُ بانني صرتُ أعرف شخصيًا عظماء أبنائها، هوميروس وهيراقلطيس وطاليس وأنكسيمانس وديوجينيس وديوبنزيوس..إلخ، وبهذا أصبحت إحدى أعضاء جماعة بالكجي وتطوعتُ مثلهم للدفاع عن نظريته والسعي لنشرها بين أبناء وطننا"، وتواصل عذراء إيرهات حديثها الطريف حول بالكجي فتقول:

"في أحد الأيام شاهدتُ ندوةً مفتوحةً على شاشة تلفزيون أنقرة، كان المفكر التركي الكبير "نصرت خضر" مهمتًا بتقديم تعريف وافٍ لشخصية "الإنسان الكامل" فكان من رأيه أن الكامل من البشر هو ذل الإنسان "المنفعل" بكل ما يحيط به من أجواء ثقافية واجتماعية ونفسية، لكن الشخص المنفعل يجب أن يعرف كيف يكن "فعّالاً" أيضًا أي أن يؤثر في الآخرين كما يتأثر بهم، فهو إذ يتقبل المؤثرات الخارجية لابدَّ أن يكون له تأثير فيمن حوله، فهو يتغير، وفي الوقت

ذاته يغير محيطه، إنه منفعل وفاعل، يأخذ ويعطي بصورة ديالكتيكية، الإنسان ليس كائنًا معزولاً منزويًا في قلعةٍ إقطاعية حصينة، ولا هو جزء هزيل من قطيع حيوانات ضعيفة ذليلة ضمن نظام استبدادي بليد، إنه كائن اجتماعي ذو حيوية شديدة، وأخطر ما يتعرض له الإنسان الاغتراب الثقافي، والاغتراب الثقافي ليس من مبتدعات العصر الحديث كما يتصور أعداء الحضارة، على أية حال، فإذا ما تعرض الإنسان لهذا الضرب من الاغتراب فإنه سيختار أحد سبيلين: أما أن ينسحب إلى داخل نفسه، وأما أن يعود إلى حالة القرود الأولى أي أن يفقد كرامة الإنسان وكبرياءه، وفكرتُ في أقوال السيد نصرت خضر: ترى هل هناك إنسان كامل في مجتمعنا الحالي؟ ما أسعد حظي، أنا أعرف شخصين في تركيا يمكن إطلاق صفة الإنسان الكامل على كل مهما، إنهما هاليكارناس بالكجي سي وصديقه المقرب المؤمن بآرائه الكاتب الشهير صباح الدين أيوب أوغلو".

في شهر أغسطس/ آب من عام 1946 أسس بالكجي جمعية ذات مدنية أي غير رسمية، أطلق عليها صديقه "صباح الدين أيوب أوغلو" اسم "المسافرون الزرق"، وقد رشحوا لرئاستها: هاليكارناس باكجي سي، ومن أعضائها صباح الدين أيوب أوغلو، وأخوه بدري رحمي أيوب أوغلو، والكاتب الشهير وداد غون يول، والشاعر المعروف نجاتي جُمالي وآخرون.

رتب بالكجي جولة بحرية على ظهر زورق بخاري ينطلق بهم من مدينة بودروم ويمضي مخترقًا بحر إيحة باحثًا مكتشفًا. كان عددُ

المشتركين في الرحلة لا يزيد عن ثلاثين شخصًا من الرجال فقط وقد أصبحتْ الرحلةُ تقليدًا يتكرر في صيف كل سنة، هدفُ هذه الرحلات جمع عينات من آثار حضارات الأناضول التي ازدهرت على شواطئ بحر إيجه، كان على الرحالة أن يبحثوا عن بقايا السدود والمسارح والقصور والأضرحة الأثرية جميعًا كي يقدموا الأدلة المطلوبة على صحة نظرية بالكجي في أن تلك الآثار يجب أن يتبناها المواطن الأناضولي وليس الإغريقي، لأنها موجودة في أرض الأناضول في وقت لم يكن الجنس التركي قد وصل إليها بعدُ، فالترك لم يهاجروا إلى آسيا الصغرى إلا مع تحرك القبائل السلجوقية نحو الغرب، عندما ضعفتْ الدولةُ العباسية أثناء حكم البويهيين وغيرهم من الدول الإسلامية غير العربية التي حكمتْ بلاد الإسلام في العصر الوسيط، أما قبل العهد السلجوقي فلم يكن في آسيا الصغرى غير من كان المسلمون يُطلقون عليهم عمومًا اسم "الروم" ويقول أبو تمام شاعر المعتصم، في مدح أحد القواد العرب الذين انتصروا في إحدى المعارك التي جرتْ في آسيا الصغرى:

كانَّ بلادَ الروم عمَّتْ بصيحةٍ... فضمت حشاها أو نما وسطها السقب

ويقول المتنبي يصف معركةً انتصر فيها سيف الدولة على جيش البيزنطيين في جنوب الأناضول:

فنحن في جّذَلٍ والرومُ في وجلٍ...والبرُ في شُغُلٍ والبحرُ في خجلٍ

والمؤرخون الغربيون لا ينكرون أن بعض عظماء المفكرين والكتاب والفلاسفة نشأ وازدهر في أيونيا "الأناضول" ومنهم هوميروس

وهيرودوتس وطاليس وهيراقليطس...إلخ ممن يرفعهم الغرب إلى مصاف الأنبياء في العبقرية والعظمة، لكنْ بالكجي يرى أن هؤلاء أناضوليون "أيونيون" فلماذا يعدهم الغرب أغريقين إذن؟ أليس أهل الأناضول أولى بأن يفتخروا بهم لأن أرضهم هي التي أنبتتهم ونمت عبقريتهم؟

ما رأي المختصين في نظرية بالكجي هذه؟ يقول أحد النقاد:

"الموضوع يحتاج إلى تدقيق العلماء وإلى حكم التاريخ بعد مرور فترةٍ من الزمان، فالزمن خير ناقد، لقد شَنَّ بالكجي حربًا شعواء على الفلسفة الإغريقية في نزعتها المثالية التي وطد أركانها ثالوث الفلسفة: سقراط وأفلاطون وأرسطو، وحارب أرسطو بسلاحه هو، أي بقياس أرسطو ذاته، ترى ما سر هذا العداء؟ إنها مسألة معقدة لاسيما أن الموضوع يتعلق بأحداث تلفعت بغبار التاريخ، وتعاقبت عليها الأعوام، وكان يتعين على المؤسسات العلمية التركية أن تأخذ هذه المسؤولية على عاتقها، لكنها لم تكلفْ نفسها حتى الالتفات إلى الموضوع وكأنها لا تشعر بما يجري في الساحة الثقافية، مع ذلك فإن بالكجي يجد مؤيدين لنظريته بين المختصين من علماء الغرب، فآراء الكاتب الناقد "روبرت غريقز" Graves قريبة جدًا من آرائه في هذا الموضوع، وغريفز ليس بدعًا بين الباحثين الغربيين، فهناك عدد كبير من العلماء المختصين يرفضون بشكل قاطع الرأي القائل بأنَّ العلم والفلسفة لم يظهرا ولم يزدهر إلا في التربية اليونانية، ويؤكدون دور "أيونيا" الكبير أي الأناضول في ظهور الفكر العلمي المادي

الحديث، فضلاً عن أهميتها في ترسيخ دعائم الفلسفة المجردة عن الأوهام والخرافات".

إنَّ رأي هذا الدارس التركي تؤكده آراء مماثلة لمؤلفين غربيين، منهم على سبيل المثال "سارتون" الذي يشير في كتابه "تاريخ العلم" إلى أنّ "المستوطنين الأيونيين كانوا جماعة من الناس تعيش في بيئة سياسية جديدة من صنع أيديهم إلى حد كبير، بيئة متفقة وأمزجتهم، ويبدو أنهم اتصفوا بالشجاعة، وسعة الحيلة، والحرية النسبية، ثم أن الشاطئ الغربي للأناضول كان إقليمًا ممتازًا لامتزاج الأفكار والثقافات والحوافز الناشئة عن ذلك، إن أهم صفات هذا الوضع الفريد لايونيا "ملطية على الأخص"، يمكن إيجازها بما يلي:

1.الازدهار الاقتصادي والتجاري الذي ساعد على نموّ الترف، ووجود الفراغ لدى الطبقة المرفهة، مما يساعد على التفرغ للدرس، وازدهار الفنون والعلوم.

2.تحطيم الآخيين للملكية، وعدم وجود سلطة كهنوتية منظمة، ثم أن الناس هناك لم ينظروا إلى الآلهة بجدْ أو احترام، كذلك فإنَّ الآخيين الذين غزوا أيونيا حرصوا على تحطيم الشعوذات والحد من السحر، من ثم لم يكن هذه الأشياء أية قوة أو تأثير، على عكس ما حصل في مصر وبابل.

3.الشعب الأيوني نفسه امتاز بأمور شخصية معينة تعود إلى ظروف اجتماعية محددة مثل طبيعة التكوين الاجتماعي للسكان، والظروف الجغرافية، والأوضاع السياسية.

وكان للأيونيين مزايا عقلية خاصة مثل سعة الأفق، وقلت التعصب، وحب الاستطلاع...إلخ.

ويتحدث المؤرخ القديم "هيرودوت" عن أيونيا فيقول:

"مناخها أجمل مناخ في العالم كله، أكثر موانئها تقع عند مصبات الأنهار أو عند منتهى الطرق، وكانت هذه الأنهار والطرق تنقل البضائع إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومنه إلى كافة الأنحاء" وكانت ملطية Millet ، وهي أبعد المدن الاثنتي عشرة الأيونية، أغنى المدائن في العالم اليوناني في القرن السادس قبل الميلاد.

وأثمر الرخاء المطرد لأيونيا أدبًا وفنًا وفلسفة، وتعلم التجار الأيونيون عن الفينيقيين إقامة المستعمرات لتكون مراكز تجارية فأنشأوا عددًا كبيرًا منها في إيطاليا ومصر وتفوقوا على الفينيقيين في هذا المجال، وكانت ملطية تصدر إلى المستعمرات الأيونية مصنوعاتها اليدوية وتستورد مقابلها الكتان والخشب والمعادن والفاكهة، وفي هذه البيئة الباعثة على النشاط الذهني أنتجت البلاد الثمرتين اللتين امتازت بهما على غيرها، وأهدتهما إلى العالم، ويقصد العلوم الطبيعية والفلسفة، ذلك أنه حيث تتلاقى الطرق، تتلاقى كذلك الآراء والعادات والعقائد المتباينة، وينشأ من اختلافها احتكاك، فتنازع، فمفاضلة، فتفكير، فتمحو الخرافات بعضها بعضًا، ويبدأ التفكير المنطقي السليم، وقد تلاقى ملطية كما تلاقى في أثينا، رجال جاءوا من مائة دولة متفرقة، ذوو نشاط عقلي بعثه فيهم التنافس التجاري، وقد تحرروا من التقاليد لطول غيابهم عن أوطانهم ومعابدهم، وكان أهل ملطية يسافرون إلى المدن البعيدة حيث تفتحتً

عيونهم على حضارات ليديا، وبابل وفينيقية، ومصر وبذلك دخل علم الهندسة المصري الفرعوني، وعلم الفلك البابلي، إلى العقل اليوناني، ونمت العلوم الرياضية، والتجارة الخارجية، وعلوم الملاحة، والجغرافية، والفلك، في وقت واحد، وكان الفراغ الناشئ عن التراث قد أوجد ارستقراطية ثقافية امتازت بالتسامح الفكري، والتفكير الدنيوي غير الديني، "ويُراجَع كتاب: بواكير الفلسفة قبل طاليس، للدكتور حسام الدين الألوسي".

يوضح هاليكارناس بالكجي سي رأيه في هذا الموضوع فيقول:

"في عهد أغسطس، إمبراطور روما أجرى أول إحصاء للنفوس في الأناضول، وظهر أن عدد نفوسها واحد وعشرون مليون نسمة، مثل نفوس الأناضول في أربعينيات القرن العشرين في حين كان عدد الأتراك القادمين من آسيا الوسطى إلى الأناضول يقارب المليونين، هذا يعني أن التركمان المهاجرين إلى الأناضول لم يزيدوها نفوسًا، إذ تزاوجوا مع أهلها الأصليين، وامتزجت دماء الطرفين في غالبيتهم العظمى، ولأن هؤلاء الأتراك المهاجرين كانوا أقوياء بحكم بداوتهم، ومحاربين مشهورين، فقد استطاعوا بسهولة أن ينتصروا على الإمبراطورية العجوز، لقد أخذ الأتراك كثيرًا من الألفاظ الإغريقية وأدخلوها في لغتهم مثل أفندي، زئبق، برغل...إلخ، لكنهم استطاعوا بحكم كونهم الدولة المنتصرة الحاكمة أن يفرضوا لغتهم التركية على الشعب المغلوب في الأناضول، وهكذا سادت اللغة التركية في هذه البلاد، إنَّ عددًا كبيرًا من الأساطير التي يدرسها الأطفال الغربيون

في مدارسهم، تنسب إلى الإغريق في حال أنها من أساطير أهل الأناضول".

ولأنَّ الأناضول تطل على البحر الأبيض المتوسط في حدودها الجنوبية فإنّ هذا البحر يصبح أيضًا موضع عناية بالكجي، فيدفع في حماسه المعهود للمفاخرة بإبداعات سكان البلدان الواقعة عليه، يقول : "البحر الأبيض هو الوطن الأول لجميع المكتشفات والمخترعات، إنّ أغلب المكتشفين والرواد العظام هم أبناء البحر الأبيض، فمنهم كولومبوس، ماجلان، هوميروس، هيرودوت، سترابون، بليني، ابن بطوطة، الأدريسي، وعدد كبير آخر من مثل هؤلاء العظام، إنّ اكتشاف العالم بدأ من البحر الأبيض، فالسومريون اكتشفوا العجلة التي كانت تجرها الحيوانات المستأنسة، وفي جزر الأرخبيل استُعملت الأشرعة لتحريك السفن، الأناضول تطل على البحر الأبيض، ويجب أن نطلع العالم الغربي على عظمة الأناضول وأهميتها العلمية والتاريخية".

بحسب نظرية بالكجي يتعين على المؤرخين أن ينسبوا عبقرية كثير من العظماء إلى حضارات الأناضول بخاصة، وآسيا الصغرى عمومًا، وليس إلى الحضارة الإغريقية لاسيما أن الدارسين متفقون على أن الجنس الإغريقي منقسم إلى ثلاثة فروع هي:-

1- الأيوليون, 2-الدوريون. 3- الأيونيون، وكانت آسيا الصغرى سكنًا للدوريين وللأيونيين، وكان لكل جنس من هذه الأجناس لهجته الخاصة المباينة للهجة الجنس الآخر، وكانت لهجة الأيونيين، باتفاق الآراء أشد اللهجات الإغريقية كمالاً وتهذيبًا، كذلك اتفقت الآراء على

أن أهل أيونيا كانوا أذكى الشعوب الإغريقية وأكثرها تفتحًا للثقافة وأبعدها عن اعتناق الخرافات وأشدّها تسامحًا وسعة آفاق، على ما أشرنا إليه سابقًا، إنَّ أهم العباقرة الذين يجب أن ننسبهم إلى حضارات آسيا الصغرى هم: الفلاسفة طاليس- فيثاغور- ديمقريطس- هيراقليطس- أبيقور- ديوجينيس- أبيكتيتوس- أناكسيماندر- أناكساميتيس- بروتاغوراس.

والشعراء: هوميروس- وبندار- وهزيود- والشاعرة سافو "وهي من جزيرة ليسبوس القريبة من سواحل أيونيا".

وهناك أيضًا المؤرخ الشهير هيرودوت، والجغرافي سترابو، والطبيب هيبوقراط..إلخ، فإذا كانتْ نظرية بالكجي علمية ودقيقة، فإن المؤرخين بحاجة إلى تصحيح كثير من المفاهيم السائدة حول منطقة بحر إيجه، وكل ذلك متروك للزمن، فهو الغربال الذي يحسن عزل الحقائق عن الخرافات والأوهام.

امتزجت الكتابة لدى بالكجي بالرسم امتزاجًا تامًا، بل إنه منذ بداية حياته العلمية اضطر إلى اتخاذ الكتابة والرسم معًا مصدرًا أساسيًا لكسب عيشه، أما الرسم فقد شُغف به منذ طفولته المبكرة، وظل يرسم حتى يوم وفاته، الرسم في الواقع جزء أساسي من شخصية بالكجي، يقول صديقهُ توغي غولينج : "أثناء لقاءاتي ببالكجي في أزمير، لم أره يومًا دون ورقة أو دفتر يخطط فيه بالقلم، أكثر ما كان يرسمهُ، الصور الكاريكاتورية، كذلك فإنه كان يصمم أغلفة بعض المجلات لقاء أجور محددة منها مجلة : "الشهر المصور" وهو في كتاباته رسام وموسيقي أيضًا، ذلك أن الشاعر، بالمعنى المطلق وليس

الاصطلاحي، مُتَّحد أو ممتزج بعناصر الجمال في الكون كله، بل إن الشاعر مظهرُ هذا الجمال في حقيقة الأمر، إنَّ اتحاد الفنان على هذه الصورة السحرية بالطبيعة، هو الذي يحميه من الغرق في عالم المكاسب والأرباح والأطماع التي تشغل عامة الناس في كل مكان وزمان، ويمنحه الفرصة للانصراف إلى تنمية قدراته النفسية وكفاءاته العقلية، وبذلك يضمن لنفسه السلامة من التشوهات والانحرافات التي تسببها متاعبُ العيش وتعقيدات الحياة".

يُعَدّ هاليكارناس بالكجي أول كاتب تركي يُفسح للبحارة أكبر المساحة في رواياته، إذ لم يهتم أي أديب آخر قبله بهذه الفئة من البشر، ربما لأنَّ غالبية الأدباء بعيدون كل البعد عن كل ما يخص البحر وطرائق العيش فيه، وهذه الروايات تفيض حيويةً حتى ليحس القارئ لها أنه يعيش مع شخصياتها فيشارك البحارة، والغواصين، وصيادي السمك، متاعبهم ومخاطر حياتهم، ويتحدث بالكجي عن نفسه فيقول: "أنا خالق البحر ومخلوقه" يريد بذلك أن أحداث رواياته تدور حول الحياة البحرية وحول الناس الذي يقيمون أودهم على نتاجات البحر، ويقول "محمود" بطل روايته أغانتا بورنا بوريناتا : "هذه الكلمات في صيغة هتاف يستخدمه البحارة الأتراك، مثلما ينادي البحارة المصريون في رحلاتهم: هيلا هوب هيلا" بحار تتنازع فؤاده عاطفتان قويتان، إحداهما عشقه لعائشة فتاة أحلامه منذ الطفولة، والثانية اعتياده حياة المغامرة والأخطار في البحر، ونفوره من رتابة الحياة ضمن المجتمع. فجأةً يشعر بأنه متعب، وأن الأوان قد آن لأنْ يتزوج فتاته، ويعيش مثل بقية الناس، تُقام الأفراح ويتم الزواج، وتمر الأيام ساكنةً بطيئةً مملةً.

فهل هدأت نفسُ محمود واستقر به المقام؟ ها هو البحر صديقه الأبدي يناديه في يقظته وفي منامه، وهو عاجز عن صَدّ النداء، تمامًا مثل رفاق أوديسيوس التائهين وسط أمواج الأوتيانوس وهم عاجزون عن سَدَّ آذانهم عن سماع ألحان جنيات الأعماق اللواتي يوفقن في سحبهم، وهم في حالة النشوة، إلى مواقع حتفهم، وكذلك يعود محمود إلى سفينة رفاقه، يقفز إليها وهو في ذهول الغائب عن الوعي، وتمضي السفينة بعيدًا نحو الأفق، وتتم الحكاية.

في صباه كان بالكجي "جواد شاكر" يتمنى أن يُصبح بحارًا لكنَّ والده محمد شاكر باشا، قال له "إياك أن تقول إنك تريد أن تصبح بحارًا" وأصغى بالكجي إلى نصيحة والده، ورحل إلى بريطانيا، حيث حصل على التعليم العالي في جامعة أكسفورد، أما عن أمنيته القديمة فقد اكتفى بتحقيقها على صفحات روايتهحسب.

من أهم العيوب التي يؤاخذ عليها هاليكارناس بالكجي سي، أنه يحدد أشخاص رواياته داخل إطارات ضيقة لا يخرجون عنها أبدًا، وهم في العادة ينقسمون إلى فئتين لا ثالث لهما، فهناك أولاً فئة الأشرار المحتالون الذين يحركون الأحداث داخل الرواية بقسوتهم، وحدة حقدهم على من حولهم.

وهناك أفراد الفئة الثانية، الأبرياء الذين يقعون ضحايا جشع ووحشية المجرمين والأوغاد ممن لا يردعهم عن الشر والرذيلة رادع، وبهذا فإنّ أشخاص رواياته نسخ مكررة وصورة متشابهة بل متطابقة بعضها مع البعض في كثير من الأحيان، هذا القصور في روايات بالكجي يلاحظ أيضًا في روايات الكاتب التركي الملتزم كمال طاهر،

فكلاهما يضحي بعنصر التشويق من أجل تمرير أفكاره بأي ثمن دون مراعاة لأحد أهم شروط الفن الروائي والقصص، ونعني به عنصر الإثارة، والنتيجة فإنَّ قارئ رواياتهما كثيرًا ما يحس بالملل، ويضطر إلى إهمال كثير من التفصيلات، مما يفقدها جزءًا كبيرًا من قيمتها الفنية.

نزع بالكجي، سواء في حياته أو في آثاره، نزعةً إنسانية، وكان من دعاة المساواة والإخاء بين الشعوب، دون النظر إلى أعراقها أو ألوانها وكان يطالب بتغيير طرائق التعليم ومناهجه في المدارس والجامعات، بحيث يوجَه وجهة إنسانية تدعو إلى المحبة والسلام وسيادة الثقة بين البلدان، على الرغم من اختلافات أنظمتها السياسية، وكان ينفر نفورًا شديدًا من التعصب وضيق الأفق، وروح العدوان التي تتسم بها لأنظمة الاستبدادية في جميع العصور، ولذلك دعا الحكومات إلى تبني سياسة سلام تفرضها دساتيرُها بحيث لا تسمح لأيّ حاكم مستبد أن يتلاعب بها أو يتجاوزها، وهو في هذا كلِّه متأثر بالحركة التنويرية في القرن الثامن عشر، وبكبار كُتّاب عصرنا هذا ممن نزعوا نزعةً إنسانية نبيلة من مثل برتراند رسل، وآرنولد توينبي، وغيرهما.

يؤيد بالكجي الكُتَاب الغربيين المتخصصين بميثولوجيا الشعوب في رأيهم الذي يقول إنّ السيادة في جميع مجتمعات العصر الحجري كانت للإناث وليس الذكور، بدليل انتشار عبادة آلهة الخصب والأمومة في كل أرجاء الكرة الأرضية وقتئذٍ، يقول موضحًا ذلك: "جميع الشعوب عَبدتْ الإلهة الأم، الأرض، إلهة الخصب، لكنْ اسم

هذه الإلهة كان يتغير بتغير المكان واللغة، أهل "فريفيا" في آسيا الصغرى عبدوا الإلهة سَمَلة Semele وحين انتقلت عبادتها إلى منطقة أخرى من هذه البلاد أصبح اسمها كيبله Kybele وفي منطقة ثالثة من الأناضول أطلقوا عليها اسم "لات"، بعض الشعوب القديمة عبدوه الإلهة "ريا" Rhea، وشعب ثانْ عبد الإلهة "هيره" Here في اللغة التركية تعني هذه اللفظة : الأرض، وفي التركية الحديثة صارت: "Yer" أي الأرض، والمصريون عبدوا الإلهة إيزيس Isis، وبعض اليونانيين عبدوا الآلهة ارتميس Artemis، كلُ هؤلاء الإلهات صور مختلفة لإلهة واحدة هي إلهة الخصب والأمومة، في أحد أرجاء الأناضول كان اسم هذه الإلهة هبا أو هَبَه Hebe ولما الاسم إلى فلسطين حوروا الاسم فأصبح "حَوّا" وفي أساطير الكنعانيين يتزوج إلههم "أداموس" بإلهتهم "حَوّا" في مكة حوروا اسم الإلهة كيبله إلى "هُبَل" الذي صار كبير آلهة قريش، وكان في الكعبة في الجاهلية صنمٌ ضخمٌ ذو ذراع ذهبية، وبحسب الروايات فإنّ خالد بن الوليد حين شرع بتحطيم هذا الصنم بأمر من النبي محمد "ص" ظهرت من جوفهِ امرأة مكشرة عن أسنانها، وفَرَّت هاربة" يختم بالكجي حديثه هذا بالعبارة التالية "في عصور لاحقة انتقلت السيادة إلى الذكر، فتغير كلُ شيء".

*** ***

الرحلة الأخيرة

في عام 1971 تضاءلتْ الموارد المالية لبالكجي، وفي الوقت ذاته، اشتدت عليه أعراض مرضهِ المزمن: السرطان، وزادهُ حزنًا إصابة

أحد أحفاده بمرض السل، نصحه الأطباء بالراحة التامة، لكنه لم يعتدْ أن يرتاح، فاستمر في أعماله العادية حتى أنه رافق مجموعة من السياح الأجانب مؤديًا واجبات مهنته الأصلية كمرشد سياحي، فأغمي عليه وهو يقوم بوظيفته، لم يعرف بالكجي معنى الخوف من الموت. ينقل إلينا مريدهُ شادان غوك أوفالي وصية بالكجي الغريبة والفريدة:

"بعد وفاتي لا أحب أن يكون فوقي أسمنت أو مرمر، أبحثوا عن صخرةً ناتئة وضعوها فوق الضريح الترابي، لا تكتبوا عليها أي تعريف بمن يرقد تحتها، فقط ثبتوها جيدًا، لا أشترط أن يكون القبر فوق جبل أو مقابل بحر، ففي موقعي ذاك لن أسمع أو أرى أو أحس شيئا مع ذلك فإن روحي تعيش أبدًا مع البحر وسأراه دوما بعين قلبي، لقد أعجبتني وصية أحد الكرادلة "أكتبوا على ضريحي ما يلي : هنا لا يوجد أي أحد" ويكمل شادان غوك أوفالي حديث بالكجي أو وصيته:-

"بما إني جزء من الطبيعة، فلن أحتاج بعد الموت إلا إليها، ترى ماذا سأكون بعد الموت؟ ثمرة تين أم زهرة زنبق؟ من يدري؟ كل ما أعرفه إنني لن أكون!! كم بنى الفراعنة من أهرامات من أجل تخليد أنفسهم فأين هم الآن؟ إنهم غير موجودين، لعل البشرية سترسل الموتى في المستقبل إلى النجوم، أما الآن فمصير أبداننا إلى التراب يصنع بها ما يشاء، وأرجو أن يكون جسمي ذا فائدة للطبيعة!! ما أهميته أن نبقى في صورة إنسان فلتتحول أجسادنا إلى أية صورة أخرى".

كانت أخر كلمات نطق بها بالكجي قبل وفاته:

أرى الزرقة... أشم العطر... أرج الزهور في أنفي .

*** ***

أهم أثاره – باللغة التركية

مرحبًا أيها البحر "قصص 1947".

أغانتا بورينا بورينانا "رواية 1946".

الريس طورغوت "رواية 1963"

أعماق إيجه "قصص 1952".

يحيا البحر "قصص 1957".

الجزيرة الضاحكة "قصص 1956".

مغتربو البحر "حصلت على جائزة أحسن رواية لعام 1970".

صوت الأناضول "دراسة تاريخية 1971".

رسائل هاليكارناس "إعداد عذراء إيرهات 1976".

المنفى الأزرق "مذكرات 1961".

أساطير الأناضول "دراسة في الميثولوجي 1954".

أهم مترجماتهِ إلى اللغة التركية من لغات أخرى :

الاعتماد على النفس تأليف والدوامرسن صدر عام 1939.

كارمين – جزأن تأليف بروسبير ميرميه صدر عام 1939.

حكايات إيطالية تأليف بوكاشير صدر عام 1939.

ذكريات بيت الموتى تأليف دوستيفسكي صدر عام 1939.

كرة القدم في السموات تأليف برنارد شو صدر عام 1939.

نوسترومو – جزأن تأليف جوزيف كونراد صدر عام 1946.

الإنسان والسوبر مان تأليف برنارد شو صدر عام 1946...إلخ... وإلخ.

وقد تُرجمت كثيرٌ من قصص بالكجي ورواياته إلى لغات أخرى.

أهم مؤلفاته في اللغات الأوروبية :

آسيا الصغرى Asia Minor.

موجز تاريخ تركية An Out line of History of Turkey mediterenienne.

الشباب الأبدي للبحر الأبيض La Heun esse Elennelle De La mediterenienne.

*** ***

بيامي صفا

1899 – 1961

الكاتب التركي الموسوعي

بيامي صفا كاتب الروايات المعروف، ومؤلف البحوث المفيدة في مختلف ميادين المعرفة، والمجادل العنيد الذي لا يقهر، هو ابن الشاعر المشهور إسمعيل صفا، أحد مؤسسي جمعية "ثروة الفنون" الأدبية التي أنشئت سنة 1896 في استانبول أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني، وتم إغلاقها بأمر منه في سنة1901.

إسمعيل صفا الأب شاعر ثائر

كرس الشاعر إسمعيل صفا حياته وخصص أغلب قصائده للتغني بألحان الحرية التي حُرم عامة الناس منها طوال فترة الحكم العثماني، فاستثارت أشعاره انتباه السلطان ووُضعت علامة استفهام على اسمه. في سنة 1900 نشرتْ جريدة "المشورة"، التي كانت تصدر في باريس باللغة التركية، قصيدة لإسمعيل بعنوان "إلى السلطان" هجاه فيها هجوًا لاذعًا، فاضحًا مظالمه وإجراءاته الغريبة واحدةً بعد الأخرى.

وصلتْ القصيدة فورًا إلى القراء في استانبول، وتداولتها الأيدي سرًا في كل مكان، لم يكن إسمعيل صفا يومئذٍ قد تجاوز الثالثة والثلاثين من عمره، وكان يعاني من مرض السل الرئوي، فصدر الأمر بنفيه إلى مدينة "سيفاس" ذات الجو القاسي، غير الملائم للمرضى، لم يطل

الأمر بالعليل فتدهورت صحته، ولم يعش بعد وصوله إلى المدينة غير سنة واحدة، وتوفي في سنة 1901 تاركًا أرملته وابنهما "بيامي" الذي لم يتجاوز سنته الثانية.

كان الشاعر إسمعيل صفا صديقًا حميمًا للشاعر العراقي الكبير جميل صدقي الزهاوي، وتوجد في ديوانه قصائد رثاء مؤثره لإسمعيل صفا، كانت صداقتهما تقوم على تشابه الميول وتقارب التطلعات والنزعات النفسية، وكانا مؤمنين بالحرية، وينحوان في أدبهما نحو التجديد، ويدعوان الأوطان الشرقية إلى التقدم والرقي، وتتردد في أشعارهما المصطلحات العلمية الخاصة بآخر المكتشفات في دنيا العلم يوم ذلك، مثل النسبية، والجذب والدفع، ولا نهائية الكون...إلخ.

بيامي الابن يرث الموهبة والمرض

بعد وفاة إسمعيل صفا ساءت الحالة أسرته، وأصيب الصغير "بيامي" بداء عضال، وهو ي التاسعة من عمره، ولم يُكتب له الشفاء منه أبدًا، كان من نتائج مرضه حرمانه من فرصة التعلم المنتظم مما أجبره على الاعتماد على نفسه في قضايا تربية الذات وتعليم النفس، وفي كسب الرزق، وإعالة أسرته أيضًا، وهو في سن الصبا المبكر، وكان يقيم أُوده بالتعليم ثم بالعمل في الصحافة، وأصبح قلمه مصدر رزقه الأوحد إلى آخر عمره، وفي سن مبكرة أيضًا تعلم اللغة الفرنسية التي هيأت له فرصة الاطلاع الدقيق على ثقافة العصر الحديث في منابعها الأصلية، فلم يترك فرعًا من فروع المعرفة إلا قتله درسًا وتمحيصًا، وبهذا أصبح باحثًا متمرسًا في العلوم الاجتماعية والاقتصادية وعلوم الحياة وعلم النفس والفلسفة والطب والقانون

والتاريخ فضلاً عن دراساته المتخصص في الآداب والفنون الجميلة لاسيما الموسيقى والرسم، وله مؤلفات نفسية في هذه الميادين جميعًا حتى قارب عدد مؤلفاته المائة والخمسين كتابًا.

ليستْ العصامية هي الصفة المتفردة التي تميز شخصية بيامي صفا فحسب، بل تلتصق بها طبيعة أخرى من طبائعه، وهي نزعة التحدي التي كانت إحدى ملامح شخصيته. هذه النزعة ظلت تدفعه لتخطي الصعاب وتجاوزها مهما أشتد بأسها، لقد تحدى يتمه، وتحدى مرضه المزمن وتحدى حرمانه من فرص التعليم، وتحدى فقدانه للإمكانيات التي توفرها السياحة للفرد من تجارب ومعلومات ومكتسبات روحية، واستطاع بجهده ومثابرته وقوة إرادته أن يرتقي قمة المجد، ويعد أحد أشهر كُتَاب بلاده، علمًا وثقافةً وسعة أفق وتنوع اتجاهات وتجسد التحدي لدى بيامي صفا، كذلك، في المجادلات الحامية التي برع في إثارتها على صفحات المجلات والجرائد بين مثقفي بلاده دون أن يفلح أحد في إفحامه أو تفنيد حججه القوية في أية مناظرة شارك فيها.

لم يكن هذا الكاتب مجرد ناقل معلومات ومقتبس معارف بل دأب على غربلة المعلومات التي يطلع عليها وتحليلها وتمثلها ثم تأليف تركيبات جديدة يستخلصها بنفسه وبهذه الصيغة يقدمها للقراء فهو بهذا أشبه بفيلسوف منه إلى مجرد كاتب مثقف.

يطغى على أغلب مؤلفات بيامي صفا جو من توقع الكارثة، وقد نتج هذا عن الآلام والمصائب التي عانى منها في حياته الخاصة، أما عن مقالاته فقد كتب ما لا يقل عن عشرين ألف مقالة مع أنه توفى قبل أن يستكمل اثنتين وستين سنة من العمر، على أنه نشر أغلب آثاره

بتوقيع مستعار، هو "سفير بديع" وهذا الاسم تحريف ضئيل لاسم والدته: "سرفيد بديعه".

أساسًا يُعد بيامي صفا كاتبًا قوميًا، فقد آمن بالقومية التركية كشرط لوجود الشعب التركي، على أن القومية لم تكن تعني لديه وحدة الدم ونقاوته، وإنما تقوم على وحدة التراث ووحدة المشاعر ووحدة العرف، وكان من أنصار مصطفى كمال في كل آرائه هذه، ومثل مصطفى كمال كان شديد الإعجاب بالحضارة الغربية مبهورًا بمنجزاتها العلمية والفنية والثقافية والأدبية...إلخ، ولم يكن يرى في حضارة الغرب والأخذ بها ما يتعارض إطلاقًا مع الإيمان بالشعب والقومية التركية، فقد دعا مواطنيه إلى إبداع تركيبة متجانسة تمتزج فيها منجزات الحضارة الغربية بروحيات المشرق ومثله السامية، وكان يدعوا إلى التمسك بجوهر الدين وليس بمظهره، وألا يتحول الدين إلى وسيلة لجذب المكاسب الدنيوية، وقد وصف نفسه قائلاً: "أنا محافظ وثوري في آن واحد".

من أهم مؤلفاته كتاب بعنوان "رواية التردد"، والحقيقة أن صفة التردد يمكن أن تلاحظ في طباع أغلب أبطال رواياته، لأنه هو نفسه كان يؤمن بنسبية الحقيقة، ويرفض "مطلقات" أفلاطون أي "نظرية المُثُل" الشهيرة وقد حرص دائما على الموضوعية التامة والحياد وكان ينفر من التزمت وأحادية النظرية وغير ذلك من خصائص الشخص الفج غير الناضج، من مؤلفاته الهامة: "الأزمة النفسية"، و"نحن البشر" و"البرق" و"نحن وحيدون"...إلخ.

***

أورهان ولي قانيق

1950-1914

رائد الشعر الحر في تركيا

في سنة 1936 شرعت مجلة فارليك بنشر قصائد ذات أسلوب جديد مغاير لقوالب الشعر التركي المعروف، أصحاب هذه القصائد عرّفوا شعرهم بعنوان "تيار الغربة أو التغرب"، كان الرائد الحقيقي لهذه الحركة شابًا في الثانية والعشرين من عمره اسمه أورهان ولي قانيق على أنه لم يتفرد في إبداع هذا الضرب الجديد من الشعر بل شاركه فيه صديقاه الحميمان، وزميلاه في الدراسة الثانوية، الشاعران اللذان سيكون لهما فيما بعد شأن كبير مليح جودت أنداي، وأوكتاي رفعت، وقد واصلوا نشر أشعارهم على الرغم من صيحات الاحتجاج وعبارات الانتقاد والسخرية التي وجهها النقاد والجمهور إلى أسلوبهم الجديد ذاك، وتعرضت قصيدة مرثية لأورهان ولي، بشكل خاص إلى الهجوم الأقوى من بين القصائد الأخرى.

في سنة 1941 أصدر الثلاثة أول مجموعة شعرية بعنوان الغريب وقد ضمت عددًا من القصائد التي تقوم على المقطع يطلق عليه في التركيبة اسم (هيجة) ولا تعتمد على الأوزان الشعرية المعروفة كما أنها تغفل القوافي وبقية ضوابط الشعر كالمحسنات البلاغية، لاسيما الاستعارة والمجاز والكناية والطباق والجناس...إلخ، مما يشكل الأحجار الرئيسة في البناء الشعري الكلاسيكي، ومع أنّ حركة الاغتراب هذه لم تكن أولى حركات التجديد في الشعر التركي إذ

سبقتها جماعة ثروة الفنون وجماعة الفجر الآتي وجماعة الأقلام الشابة...إلخ، إلا أن الشعراء المغتربين خالفوا أسلافهم في أنهم أصروا على التجرد من كل قيد يفرض الشاعر من الخارج، وذلك ما سيوضحه هذا المقال.

على غلاف ديوان (الغريب) أدرج اسم أورهان ولي قانيق دون الاسمين الآخرين، كان ذلك نزولاً عند رغبتهما الخاصة على الرغم من إصرار أورهان ولي على كتابة الأسماء الثلاثة على الغلاف، فلقد أراد توكيد ريادته هو لهذه الحركة التجديدية، مع الاعتراف لفضله كشاعر مبدع سيكون لفنه أبعد الأثر في تغيير وجه الشعر التركي كله.

فمن هو أورهان ولي قانيق؟

أورهان ولي، أحد أبناء (ولي توفيق) من موظفي الدولة التركية ولد أورهان في استانبول وممن كان له تأثير في تفتح مواهبه الأدبية، الكاتب المعروف أحمد حمدي تان بنار، الذي كان مدرس الأدب في ثانوية أنقرة، التي أكمل أورهان دراسته فيها، في هذه المدرسة توطدت الصداقة بين أورهان وزميليه التلميذين مليح جودت أنداي وأوكتاي رفعت اللذين سيكون لهما بعد وفاة أورهان شأن كبير في عالم الأدب التركي.

بعد تخرجه في الثانوية، دخل أورهان ولي جامعة استانبول ليدرس الفلسفة في كلية الأدب بها، لكنه لم يستطع مواصلة الدراسة فترك

الجامعة، وبين أعوام 1945-1947 عين مترجما في وزارة التربية بأنقرة لكنّه فصل من الوظيفة بسبب تقلبات مزاجه.

بعد ذلك أصدر مع صديقيه مليح جودت واوكتاي رفعت صحيفة الورقة Yapark التي أثارت اهتمام الجمهور وكسبت ثقته. من الانجازات الهامة لأورهان ولي أشرافه على العدد الخاص بالشعر الذي أصدرته مجلة "الترجمة" في عهد رئاسة عصمت أينونو، فكان هذا العدد بحق حدثا كبيرًا في تاريخ الأدب التركي الحديث.

أدت الحياة المضطربة التي عاشها أورهان ولي إلى إدمانه للشراب فنحل بدنه وساءت صحته، وفي أحد الأيام 14 تشرين الثاني 1950 دهمته جلطة دماغية أفقدته الوعي وفارق الحياة بعد ساعات ولم يكن قد تجاوز السادسة والثلاثين من العمر.

بعد وفاته جُمعت قصائده ونشرت في ديوان واحد ومن ذلك الوقت حتى يومنا الحاضر ظهرت ثلاث وعشرون طبعة من الديوان كان الكثير منها تجاريًا ومحشوًا بالأخطاء، لكن الباحثين يعتمدون على الطبعة التي حققها الكاتب الشهير عاصم بيرجي والطبعة التي أشرفت عليه أيروزان ولي شقيقة الشاعر اللتين تخلوان من الأخطاء والتحريفات إضافة إلى احتوائهما على أغلب قصائد الشعر.

شخصيته

كان أورهان ولي إنسانًا محبوبًا، عُرف بين أصحابه بالطيبة والصفاء وبحلاوة المعشر ورهافة المشاعر، كان شديد الأدب حتى قال عنه صديقه الحميم مليح جودت أنداي: لم أعرف رجلاً مهذبًا مثله.

من جهة ثانية تميزت شخصيته بغرابة الأطوار والتناقضات الصارخة، أحيانًا كان يفاجأ معارفه بمزاج متقلب وبأمور غير متوقعة، فيثير دهشتهم وذهولهم ولا يعرفون كيف يفسرون أفعاله، أو أقواله، فخلف ملامح المرح الطاغية على مسلكه العام، كان يخفي آلاما دفينة لم ينجح أحد في سبر غورها، وتحت مظهر المزاح وضروب الدعابات التي كان بها يؤنس أصدقاءه، كانت تختبئ رصانة واتزان لا يتصف بهما غير الذين حنكتهم التجارب وقتلوا الدهر والحياة درسًا وتمحيصًا، وإزاء هيئة اللامبالاة التي كان يواجه بها الأحداث والناس كان هذا الرجل شاعرًا مرهف الحس عظيم الاهتمام بشؤون المجتمع طويل التفكير بمعضلات الحياة والكون.

وصفه أحد أصدقائه بالصورة التالية:

لم أجد وصفا ينطبق على شخصية أورهان ولي، أشد دقة من قول مولانا جلال الدين الرومي في حق نفسه:

"حين أبدو لكم مهمومًا منكسر الخاطر فأعلموا إنني في أحسن حال. وأن وجدتموني مهدّمًا أئن تحت وطأة الأعباء، فأنا في نفسي قوي كالجبل الراسخ في الأرض، على أنّ بهجة الروح لا تكتمل إلا حين ينفث قلبي آلاف الآهات، فتتردد أصداؤها عبر السموات والآفاق."

أورهان ولي لم يألُ جهدًا في ارتداء ثوب الإنسان الطبيعي الهادئ في حين كان يخفي تحت ذلك المظهر شخصية الدرويش المتشرد والإنسان اللامنتمي، وربما كانت حدة مشاعره وعمق انفعالاته مسئولتين عن هيئة اللامبالاة والغفلة التي وسمت مظهره الخارجي

دائمًا. كان لا يفتأ يترنم بأبيات من الشعر الشعبي الذي يصور حال سجن يوسف في القيود اخترقت غابة أجهل مسالكها ولا أعرف ساعة مغادرة المكان.

على أنّ أورهان ولي كان بالفعل شخصًا بوهيميا مهووسًا بأمور قد لا تهم أحد غيره. كان يحمل بين جنبيه قلب رجل غريب فليس عجيبًا أذا فكر مع صديقيه الشاعرين بإطلاق اسم "الغريب" على أول ديوان يصدرونه، لكن ربما نشأت غرابة أطواره عن رغبته الشديدة في ذيوع اسمه بسرعة بين الناس، ومن يدري فلعلّ شعورًا عميقًا بموته المبكر كان مسيطرًا عليه.

وهو المسؤول عن مزاجه الشاذ وتناقضات أفعاله وربما كانت وفاته قبل بلوغه مرحلة النضج، واستكمال تجارب الحياة مسؤولة أيضًا عن الصورة الشاذة التي تركها عن نفسه، ومع كل هذا وعلى الرغم من كل شيء فقد عاش أورهان ولي حياته بكل حواسه، كان ظامئًا لمباهج العيش توّاقاً لتذوق حلاوة الحياة ومرارتها أيضًا، كان رجل الانفعالات الحادة والأحاسيس القوية التي لا تعرف التوازن ولا الاعتدال، ألم يكن هذا شأن كل فنان حقيقي على مدى العصور؟ أما عن الحب فقد أنصب عشقه على مدينته الحبيبة إلى قلبه أستنبول، لم يعترف في حياته بأيّ عشق آخر، لقد تغنى في أشعاره بمظاهر سحر طبيعتها، بشواطئ بحارها ومنحدرات جبالها، بشموخ أشجارها وطراوة ورودها، أبدأ لم يلتفت إلى تاريخ هذه المدينة العريقة ولا أهتم بمعضلاتها السياسية والاجتماعية، ما كان يلتمسه، ميادين التسلية ومواضع البهجة، المناظر الساحرة، المطاعم النفيسة، المقاهي

الشعبية المزدحمة، الأطعمة اللذيذة، المشروبات المنوعة، الأغاني الشجية والرقصات الجميلة...إلخ، مثل هذا الإنسان لا يتوقع منه أحد أن يثق بالعواطف المثالية، التي تغنى بها الشعراء والفنانون أبدًا كالعشق على سبيل المثال. فالحب عنده مجرد نزوة عابرة تطفأ بلحظات من أحاسيس اللذة الوقتية، أورهان ولي هو صاحب الأبيات ذائعة الصيت في الشعر التركي الحديث:

ماذا يهمها من القنبلة الذرية

أو مؤتمر لندن

في إحدى يديها منقاش

وفي الأخرى مرآة

وعلى الدنيا السلام

تبدو آراء أورهان ولي في هذا الموضوع مقاربة لآراء شاعرنا أبي الطيب المتنبي، أليس هو القائل:

وما الحب إلا غرة وطماعة...يعرض قلب نفسه فيصاب

وأوضح هنا أن الشاعرين" التركي الحديث، والعربي الكلاسيكي يرفضان مثالية المؤمنين بنظرية الحب الأفلاطوني التي ابتدعها أفلاطون، ويحاولان جهدهما، الكشف عن الحقيقة العارية بكل خشونتها ووعورتها وقسوتها.

أورهان ولي كان في مستطاعه النظر إلى نفسه من الخارج وكأنه لا يراها، وإنما يشاهد واحدًا من معارفه كان صاحب قدرة خارقة على الوعي الوجودي والحس العميق بسيرورة الزمان.

يروي صديقه الحميم الشاعر مليح جودت أنداي أنه كان يسايره ذات يوم في أحد الشوارع، وفجأة بدأ أورهان ولي بترديد:

مليح جودت يسير مع أورهان ولي

كان هذا أحد أبيات قصيدة نشرة فيما بعد بعنوان "اكتب إلى أوكتاي" وأوكتاهي رفعت هو صديقهما الشاعر وثالثهما في ديوان "الغريب" . كان أوكتاي حيث كتب أورهان هذه القصيدة في باريس.

ومن أبيات القصيدة ما يلي:

في هذه الأيام مليح وأنا

واقعان في حب فتاة واحدة

لهذا البيت حكاية يرويها مليح جودت في كتابه الممتع "الزمان الجاري والزمان والواقف" يقول: "أعتدنا، أورهان وأنا أن نتوجه بعد العشاء إلى دار فتاة سلبت لب كل منا، وبسبب ارتفاع نافذة دارها كنت مضطرا إلى ارتقاء كتفي أورهان لاحظى بالنظر إليها، وهي تروح وتجي، داخل مسكنها دون أن تدري بوجودنا وبعد أن أشبع من النظر كنت أنزل إلى الأرض وأقدم كتفي لأورهان كي يستمتع هو الآخر بمنظر محبوبتنا. في ليلة من الليالي تسلق أورهان كتفي وكان في العادة إنسانًا متمالكاً لأعصابه، لكنه حالما مده بصره عبر النافذة

همس بارتاك شديد : أنزلني فورًا، وما كاد يحط قدمه على الأرض حتى سحبني من يدي وهو يتمتم لنهرب ذلك أنه بدلا من مشاهدة الفتاة جابهه وجه أبيها الذي صرخ فزعًا متخيلاً وجود لص في المكان.

يواصل مليح جودت سرد حكايته "في ذلك الوقت كنت أقوم بالتدريس في أكاديمية الفنون الجميلة، وبينما كنت أجلس مع أورهان يومًا في أحد المقاهي دخل وزير التعليم القومي "حسن على يوجيل بيك" وتقدم نحونا حال رؤيته لنا بعد جلوسه ألتفت إلي قائلاً:

أراك نحيلا، أأنت عاشق؟

ابتسمت قد أدركت أنه أطلع على قصيدة أورهان ولي "أكتب إلى أوكتاي" ولما أحنى كل منا رأسه دلالة الإيجاب، راح الوزير يدير بصره ما بين وجه كل منا متعجبًا ثم قال:

ويحكما لماذا لا تتقاتلان إذن؟

والحال إن حبنا للفتاة كان مجرد عاطفة رومانتيكية بريئة فلم يكن من داع للقتال.

هذه الحكاية الصغيرة أعتمد عليها مؤلف مسرحية "غريب اسمه أورهان ولي" التي مثلت على "مسرح حربية" في استانبول وقام الممثل الشهير "مشفق كنتر" بدور أورهان ولي فنالت نجاحًا كبيرًا.

إلى أخر أيام حياته بقى أورهان ولي شخصًا مضطربًا لا يعرف طعمًا للاستقرار أو راحة البال، مع أنه نشأ في أسرة حسنة الحال.

أبوه "ولي قانيق" كان أول مدير لدار الإذاعة التركية عند تأسيسها عام 1938 ربما كان إكثاره من شرب الخمور مسؤولاً عن قلقه الشديد وعجزه عن المواظبة في أي عمل عهد إليه.

كان إلى جانب ذلك كله شديد المرح مولعًا بالمزاح والدعابة، لا ينفك باحثًا عن النكتة اللطيفة والفكاهة الحلوة وقلما يدع فرصة لإضحاك من حوله تفلت من يديه.

صديقه "مليح جودت" يضرب أمثالاً كثيرة على هذا الأمر، من ذلك أن أورهان ولي أعتاد حين يودع أصدقاءه على أمل اللقاء بهم ي اليوم التالي أن يلحق حرف التعريف الفرنسي- La Le بلفظة التوديع التركية حين تكون نكرة فمثلاً إذا أراد أن يقول: أسعدت مساء يلحق أو يسبق كلمة "مساء" بحرف التعريف Le وبذلك ينطقها Le masa المارة لو سمعوه يتكلم فلن يفهموا بالطبع لغته، بينما أعتاد أصحابه التكلم بهذه الطريقة فيما بينهم فترة من الزمن التماسا للضحك، وخلقا لأجواء المرح، لكن ليس كل إنسان بقادر على هضم المزاح أو تفهم دوافعه، فما كاد محرر إحدى الصحف الصادرة في مدينة "سامسون" يسمع بأنباء "اللهجة الجديدة" حتى غضب وكانت الغيرة على اللغة من شأنه هو دون غيره من المواطنين وإذا بالتعليق العدائي التالي يظهر في أحد إعداد الصحيفة:

انظروا إلى سخافة هؤلاء الشعراء الجدد، إنهم يضيفون حرفًا فرنسيًا إلى كلمة السلام التركية "مستهينين بكرامة لغتنا، ترى أين هي الحكومة؟ أليس من واجبها إيقاف هذه المهزلة؟".

ومزحة أخرى ينقلها مليح جودت:

في أحد الأيام اعتكفت في غرفتي أثر وعكة صحية أصابتني، فوصل الخبر إلى أورهان ولي الذي حضر يعودني، مضى الوقت علينا هادئا، أنا قرأ الصحيفة اليومية، وهو واقف عند الشباك يحدق في الخارج متأملاً على عادته، فجأة ألتفت إليّ يطلب ورقة، وإذ لم أعرف مراده، قصصت من طرق الجريدة قصاصة صغيرة جدًا وسلمتها إليه، أخذ أورهان الورقة وقسمها إلى قطعتين احتفظ بإحداهما في يده، وسلم الثانية إلي قائلاً: "هذه تكفي" لم يضحك أي منا، فعدت أنا إلى القراءة ورجع هو إلى مكانه يحدق في الفضاء صامتًا".

كان "أورهان ولي" أشد الناس تواضعًا ولطف معشر، شهرته العريضة لم تدر رأسه أبدًا فلم يكن مزهوًا بمواهبه ولا أغتر بذيوع أسمه واحتفال الناس به، كان وديعًا، وقد تمضي الساعات وهو صامت لا ينطق بحرف، أحيانًا كان يتمتم مع نفسه أبيات الشعر التي ترد على خاطره، كان أصدقاؤه يفهمون أطواره ولذلك يتركونه وشأنه على أن ذلك لا يعني أنه كان شخصًا سلبيًا أو منكفئًا على ذاته، بالعكس فقد كان شديد التعلق بأصدقائه لا يعرف العيش بدونهم فكانوا يشاركونه حياتهم اليومية، يسكنون معه في غرفته الواحدة ويتنزهون سوية دائما ويوميًا في المتنزهات والمقاهي والحانات، ويعقدون مجالس الأدب بلا انقطاع.

في أحدى السنوات قدم إلى أنقره شاعر المذهب "الدادائي" Dadaism الفرنسي فيليب سوبو Ph.Soupult كان أورهان ولي

وصديقاه مليح جودت وأوكتاي رفعت يصدرون أنئذ مجلة الورقة yapark ومن الطبيعي أن يسعى شاعر الدادائية للتعرف بهم إذ أن مذهبهم في الشعر قريب من ذلك المذهب. ثم وصلهم منه رجاء بالالتقاء به في مكتب تحرير صحيفة "يابراق" ذاتها، فوقع أورهان ولي وصديقاه في حيرة شديدة، إذ لم يكن للصحيفة مكتب أصلاً. أخيراً استقر رأيهم على تحويل مسكن أورهان ولي إلى مكتب إدارة للصحيفة مؤقتًا. كانت دار أورهان ولي واقعة في حديقة إحدى العمارات ولا تحتوي إلا على غرفة واحدة، ربما كان المنزل الصغير مخصصا في الأصل لبواب العمارة (كان أثاث أورهان ولي لا يزيد عن سرير ومرتبة ومنضدة، أما الغرفة فكانت أشبه بخرابة، فالجدران التي بهت طلاؤها تغمرها الشقوق والثقوب، والأرضية متهرئة الأخشاب، والجو العام للمكان مقبض للنفس فكيف يمكن استقبال شاعر أوروبي معروف فيه؟ يكمل "مليح جودت أنداي" الحكاية قائلاً:

"استدعينا صباغًا فطلى الجدران بلون جميل بعد أن أتم تنظيفها، وفوق جميع الشقوق والحفر علقنا أعداد ملونة من صحيفة "يابراق" واستعرنا بعض الأرائك والكراسي والسجاد واللوحات الفنية من الأصحاب والمعارف وأعددنا الشراب "العرق التركي" وجلبنا الأقداح والصحون وأشترينا الطعام المناسب. استغرق العمل كله مدة يومين، مسألة واحدة ظلت تثير قلقنا، فقد كنا ننتظر حضور صديقنا الشاعر "جاهد صدقي"، لكننا لم نستطع تحذيره مسبقًا من أبداء شديد دهشته حين يرى التغيرات التي طرأت على الغرفة.

كان لقلقنا ما يبرره، فهذه الغرفة كانت مسكناً لجاهد صدقي قبل أن يستأجرها أورهان ولي، ولو صرخ متعجبا عند دخوله أمام الزائر الغريب، فسوف يفتضح أمرنا وتذهب جهودنا عبثًا. أخيرًا حضر الشاعر الفرنسي فأبدى إعجابه الشديد بمكتبنا الصحفي، وبدأنا الجلسة بتقديم الشراب مع الطعام فسرّ "سوبو" سرورًا عظيمًا بمذاق العرق وأعجب بالطعام، فنصحناه بأن يتمهل في الأكل كي لا تتأثر معدته بكمية الكحول التي سيشربها، ثم قدم جاهد صدقي، وكان أحدنا واقفا على الباب، فهمس في أذنه "تظاهر بعدم الملاحظة" وهكذا تلافينا الموقف وانتهى الإشكال.

بعد ذلك جاء دور الشعر وكنا قد ترجمنا مسبقًا عددًا من قصائدنا إلى الفرنسية، فشرع صديقنا الكاتب "صباح الدين أيوب أوغلو" بتلاوتها بصوته المؤثر، فأبدى سوبوا إعجابه بها. فجأة وقف أورهان ولي عند الباب وراح يلقي قصيدة غريبة لم نسمعها منه قبلا، وهي التالية:

صاحب الخان الحقير شاكر أفندي

مات ليلة البارحة

في معطفه مات ... ذهب إلى هناك

مات .. ذهب مرتديا معطفه..

بعدها تحول إلى إلقاء قصيدة لفيليب سوبو، كان قد ترجمها بنفسه إلى التركية وقد فوجئنا بذلك فرحنا نضحك، لكن سوبو الذي لم يفهم

موضع النكتة راح ينقل بصره بيننا متعجبًا، ولما واضح له "صباح الدين أيوب أوغلو" الموضوع، التفت إلى أورهان ولي ورجاه أن يعيد تلاوة القصيدة، ولما انتهى هذا من الإلقاء، أبدى سوبو إعجابه بترجمة أورهان ولي، على الرغم من أنه لا يعرف التركية، وعلّق قائلاً: "إن ترجمتك تبدو مماثلة تمامًا لإيقاعات قصيدتي".

ثم انتقلنا إلى موضوع ترجمة الشعر من لغة إلى أخرى، وهل ذلك ممكن أم لا؟

قال فيليب سوبو "الشعر في شكله لفظي، لكنه أيضًا يمس جوهر الأشياء وليس مظهرها حسب" من ثم فإنّ ترجمته من لغة أخرى ممكنة ومفيدة وضرورية، الشعر في رأيي شبيه بالموسيقى، فكلاهما لغة عالمية بإمكانها أن تحقق وحدة البشر، والشعر بشكل خاص هو الوسيلة الأشد تأثيرًا في خلق روح التفاهم بين الشعوب.

حين غادر سوبو الأراضي التركية صرح بما يلي: "بحثت عن الشعر في كل مكان، فعثرت عليه في تركيا"، أما مليح جودت أنداي الذي نقل إلينا تفاصيل الحكاية فقد ختمها بالتعليق التالي:

تمنيت أن تكون بلدية أنقرة قد فكرت بتحويل دار أورهان ولي المشار إليها إلى متحف صغير تعلق على بابه لافتة تقول:

في هذا المسكن عاش لفترة قصيرة كل من الشاعرين جاهد صدقي وأورهان ولي بالتعاقب، وفيه أقام أورهان ولي بمشاركة محرري صحيفة يابراق الأدبية حفلة صغيرة تكريما لشاعر "مذهب الدادائية الفرنسي" المعروف فيليب سوبو وحضرها عدد من شعراء تركيا.

في 14 تشرين الثاني 1950 أصيب أورهان ولي، فيما يظن، بجلطة دماغية أفقدته الوعي وتوفى بعد نقله إلى المستشفى بساعات، وتم دفنه في روميلي حصار باستانبول.

آراؤه وآثاره

مثلما كان أورهان ولي قانيك قليل الكلام فإنه كان لا يميل إلى كتابة الرسائل المطولة حتى لو كانت موجهة إلى أقرب أصدقائه، كان يكتفي بكتابة رؤوس أقلام تحتوي على المعلومات التي يريد نقلها إليهم.

من أهم الإنجازات الأدبية التي حققها أورهان ولي إشرافه على العدد الخاص بالشعر الذي أصدرته مجلة "الترجمة" في أواخر الأربعينيات، وقد احتل هذا العدد موقعًا هامًا في تاريخ الأدب التركي إذ احتوى على أول مجموعة شرعية ثرية من الشعر الغربي المترجم إلى التركية ترجمة ممتازة وكان قد أنيط تنظيم العدد والإشراف على طبعه إلى أورهان ولي، فأبدى اهتماما عظيمًا بعمله هذا كي تحافظ الترجمة على روحية القصائد وجوهرها، ولا تكتفي بمجرد الترجمة الحرفية التي تفقد الشعر قيمته، ومن أورهان ولي انتقلت عدوى الحماس الشديد للعمل إلى زملائه من الشعراء المساهمين في قصائد ذلك العدد الخاص.

كان المشرف الأعلى على الآثار المترجمة التي نشرت في ذلك العدد من مجلة "الترجمة" الكاتب الشهير صباح الدين أيوب أوغلو الذي

كان شاعرًا في الوقت عينه، ومن أفضل الشواهد على قدراته الشعرية رسائله التي كان يبعثها إلى أخوته من باريس، ثم أنّه كان متمكنًا من اللغة الفرنسية تمكنًا عظيمًا، وربما كان الفضل الأول في شدة عناية أورهان ولي بالألفاظ عائدًا إلى أيوب أوغلو، فعن طريقه عرف مدى أهمية الكلمات في الشعر بخاصة، وفي الأدب عمومًا. كمثال على بعض إنجازات "أيوب أوغلو" في هذا الميدان اشتقاقه من لفظة guqel أي "جميل"، تعبير guqelim "حبيبتي الحلوة" وكان يستبدلها بلفظة "كزيال" كلما وردت في الكلام، وبذلك استطاع إشاعة ذلك التعبير حتى في اللغة التركية الدارجة.

في حياة أورهان ولي كان الشعر أهم مسألة في الوجود، كان كيانه مرتبطًا بهذا الفن، من أقواله: "لم يكن الشعر الجديد الذي كتبته مجرد بدعة أبغى بها نيل الشهر أو إشاعة البلبلة في الساحة الأدبية، فليس من اليسير علىّ نظم قصيدة جديدة، وقلما يزيد عدد القصائد لتي اكتبها في العام الواحد على الأربع".

أعتقد أورهان ولي أن الوزن والقافية غير ضروريين في الشعر، فالمهم هو اللغة وليس القيود الإضافية التي تفرض على الشعر من الخارج. يقول "حين نشير إلى أهمية الألفاظ في الشعر،فليس المقصود التشديد على جماليتها أو عذوبتها، وإنما يراد بذلك تجنب القوالب التي تهرأت بطول الاستعمال، فاستنفذت جدتها وفقدت ايحائيتها وتأثيرها. إضافة إلى ما سبق فإن لغة الشعر يجب أن تبعد عن الصنعة وعن غريب الألفاظ ومستبهم المعاني، إذ ليست وظيفة الشاعر استثارة إعجاب الناس بسعة معلوماته أو بتخصصه الأدبي

وإنما هو في حاجة إلى إيصال مراميه بأسرع ما يمكن إلى عقول سامعيه وقلوبهم وهذا لا يتم إلا عن طريق استخدام لغة الكلام اليومي مع ضرورة الاستفادة من التراث الأدبي لكن يجب ألا يكون ذلك على حساب عفوية القصيدة وصفاء أسلوبها، والشاعر مضطر أيضًا أن يكون ذا اطلاع حسن على فولكلور الشعب وأدبه القديم من أغان وأساطير وتمثيليات وأمثال وأشعار... إلخ، وأهم من ذلك كله يتوجب على الشاعر الحذر الشديد من الانسياق وراء أساليب القدماء في التلاعب بالألفاظ والتفنن في استخدام المحسنات البديعية، والأساليب البلاغية كالإكثار من الاستعارات المعقدة والتشبيهات المملولة والكتابات الغامضة والجناسات المتكلفة...إلخ، فهذه الأساليب الأدبية لم تعد تناسب عصرنا الحاضر القائم على حضارة مخالفة تماما للحضارات السابقة لأنه عصر مغادرة الأرض العتيقة إلى الفضاء الخارجي، عصر التكنولوجيا التي قهرت الطبيعة، بفهمها لأسرارها وقوانينها، والإنسان المعاصر غير مستعد للنظر أو الإصغاء إلى أي إنتاج فني متخلف عن روح العصر، والفنان لو تغاضى أو أهمل هذه المسألة فلن يلتفت إلى إنتاجه أحد، من ثم فهو ملزم أن يتفهم عصره الذي يعيش فيه، وأن يكتب لأبنائه، وليس للأموات الذين عاشوا بعصور أخرى، حتى لو كان شديد الإعجاب والتقدير للتراث العظيم الذي خلفوه.

يرى أورهان ولي أنّ الإنسان بفطرته يستشعر جمال الطبيعة، ويتأثر ويفتتن به، حتى قبل أن يطّلع على إنتاجات الفنانين. والفنان، شأنه شأن أي إنسان آخر مندمج بالطبيعة لأنه بالفعل جزء منها، ما على الشاعر إذن ألا أن يُحسن التعبير عن وعيه بالصلة المتأصلة بينه

وبين الطبيعة، ولن يتمكن من إجادة التعبير ما لم يستخدم لذلك أسلوبًا سلسًا خاليًا من التكلف بكل أشكاله كي يكون إنتاجه مقنعًا وذا أثر في النفوس.

هكذا يشرح أورهان ولي علاقة الفنان بالطبيعة راسمًا صورة صادقة للروابط الخفية التي توصل ما بين قلب الإنسان ومظاهر الطبيعة، من جانب آخر يعلن بأن مهمة الشاعر لا تقتصر على تأمل جمال الكون والتعبير عنه حسب وإنما هو في حاجة إلى تذوق متع الحياة ولذاتها بكل أحاسيسه رافضًا مثالية المتصوفة وسلبيتهم داعيا الفنان إلى الفعل، وليس مجرد الانفعال، وبهذا يقترب من الواقعيين ومن المدارس الفنية الحديثة.

من الآراء الخاصة التي أذاعها أورهان ولي أن المجاز المعقد، والاستعارة البعيدة يقتلان عفوية القصيدة بل يلغيان الشعر ذاته، ولما كان الشعر العربي الذي اقتدى به الشعر الفارسي ومن بعدهما الشعر التركي، يقوم على وحدة البيت فإنّ أورهان ولي خرج عن هذا العرف، مفضلاً الأعراف الغربية التي تؤكد على وحدة القصيدة، وليس وحدة البيت ومن رأيه أن القصيدة ينبغي أن تدور حول معنى موحد وفكرة محددة ولا يجوز أن يؤلف لمجرد ترتيب إيقاعات جميلة ناتجة عن علم الشاعر بتأثيرات أصوات الحروف والألفاظ في أذان السامعين، من ناحية أخرى يفرّق أورهان ولي بين مصطلح المعنى ومصطلح الفكر ويقصد بذلك أنّ الشاعر غير ملزم بامتلاك أيديولوجيا معينة.

بالعكس فالتزامه هذا قد يقضي على شاعريته على حد تعبيره، في هذا يقترب من نظرية الفن للفن ويقف في الجبهة المعارضة لمواقف الشاعر التقدمي، ناظم حكمت المعاصر له، وآراء أورهان ولي هذه تقوم على التأكيد على فردية الشاعر متأثراً بالمدارس الفنية الغربية الحديثة، لاسيما الرمزية والبارناسية اللتين انعكستا بشكل خاص في شعر الشاعر التركي المعاصر له أحمد هاشم الألوسي، وكان أحمد هاشم أشد الأدباء حماسًا في الدفاع عن تلك المدارس الغربية التي تصب كلها تقريبًا في مذهب الفن للفن، مقابل المذهب الواقعي الذي يطالب الفنان أن يضع فنه في خدمة المجتمع بشكل مباشر أو غير مباشر.

على أن أورهان ولي لم يكن ممن يجهلون أصول الفن وقوانينه، بالعكس فقد كان أشد الشعراء علماً بالجانب التخصصي للشعر، وكان قد تعمق بدراسة الشعر الديواني التركي الكلاسيكي والإيراني أيضًا، وكان قد درس اللغة الفارسية وترجم منها إلى التركية رباعيات عمر الخيام وكثيرًا من أشعار مولانا جلال الدين الرومي، وهو أدرى من غيره بخطورة الخطوة التي خطاها في عالم الأدب: ماذا بني. وماذا هدم؟

أما إتقانه للغة الفرنسية فقد أعانه على ترجمة الشعر الفرنسي إلى اللغة التركية، ترجمة قل نظيرها في الأدب التركي الحديث حتى عدت من الآثار الخالدة فيه، ومن أفضل مؤلفاته المترجمة عن الفرنسية "حكايات لافونتين" و"مختارات من الشعر الفرنسي".

لأورهان ولي، عدا عن كل ذلك، مقالات وبحوث نثرية، وانصبت عنايته في منشوراته على الموضوع وليس على الأسلوب. وبعد وفاته جمعت مقالاته المنشورة في الصحف ونشرت في مجلد واحد بعنوان كتابات نثرية لأورهان ولي، وله أيضًا كتاب بعنوان "حكايات الخوجه نصر الدين".

مختارات من قصيدة عنوانها "لكم":

لكم يا إخوتي البشر، كل شيء لكم

الليل والنهار لكم، في النهار أشعة الشمس

وفي الليل ضوء القمر، والأصفر الوردي...لكم

الصواري المتدلية في الميناء

أسماء الشهور والأيام وأصباغ الزوارق لكم

لكم العرق المتصبب من الجباه

والرصاصات التي أطلقت في الجبهات

لكم الأضرحة وشواهد القبور

السجون والأصفاد وأحكام الإعدام

كلها لكم....كل شي لكم

*** ***

نغار هانم- الشاعرة التركية المعاصرة الأولى

نغار هانم Nigar بنت عثمان باشا وأمينة هانم، المولودة عام 1856 والمتوفاة عام 1918،هي أول امرأة عثمانية وجدت في نفسها الشجاعة الكافية لتقتحم ميدان الشعر الحديث الذي كان وقتئذ حكراً على الرجال من الأدباء، إذ أنّ المرأة، لاسيما في مجتمع جاحد كالمجتمع العثماني ايام احتضار الإمبراطورية العثمانية المريضة، قلما كانت تتجاسر على إقحام نفسها في معارك وتحديات كتلك التي تحتاج إليها أية عملية تجديد جذرية.

تفجر الشعر في نفس نغار المولودة في استنبول إثر وفاة أخيها في حادث مؤلم، فكتبت قصيدتها الأولى في رثائه ولم تكن قد تجاوزت الثانية عشرة من عمرها.

تعلمت حفظ الشعر وتذوقه من والدتها التي كانت تعاني من المرض فلا تجد السولى إلا في ترديد عشرات القصائد التي كانت تحفظها عن ظهر قلب. تروي نغار هانم عن نفسها كيف كانت في صباها المبكر تجلس غلى مكتبها ساعات طوال، وتحفظ الشعر حتى الصباح أحياناً، حتى اعتادت السهر وأصيبت بالأرق المزمن المرضي. في البداية كانت تختار قصائد الشعراء العثمانيين الكلاسيكيين الذين يطلق عليهم الترك إسم "شعراء الديوان"، وكان أحبهم إلى قلبها "فضولي"، صاحب الميول الصوفية. كذلك كانت شديدة الإعجاب بالشاعر نديم المتوفى في استنبول عام 1730، وكانت تحب في شعره نبرة المرح وروح التفاؤل، وتعتز بشعره مثلما شغفت بشعر

فضولي 1، على الرغم من الفارق الكبير بين شخصيتي الشاعرين وفنهما.

منذ طفولتها برزت شخصيتها القوية، فلم تكن تنساق وراء من حولها، بل تعمد إلى اتخاذ وجهات نظر خاصة بها في كل شأن من شؤون الدنيا. وربما كان ذلك أحد أسباب فشل زيجاتها، وقد تزوجت أكثر من مرة، لكن الزيجتين كانتا أقرب إلى الفشل، وقد عكست أشعارها الحزينة مشاعر الخيبة والألم التي ظلت تعانيها طوال حياتها، على الرغم من جو الأبهة الذي احيطت به في حياتها الخاصة.

كانت مطلّعة اطلاعا واسعاً على الأدب الفرنسي الذي اعتادت أن تقرأه بالفرنسية فقط، وإلى جانب ذلك كانت تحسن اللغتين العربية والفارسية، إضافة إلى التركية لغتها الأم. امتدت ثقافتها إلى أغلب فروع المعرفة من أدب وفن ومكتشفات وفلسفة وتاريخ وغيرها، وكان لها إطلاع خاص على الموسيقى والغناء الشرقي والغربي في آن واحد.

1.فضولي، شاعر تركي كان يقيم في كربلاء حيناً وفي النجف (الكوفة) حيناً آخر، ولما احتل سليمان القانوني بغداد سنة 1535 وجه إليه فضولي رسالة استرحام، فأمر السلطان بتخصيص راتب تقاعدي له. توفي في وباء اجتاح العراق عام 1556.

أمّا عن مواهبها الأدبية وكفاءاتها العقلية فقد نافست بها اشهر مثقفي عصرها من ترك وأوروبيين عن طريق مؤلفاتها من جهة، وبواسطة الاجتماعات الاسبوعية الثقافية التي كانت تعقدها في قصرها الواقع بضاحية نيشانتاش الفخمة في استنبول شتاء، وفي فيلتها المطلة على البوسفور بضاحية رويللي حصار الشاعرية صيفاً. وكان يشارك في صالونها الأدبي الذي يضاهي صالونات اريس في القرن الثامن عشر الأمراء العثمانيون بما فيهم السلطان نفسه، إضافة إلى مشهوري المفكرين والأدباء والفنانين من أتراك وأوروبيين. ومن أشهر زوارها الفرنسيين، الكاتبان، بييرلوتي، وبول بورجيه، ومن صديقاتها الشهيرات، ملكة روانيا وقتئذ الكاتبة كارمين سلفا.
واصبحت الصور الفوتوغرافية لتلك اللقاءات، ذكرى حية للأجواء الأدبية في ذلك العصر بتركيا، ولم تكن تكتفي باستقبال الضيوف في بيتها، بل كانت ترد لهم الزيارات، لاسيما من الأمراء العثمانيين.

بلغ من شهرة نغار هانم أنّ عدداً من الصحف الأوروبية كانت تحرص على نشر أشعارها مزينة بصورها الشخصية، كما اهتم الموسيقيون العثمانيون بأشعارها ولحّنوا قسماً منها ليغنيها كبار مطربي ذلك العصر، وقد لحّن الموسيقار جميل الطنبوري بيتيها الشهيرين:

ليس ثمة من يصغي لصرخة استغاثتي

ولا أحد بقادر على أنقاذي من أنّة قلبي

تميّز شعرها بالغنائية، وطغى عليه جو شفاف من الحزن الطبيعي، وكانت تكتب على سجيتها لأنّها تنفر من الصنعة والتكلف، ومع ذلك فقد كانت التقاليد البالية تخنق مشاعرها العميقة، فتضطر إلى كبح جماح قلمها لئلا يكشف الانطلاق الحر عن كل أحاسيسها.

في حياتها الأدبية، كانت تنشر انتاجها تحت اسم مستعار في مجلة ثروة الفنون، وكانت شديدة الاعجاب، مثل متنوري عصرها بالشاعر الحر توفيق فكرت المتوفى في عام 1915، ورئيس جماعة ثروة الفن ,وممن كان لشعره تأثير عليها الشاعر الشهير عبد الحق حامد(1852-1937) والشاعر المجدد جناب شهاب الدين (1870-1934). كل هؤلاء الشعراء معاصرون لها ولكنهم كانوا أعظم موهبة منها وأكثر شهرة. ومثل كل مواطن تركي، كانت معجبة بشخصية الشاعر الكبير نامق كمال (1840- 1888) الملار ذكره وبآثاره الأدبية المنوعة.

أهم آثارها

ديوان الآهات بجزئين 1890

نيران 1896

ألحان الوطن 1896

رسائل الحب "نثر" 1901

قصائد مترجمة عن الشعر الغربي

يومياتها في عشرين مجلدٍ نشر بعضها سنة 1959، إذ كانت قد أوصت إلا تنشر اليوميات إلا بعد مرور نصف قرن على وفاتها.

***

الروائي التركي الشهير كمال طاهر

1910 - 1973

(كم أتمنى أن تنشر إحدى رواياتك يا عزيزي كمال كي يعرف الناس أيّة آثار عظيمة يمكن أن يبدعها قلمك)

ناظم حكمت 1949

لم يعرف تاريخ الثقافة التركية اختلافًا بين الدارسين، حول أي من الكُتّاب، مشابهًا للاختلاف الذي احتدمت نيرانه، حول كمال طاهر وفنه، فقد تباينتْ وجهاتُ النظر حول هذا الكاتب من أقصى التقدير والحب، وصولاً إلى أقصى الانتقاد والكره، واستمر الجدال بشأنه منذ أواسط القرن العشرين حتى وقتنا الحالي، والنقاد مازالوا حتى اليوم يقفون منه ما بين واحد يرفعه إلى عنان السماء كأحد أعظم ما أبدعته العبقرية الأدبية، وآخر يهبط به إلى مرتبة أضعف الكتاب مطلقًا مسبغاً عليه صفات الرجعية والجمود بل وصل الأمر ببعضهم إلى وصفه بخائن الوطن.

أما الحقيقة فتتلخص، بسحب رأي الأديب "خالد رفيق" في أن كمال طاهر لا يمكن حصره ضمن أي قالب أو وصف من الأوصاف الجاهزة، فلا يجوز أن ينعت بالرجعي أو التقدمي، ولا باليساري أو

اليميني، وهو ككاتب تركي، لا يُعد كماليًا جمهوريًا ولا عثمانيًا إمبراطوري النزعة، إنما الأصح أن نرى فيه كاتبًا تفرّد من دون الكتاب الأتراك، بالدعوة إلى ضرورة التلاؤم والتصالح ما بين التفاهم التي ظلَّ المثقفون الأتراك يتجادلون ويتناحرون بسببها منذ قيام التنظيمات "إعلان خط همايون 1839" على عهد السلطان العثماني عبد المجيد، حتى يومنا هذا.

إنه مثقف يمتلك شعورًا عاليًا بالمسئولية إزاء أبناء وطنه، وكان يسعى لإيجاد صيغ مصالحة ولإقامة جسور تفاهم بين أصحاب الاتجاهات المتناقضة التي تفرّق بين أبناء وطنه. ومن دراساته المعمقة لتاريخ بلاده، وبحثه في الأسس الاقتصادية والسياسية والثقافية التي قام عليها ذلك التاريخ، استطاع استخلاص الحلول العادلة وتقديمها لمواطنيه على هيئة روايات تاريخية متأثرًا في ذلك بالكتّاب الغربيين والشرقيين لاسيما بلزاك وتولستوي، ومن رأيه أن شخصية الفرد التركي لا يجوز النظر إليها بمعزل عن الظروف العامة التي تخضع لها، كان الدرس العظيم الذي أراد تلقينه لمواطنيه يتلخص في أن الحقيقة ليستْ شيئًا مطلقًا وإنما تخضع للتغير بحسب الزمان والمكان، أي إنها نسبية.

ولد كمال طاهر في استانبول سنة 1910، كان جدهُ لأمهه من أبناء قرية تابعة لبلدة "شبين قرة حصار"، وحارب في الجيش التركي باليمن، وتوفى هناك، ولم تتزوج أرملته "جدة كمال طاهر" مرةً أخرى كي تتفرغ لتربية أبنائها وبناتها، ومازال أحفاد هؤلاء، يقيمون

في تلك القرية حتى اليوم مع أن عددًا منهم هاجر إلى استانبول طلبًا للعمل.

أما طاهر بيك "والد كمال طاهر" فكان ضابطًا في البحرية التركية، ثم دخل في حاشية السلطان عبد الحميد الثاني، وفي سنة1908 أحيل على التقاعد وهو برتبة "يوزباشي"، ثم أعيد للخدمة العسكرية عند قيام حرب البلقان، ليتم خدمته ويحال إلى التقاعد، ومرة ثالثة استدعى للخدمة عند اندلاع الحرب العالمية الأولى لكنه أصيب بجرح بليغ، فنقل إلى عمل إداري في الجيش.

هكذا لبث الضابط طاهر بيك وأسرته المكونة منه ومن زوجته "نورية هانم" وولديه كمال ونوري، يتنقلون من بلد إلى آخر طيلة تلك السنوات الصعبة بحسب وظيفة الوالد، مما منع الصغير كمال وشقيقه من الشعور بنعمة الاستقرار والطمأنينة فضلاً عن اضطرارهما إلى التنقل بين مدارس تلك المدن والنواحي.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أحيل طاهر بيك على التقاعد، وفي سنة 1926 توفيت زوجتُه نورية هانم، فتزوج بعدها مما أجبر الصبي كمال أن يقطع دراسته كي يعيل نفسه، فاشتغل كاتبًا لدى أحد المحامين، ثم حارسًا في مؤسسة للفحم في منطقة "زونكول داغ"، وأخيرًا اتجه إلى العمل الصحفي، حيث أصبح فيما بين 1930 – 1933 محررًا في صحف "الوقت" و"الخبر" و"البريد الأخير". وكان يقوم بأعمال الكتابة والترجمة وتبويب الصحيفة...إلخ، وفي سنة 1933 نشر طائفةً من قصائده في الصحف. في عام 1935

عُين رئيسًا لتحرير مجلة "الكاريكاتور" ثم مجلة "سبعة أيام" إضافةً إلى جرائد "قره قوز" و"الفجر".

في سنة 1929 قُيض لكمال طاهر أن يطلع على شعر ناظم حكمت ويصغى إليه شخصيًا وهو يتلو قصائده على الجماهير، يقول كمال طاهر واصفًا الحادثة:

"في تلك الأيام كانت الندوات الأدبية تعقد داخل "بارك غولهانه"، ومرةً حضرتُ إحداها مع مجموعة من أصحابي، فأعلن الشاعر بيامي صفا Peyami Safa رئيس الندوة اسم ناظم حكمت، واصفًا إياه بالشاعر الكبير، ثم شرع ناظم بإلقاء أشعاره، كنتُ أنا وبقية زملائي نعد أنفسنا شعراء، وكنا واقعين تحت تأثير الشاعر الرمزي يحيي كمال بيات لي، ومثله كنا معجبين بالشعراء الفرنسيين البارناسيين والرمزيين مثل بودلير وفيرلين، لكن صوت ناظم المدوي الهادر ما كاد يطرق آذاننا، حتى شعر كل منا بأن الدماء تزمجر في رأسه وأن إحساسًا غريبًا ينتابه، ورحنا نصغى للقصائد الرائعة وكان ذهولنا عظيمًا إذ لم يكن لنا عهد بهذا النوع الجميل من الشعر، وبعد مغادرتنا المتنزه مضينا نستعيد الأبيات المؤثرة، ولشدة انهماكنا وحماسنا لها كدنا نسقط تحت عجلات تراموای كان يمر بجانبنا!!".

وفي عام 1934 أعدّ سلسلة مقالات حول الأناضول ثم نشرها في إحدى الصحف، كذلك نشر عددًا من القصائد ذات الطابع الاجتماعي وكان بذيلها باسم مستعار، كان أغلب المثقفين متأثرين بالأفكار الاشتراكية أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية، وكان كمال طاهر

من ضمنهم، وكانت الحكومة التركية تطارد الذين يجاهرون بتلك الأفكار، إذ رأت فيها خطرًا على توجهاتها الرأسمالية، وكان ناظم حكمت في رأس قائمة المغضوب عليهم، فاتخذت السلطات التركية ضده مختلف الإجراءات القانونية، وظلت العقوبات تلاحقه فلا يخرج من سجن إلا ليدخل غيره! لقد جمعت المبادئ المتقاربة والمصير المشترك بين ناظم حكمت وكمال طاهر وتوثقتْ بينهما عرى صداقة حميمة لم تعطلهما غير وفاة ناظم حكمت سنة 1963 وتعرّض كمال طاهر مثل صديقه لملاحقات الشرطة وتعرضتْ داره للتفتيش سنة 1938 ثم صدر الحكم على كل منهما بالسجن مدة خمسة عشر عامًا بتهمة التحريض على العصيان في القوات المسلحة، وقد صدر الحكم أساسًا في عهد مصطفى كمال أتاتورك.

وسيق كل منهما إلى السجن حيث لبثا فيه حتى عام 1950 وكانا يُنقلان من سجن لآخر في المدن النائية، ومن ضمنها سجن جوروم وسجن ملطية...إلخ، لكن السجن لم يوقف نشاطهما الأدبي، فكان كمال طاهر يرسل أقاصيصه لتنشر في الصحف بأسماء مستعارة.

حين صدر الحكم على كمال طاهر بالسجن خمسة عشر عامًا، لم يكن قد مضى على زواجه غير سنة واحدة، فطلبتْ زوجته الطلاق وحصلت عليه.

بعد دخوله السجن طفق كمال طاهر بتدوين خواطره ويومياته، وعند انتهاء مدة السجن تجمع لديه عددٌ ضخم من تلك اليوميات وكان قد أطلق عليها اسم "الدفتر الأصفر".

ألقي ناظم حكمت وكمال طاهر في سجن واحد أول الأمر وامتد ذلك إلى ستة عشر شهرًا، فشرعا بكتابة رواية مشتركة أنجزا منها مائة صفحة وأطلقا عليها عنوان "ما قبل التاريخ" لكن صدور الأمر بفصل السجينين عن بعضهما بعد ذلك أدى إلى ترك المشروع ناقصًا، ومذ ذلك اليوم شرع السجينان بتبادل الرسائل بانتظام، مع تبادل الهدايا والأموال أيضًا كلما وجدا إلى ذلك سبيلاً.

وعن طريق رسائلهما أمكن إلقاء الأضواء على حياة الكاتبين أثناء تلك الفترة. كتب ناظم حكمت مرةً إلى صديقه ما يلي : "كن على ثقة يا عزيزي كمال بأني على استعداد لبذل كل شيء في سبيل التراسل مع رجل عظيم مثلك"، وفي رسائلهما كان كل منهما ينقل إلى صاحبه أخبار مطالعاته ومؤلفاته ومنشوراته في الصحف والمجلات ويتبادلان الأفكار والآراء الثقافية والأدبية.

من الكتب التي ألفها كمال طاهر في فترة سجنه مجموعته القصصية المعنونة "سكان البحيرة"، ونشرها في جريدة "الفجر" تحت الاسم المستعار "جمال الدين ماهر"، وقبل ظهور الكتاب المسلسل بدأت الجريدة بنشر الإعلانات التي تبشر القراء بظهوره، ومما ورد في إحدى تلك الإعلانات ما يلي : "إن كتاب "سكان البحيرة" الذي يحتوي على أربع قصص مطولة سيكون خير رد على الذين ينددون بخلو الساحة الثقافية في تركيا من أي أدب جديد، إنّ جريدتنا لتفخر بتقديم هذه القصص الممتعة لقرائها وستكون أفضل جواب على أولئك المتشككين"، على أن ناشر القصص اضطر إلى إجراء بعض التعديلات عليها نزولاً عند أوامر قلم الرقابة.

نستدل على ذلك من جملة وردتْ في رسالة من ناظم إلى صديقه كمال "لقد شوهوا كتابك يا عزيزي كمال"، ثم أضاف وكأنه يعزيه "كم أعجبتُ بكتابك، إنها أجمل أربع قصص في الأدب التركي كله".

بين أعوام 1941- 1944 وأثناء إقامة كمال طاهر في سجن "ملطية" جمع عشرات الملاحظات ورؤوس الأقلام، وسوف تكون كلها مادة ثرية لقصصه التالية مثل "الشيخ عثمان" و "التلغرافجي عبد الرحيم"، هي قصص تحكي أو تصور حياة المسجونين والمجرمين وتغوص في خفايا نفسياتهم، دون أن ينسى الكاتب تنبيههم إلى أخطائهم بأسلوب يفيض عطفًا وودًا، لكنه لم يكتف بانتقاد المسجونين، بل تعداه إلى نقد المشرفين على إدارة السجون.

في سجن "ملطية" تمت خطوبته إلى بنت أحد عمال هذه البلدة، وفي سنة 1944 نُقل إلى سجن آخر اجتمع فيه بأخيه "نوري" الذي قُبض عليه وأودع السجن ذاته.

إن هذه التفاصيل الخاصة عن حياة كمال طاهر وردت في صفحات روايته "أهل المدينة الحرة" التي كانت سجلاً لسيرته الشخصية، أما إذا شئنا التعرف على شخصية كمال طاهر، بحسب رأيه هو فيها، فعلينا مقابلة "مراد" بطل روايته "قانون الذئب" فهو يمثل شخصية المؤلف نفسه.

في عام 1950 صدر قرار العفو العام فأُطلق سراح عدد كبير من السجناء السياسيين وبينهم ناظم حكمت وكمال طاهر وشقيقه نوري، وكان كمال طاهر قد أكمل ثلاث عشرة سنة في السجن لكنه خرج

وهو يحمل أربعة آلاف صفحة من اليوميات التي ستكون مادة رواياته الكبيرة القادمة، واستقر في استانبول، وكان على زوجته الوفية أن تشارك في إعالة الأسرة فاشتغلت خياطة في حين انصرف هو إلى الكتابة فنشر دراسات اقتصادية مترجمة عن الفرنسية نالت إعجاب القراء ومنهم صديقه ناظم حكمت الذي أثني على مباحثه أشد الثناء، وشجعه على مواصلة ذلك الاتجاه، كذلك صدرتْ له في هذه الفترة روايات مسلسلة تحت أسماء مستعارة منها "بلاج الشعب" و"حيوان يدعى القلب" ثم صدرت روايته الأولى باسمه الصريح وكان عنوانها: "الملفة الصماء".

وفي عام 1957 أشترك مع الكاتب الشهير عزيز نسين في تأسيس دار للنشر باسم "منشورات الفكر" وشرعا بنشر مؤلفاتهما فيها، فصدرتْ رواية كمال طاهر "قُطعت سُبُل الرحمة"، وكان ظهورها موافقًا لصدور رواية الكاتب الشهير "بشار كمال"، "محمد النحيل" التي أثارتْ ضجة كبيرة، بين قراء إحدى المجلات ففاز كمال طاهر بلقب "أحب الروائيين إلى قلوب القراء".

وفي عام 1968 حصل على "جائزة يونس نادي" وجائزة مجمع اللغة التركية للرواية بعد صدور روايته الكبيرة "دولتْ آنّه" وتعني بالعربية" الأم دولت".

*** ***

شخصيته

عُرف كمال طاهر بالطيبة وصفاء القلب والتسامح الشديد وتميّز بالقدرة الهائلة على العمل بصبر ومثابرة، وكان إلى ذلك إنسانًا رصينًا مهذبًا محبًا لجميع الناس، طاهرًا مثل أسمه لا يُحسُّ احتقارًا لصغير، ولا حسدًا لكبير، تدفعه أبدًا رغبةٌ عميقة في تقديم العون لكل من يحتاج إليه، كان يمتلك قلبًا كالذهب، وقد جَسدتْ صداقته الجميلة لناظم حكمت نموذجًا رائعًا للعلاقات الإنسانية السامية، كما أنّ تقديره العظيم لفن ذلك الشاعر المبدع كان خير برهان على ما يستمتع هو به من قدرات عقلية وذكاء وقّاد. إنَّ حكاية هذه الصداقة بحدّ ذاتها، أشبه ما تكون بقصيدة رائعة شديدة السحر عميقة التأثير في النفوس.

يروي الكاتب كمال سولكر Sulker الحكاية التالية التي تلقي الضوء على أحد جوانب شخصية كمال طاهر:

"صلتي بكمال طاهر بدأتْ بصورة غير مباشرة، ففي سنة 1940 كنتُ أُعد كتابًا عن الشاعر الكبير ناظم حكمت، فاتصلتُ به طالبًا معلومات عن نفسه، فبادرني بالقول: إن صديقي كمال طاهر يمكن أن يفيدك في هذا الأمر أكثر مما أستطيعه أنا(10).

كان كمال طاهر وقتئذٍ يُعد كتابًا عن ناظم حكمت، وهكذا توثقتْ العلاقة بيني وبين كمال طاهر إذ جمعنا هدف واحد هو اهتمام كلينا بشعر ناظم حكمت وشخصيته، ثم إني بعثتُ إلى كمال طاهر مسودات بعض قصائدي وعددًا من قصصي ملمسًا إياه أن يقوم

(10) العلاقة الثقافية بين هذين الكاتبين التركيين تعيد إلى الذاكرة شيئًا شبيهًا بها في تاريخ أدبنا العربي، فقد كان شاعرنا أبو الطيب المتنبي حين يُسأل عن شعره يحيل السائل إلى صديقه اللغوي العظيم ابن جني قائلاً: إنه أعرف بشعري مني أنا".

بنقدها، ويرسل تعليقاته عليها مع المعلومات المطلوبة حول ناظم حكمت، فكان أن وصلتني منه الرسالة المؤثرة التالية:

"عزيزي كمال سولكر، وصلتني رسالتك البليغة، أشكر لك مجاملاتك الرقيقة، وأحب أن أحدثك عن صديقي ناظم، ما أريد قوله إنّ ناظم حكمت سيكون وديعة نفسية لديك، هذا الطفل الكبير الذي لا يحمل في قلبه ذرة جفاء أو خشونة، في حاجة شديدة إلى حمايته ضد الأشرار. إن إنسانًا طيبًا صافيًا إلى هذه الدرجة محظوظ لأنه استطاع البقاء على قيد الحياة حتى الأربعين من عمره، وتطلب مني أن أصف لك الوسط الذي يعيش في ناظم، لكني لا أعرف التحدث عن مثل هذه الأمور التفصيلية، ذلك هو الثمن الذي يتعين على الكاتب الواقعي أن يدفعه، سترى أن خيالي ضعيف جدًا في إيراد التفصيلات الدقيقة للأشياء لأن اهتمامي ينصبّ على الأشخاص وليس على الأشياء. كل ما بقي من ذاكرتي عن غرفة ناظم حكمت فراشه، ودولاب ملابسه، غير المنظم وصورة معلقة على الحائط لأحد أصدقائه الفنانين.

طلبت مني أيضًا أن أنقد قصائدك وقصصك، لكني سأبوح لك بسرّ إن نقدي لن يكون مخالفًا لنقد ناظم حكمت، مع اعترافي بأنّ نقد ناظم أكثر أصالة وأقوى من نقدي أنا، أقصد أنك لن تكسب أي جديد مني إذا كنتَ قد تسلمت نقد ناظم لآثارك، فأنا أنظر إلى الأدب من ذات الزاوية التي ينظر إليها، بهذه المناسبة أرجوك أن تحث ناظم حكمت على الكتابة لأن القراء في شوق عظيم لأشعاره التي انقطعتْ منذ إغلاق أبواب السجن عليه قبل ثلاث سنوات. إني أفهم مشاعرك يا عزيزي كمال سولكر فقد عانيتُ مثل همومك هذه في أيام شبابي، أنا

أيضًا أحببت شعر بودلر وفيرلين في ماضي أيامي، وتأثرتُ بهما تأثرًا كبيرًا، وعقدتُ العزم على أن أصبح شاعرًا يُشار إليه بالبنان، لكني أدركت فيما بعد أني قاصرُ كشاعر لأنّ قدراتي أو ملكاتي الشعرية وخزانتي من الألفاظ الأدبية لا يؤهلاني أكون شاعرًا مهمًا، على إنها طبيعة الإنسان التي تجعله متسامحًا مع نفسه، وغير متساهل مع الغير.

أنتظر أن تكتب قصائد أخرى لتبعث بها إلى صديقك المخلص:
"كمال طاهر".

يكمل كمال سولكر حديثه فيقول: "ومع أن عددًا من قصائدي تهيأ لها أن تنشر في الصحف والمجلات المهمة، إلا أن كمال طاهر لم يكف عن توجيه النقد الشديد إليها ناصحًا إياي بترك الشعر والتوجه إلى النثر، ولكي يسليني عن قسوة نصائحه كان يعمد إلى انتقاد قصائده القديمة، ويبين لي عيوبها لاسيما أنه كان متأثرًا مثلي بشعر بودلير وفيرلين ورامبو...إلخ، وأحيانًا يجاملني قائلاً "كما ترى فإن أشعارك نفعتني كثيرًا إذ كان لها تأثير ملطف لمزاجي المتعكر مع استثارتها لحلى ذكريات صباي"، وبهذا الأسلوب اللطيف كان صديقي الكبير كمال طاهر يعينني على تحمل نقده الصارم لإنتاجاتي الأدبية، في نهاية المطاف كان لابدّ أن تثمر جهوده معي فانصرفتُ عن الشعر وأصبحتُ كاتب قصص ويوميات ونجحت في هذا الميدان.

في هذا المقام يحسن بنا اقتباس رأي كمال طاهر في الشعر فهو يرى "أن نظم الشعر البديع أشد عسرًا من تأليف القصة الجيدة وربما كان تأليف رواية عظيمة أصعب من كتابة قصيدة جميلة أو في مثل

صعوبته، لذا أنصح كاتب القصص أن يتطور حتى يكتب الرواية الكبيرة، وإلا فإنه لن يعود كاتبًا مهمًا".

يرى الناقد "ناجي جه ليك" أنّ كمال طاهر يمكن أن يوصف بغرابة الأطوار، وكان المحيطون به من أهل وأصدقاء يحسون بغموض شخصيته، وقلما كانوا يفهمونه، ربما يعود ذلك إلى عمق ثقافته وتنوع اتجاهاته، لقد كان كمال طاهر من الحكماء الذين يقلّ وجودهم في المجتمعات عادة، كان إنسانًا رصينًا بعيدًا عن التسرع في استخلاص الآراء وإطلاق الأحكام، ولم تكن ثمة هوة تفصل ما بين ثقافته المكتسبة وحقيقة شخصيته، وهو العيب الشنيع الشائع بين أغلب المثقفين في العالم الثالث.

على أن غموض الشخصية لم يحل دون اشتداد إعجاب المتنورين بأدب كمال طاهر، ولا قلل من حبّهم له، فلقد ألتفَّ حوله خليطٌ غريب غير متجانس من الناس، ولم يكن يربط بعضهم ببعض غير خيط واحد هو التقدير العظيم لفنه، ولفلسفته التي عرضتها رواياته جميعًا، كان بين أولئك: اليساري واليميني، والتقدمي والرجعي، المسلم والمسيحي، المؤمن والملحد، الشابْ والشيخ، المرأة والرجل، الرجل الوقور والشاب السكير وهلم جرا، كان في الواقع شخصية قلَّ نظيرها بين الناس. وكان الشرط الأوحد فيمن يدخل حلقته أن يكون إنسانًا مهذبًا لا يخرج عن حدّ الأدب.

كان كمال طاهر كاتبًا قبل أيّ شيء آخر، الكتابة تعني الحياة لديه، ومن رأيه أنّ الكاتب لابدَ أن يشعر بالاحترام إزاء حقائق الحياة، كما ينبغي له أن يكون متفائلاً حتى لو اشتدتْ حلكة الظلام حوله، وبسب طول مكوثه في السجن استطاع أن يتعرض لمشاكل أبناء مجتمعه بشكل محايد، بل يمكن القول إنه تحدث عن مختلف أصناف البشر، بلسان العطف والتفهم متجنبًا جهد الإمكان لهجة التوبيخ والتعالي وتوجيه النصح وما إلى ذلك، فيما عدا ذلك لم يحاول يومًا أن ينتمي إلى جهة سياسية معينة، لا لأنه لم يكن يمتلك وجهات نظر محايدة، بل لأنه كان إنسانًا واسع الآفاق، متفتحًا لجميع الآراء والمبادئ.

وكان يعتقد أن الفكر لا حدودّ له أي أنه لا يقف عند حدّ، وهو في ارتقاء أبدى إلى الأفضل والأسمى، وكان من المؤمنين بنظرية الفعل وردّ الفعل في عالم الفكر كما في عالم الأفعال، فلكل فكرةْ، مهما كان من صحتها، فكرة مضادة لها، كان كمال طاهر ديالكتيكيًا حقيقيًا، ولو شئنا الدقة في التعريف والوصف فإنّ كمال طاهر كان مهتمًا أشدّ الاهتمام بتوحيد أبناء شعبه عن طريق خلق ضمير أو وجدان جماعي لدى الشعب، وكان هو نفسه أنبل من جسَّد هذا الوجدان، ومن أجل تحقيق ذلك الهدف الجميل سعى إلى توضيح الخصائص المادية للمجتمع التركي مستفيدًا من الحقائق التاريخية المتوفرة، وكان قد درس بدقة وبذكاء نظريات كارل ماركس ومبادئه، وفي الوقت ذاته آمن بصحة النظرية النسبية التي بشرَّ بها العالم أينشتاين وأعجب بها إعجابًا شديدًا، وربما كان كمال طاهر أول كاتب تركي يستفيد استفادة حقيقية من النظرية النسبية في كتاباته وآثاره، وممن تأثر به في

اتجاهاته هذه الكاتبان المعروفان: "أتيللا إلهان" و"سليم أيلري" على الرغم من اختلافهما عنه في مزاجهما وميولهما.

غير أن تأثيرات كمال طاهر لم تقتصر على ميدان الأدب والثقافة، وإنما نجح في خلق شعور وطني واقعي النزعة لدى المثقفين من أدباء ومؤرخين وحقوقيين واقتصاديين وفنانين...إلخ، لهذا اعتاد الدارسون أن ينظروا إليه كمفكر أكثر مما هو روائي، وربما كانوا مبالغين في هذا الموقف منه، لكنّ ذلك عائد إلى حرص هذا الكاتب على عرض أفكاره ضمن صفحات رواياته جميعًا، عن عمد وتخطيط مسبقين، وكان شديد الاهتمام بإقناع الناس بتلك الآراء والأفكار، معتقدًا أنها ستغير شخصياتهم وتوجهاتهم في الحياة.

وبحسب رأي الأديب "الهان بيرك" فإنّ كمال طاهر أراد أن يحقق ذاته في رواياته، وشخصياتُ رواياتِه تجسيدٌ لأهدافه المتباينة الكثيرة، من هنا ارتفعت الشكوى أحيانًا من شعور قرائه بالضيق أو بالملل عند قراءة رواياته، فكأنه يؤلف الروايات لمجرد أن يجد وسيلة لعرض أفكاره، في حين يسعى قارئ الروايات في العادة إلى الاستمتاع بالأجواء الخيالية البعيدة، وبالصور المتنوعة الجميلة، وبالانفعالات الغريبة العميقة وما أشبه، قبل البحث عن الأفكار الفلسفية والآراء السياسية...إلخ.

يشير الناقد "سليم أيلري" إلى مواقف كمال طاهر من آراء ونظريات الكاتب "هاليكارناس بالكجي سي" حول انتماء أهل آسيا الصغرى إلى حضارة بحر إيجة، وامتزاج حضارتهم بحضارة الإغريق، مبينًا أن كمال طاهر لم يعبأ بهم، ولم يلتفت إلى الضجة التي أثارتها في

الأوساط الثقافية التركية في الستينيات والسبعينات من القرن العشرين، ثم إنه أعلن رفضه القاطع لها، فكان رد الفعل الصادر من جماعة "بالكجي" أن أظهروا رأيهم في الحضارة العثمانية التي لا تستحق في رأيهم أي تعظيم أو تقدير، وواحدة بواحدة!! وقد احتدم الجدال بين كمال طاهر من جهة، وصباح الدين أيوب أغلو، صديق "بالكجي" المؤمن بنظريته المذكورة من جهة أخرى، لكنّ القدر سخر سخريته المعروفة في عام 1973 بوفاة كمال طاهر، وهاليكارناس بالكجي معًا، وبذلك انطوت الخصومة.

كان كمال طاهر من دعاة الواقعية متأثرًا بمشاهير كُتَّاب الواقعية العالميين وفي مقدمتهم الروائي العظيم بلزاك، ومثل بلزاك أصرَّ على ربط مصير أشخاص رواياته بالشروط الاقتصادية للمجتمع الذي عاشوا فيه، لكنّ بلزاك على الرغم من صدق أو دقة الصورة التي رسمها لقسوة الواقع وفظاعة الحقيقة، فإنه في حياته الشخصية كان جزءًا من ذلك الواقع برواياته، إنما الأصح أن يقال إنه كان فنانًا عظيمًا عرف كيف يعكس بشفافية مدهشة ومهارة فائقة الوقائع التي يراها ويعيش فيها، أما كمال طاهر فقد استخدم أسلوبه الواقعي النزعة، وسيلةً مؤثرةً لتغيير الواقع القبيح عن طريق إقناع الناس بوحشيته وقسوته من جهة، واستثارة الشفقة والعطف في قلوبهم من جهة أخرى.

استخدم كمال طاهر رواياته التاريخية لإلقاء الضوء على معاناة أهل الأناضول تحت حكم مختلف الدول، ففي روايته "دولتْ أنّة" رسم صورةً شاملة لأوضاع المواطنين تحت هيمنة الدولة المغولية الغازية

في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وأظهر النتائج الوخيمة التي أدت إليها سياستهم الاقتصادية الخرقاء، لاسيما في الميدان الزراعي إذ سادتْ الفوضى في كل مكان، مما هيأ المجال لظهور السلطان أرطغول بيك الذي ابتكر نظامًا سياسيًا اقتصاديًا حسنًا، وسنَّ قوانين سليمة لإدارة إمارته الجديدة، وحاول تثبيت السلام والاستقرار، ومن إجراءات أرطغول بيك استعانته بعدد من النساء المتصفات بالشجاعة والذكاء لإدارة البلاد مع الإداريين من الرجال، مما هيأ لسياسته النجاح والتوفيق.

ومن الأمور التي تطرقتْ إليها الرواية، ضرورة امتزاج الفكر والتكنولوجيا بين الشرق والغرب، وانتقاد الأعراف الخاطئة فيما يخص بعض المؤسسات الاجتماعية كالزواج مثلاً، ولم ينس كمال طاهر إظهار دور شاعر المحبة والسلام التركي يونس إمرة، في توحيد أبناء العشب وجمع قلوبهم في تلك المرحلة الخطيرة من تاريخ بلادهم.

كان كمال طاهر إنسانًا ملتزمًا بطبيعته، وكان مؤمنًا بأن الفنان الحقيقي ملزم أخلاقيًا بأن يكون داعية لفكر نبيلة أو مبدأ شريف، من ثم فاستخدام الكتابة وسيلة للتأثير على قلوب القراء يصبح واجبًا مقدسًا في مثل هذه الأحوال، ويتجلى موقفه هذا في روايته التاريخية الكبيرة "أهل المدينة الأسيرة" التي تبدأ أحداثها في القرن السادس عشر، وتمر أحداثها عبر العهود العثمانية التالية حتى تبلغ فترة إعلان خط همايون "التنظيمات" في عهد السلطان عبد المجيد أثناء القرن التاسع عشر، ويشير الكاتب إلى أسبابها ونتائجها، ثم تتوجه

الأنظار إلى جمعية "العثمانيون الجدد جون ترك لر"، ثم تأتي مرحلة حكم السلطان المستبد عبد الحميد الثاني، ويعقبها الثورة التي أسقطته بعد إعلان دستور عام 1908 الشهير، بعد ذلك تبدأ ثورات الاستقلال عن الدولة العثمانية في البلقان واليونان والبلاد العربية، مما يؤدي في نهاية الحرب الكونية الأولى إلى الهزائم المنكرة التي حاقتْ بالدولة العثمانية، وينتهي الأمر بانهيار الإمبراطورية العثمانية بعد فترة احتضار طويلة، وتقسيم ممتلكاتها، ووقوع تركيا ذاتها تحت سيطرة قوات الدولة الحليفة في سنة 1918.

بحشده كل هذه الأحداث داخل إطار رواية واحدة أراد كمال طاهر أن يرسم لوحة ضخمة للمعاناة الطويلة الأمد التي كانت من نصيب سكان الأناضول على أدي السلاطين العثمانيين، إذ لم ينل أولئك المساكين غير القهر والذل والحرمان شأنهم شأن بقية الشعوب التي خضعتْ لحكم بني عثمان، مثل العرب واليونان وأهالي البلقان...إلخ.

أما رواية "قانون الذئب" فهي لوحة العهد الجمهوري وتقع أحداثها بعد انهيار الدولة العثمانية، وانتصار حركة التحرير التي قادها مصطفى كمال ضد قوات الحلفاء التي احتلت الأراضي التركية في نهاية الحرب العالمية الأولى.

تبدأ أحداث الرواية بمؤامرة سنة 1926 ضد كمال أتاتورك، وتشير أصابع الاتهام إلى أعضاء جمعية الاتحاد والترقي "كان مصطفى كمال نفسه في بادئ الأمر عضوًا في هذه الجمعية، لكنه أنفصل عنها فيما بعد"، وقد استعان الاتحاديون بأصدقائهم الأقوياء من ساسة أوروبا للقضاء على مصطفى كمال، غير أن المؤامرة كُشفتْ وقُضي

على أصحابها، في الرواية وقف كمال طاهر من تلك الأحداث الخطيرة موقفًا محايدًا أو موضوعيًا، وهو شيء عسير إذا ما تذكرنا إنه مواطن تركي، ولابدَّ أن يكون له موقف محدد من تلك الأطراف المتناحرة، لكنه مع ذلك نجح في رواياته جميعًا إن يكتم أحاسيسه الشخصية، كي يقف وقفة الحياد، محاولاً أن يتفهم مختلف وجهات النظر حتى لو كانت مضادة لوجهة نظره هو، على أنّ ذلك لم يمنعه من توجيه الأنظار إلى معاناة الشعب المسحوق، المعاناة الناشئة عن سبب واحد أساسي في رأيه وهو سياسة الاستغلال والفساد التي تتبعها السلطات الحاكمة في إرادة البلاد مهما تبدل نوع الحكم**!!**

أدرك الشاعر ناظم حكمت أهمية روايات كمال طاهر، وكان يقدر مساعيه المخلصة من أجل رفع الحيف عن كاهل الشعب، كما كان أول من فهم المدى الذي يمكن أن تبلغه رواياته في تغيير مفاهيم الناس، وتبديل مواقفهم، والتأثير في أخلاقهم وتصرفاتهم، نستدل على ذلك من الرسائل المتبادلة بين ناظم حكمت وكمال طاهر أثناء وجودهما في السجن أو في خارجه، يقول ناظم حكمت في رسالة إلى صديقه مؤرخه في 27-1-1947:

"من واجبنا يا عزيزي كمال أن نقدم إلى أحبتنا من أبناء الشعب وإلى أشراف الناس عمومًا، مؤلفاتٍ نبيلة الأهداف، وكتابات تلتزم جانب الحق، وذلك بالضبط ما يجده القارئ في مؤلفاتك الملتزمة، وما أرى فيه أنا عزائي الأعظم. أنت وأنا وكل كاتب وفنان في هذه البلاد لابدَّ لنا من أداء هذا الواجب، فبدون إخلاصنا للوطن، وبدون أن نكتب

من أجله أجمل آثارنا، لن نذوق طعم الراحة، ولن يصيبنا غير الألم وتأنيب الضمير".

ومن رسالة أخرى لناظم حكمت كتبها إلى كمال طاهر في 30-6-2949 "أخي كمال، عاشت يداك، إن مجرد قراءتي لعناوين رواياتك يشرح صدري ويهدئ اضطرابي، وفي آثارك الرائعة هذه سيجد المتأدبون من الشباب خير درس، إذ ستعلمهم فعليًا كيف تؤلف الروايات".

ورسالة ثالثة من ناظم حكمت بتاريخ 2-8-1949:

"أخي كمال... إلى حد وقتنا هذا فإنّ رواياتك هي أفضل ما أنتجه كاتب في بلادنا، ثقتي هذه لا تقوم على مجرد حبي لك، وإنما تستند إلى قابلياتك أنت، إنها قناعة تعتمد على شروط موضوعية. سرني أن تكون متفائلاً في كتاباتك لأن اعتناق فلسفة متشائمة ليس شيئًا حسنًا، إن الواقع في حالة التشاؤم أمر سهل، الصعب العسير هو أن يبقى الإنسان متفائلاً متوقعًا الخير، على الرغم من كل الظروف التعيسة التي تحيط به، على أن التفاؤل لا يعني بالضرورة أن يكون الكاتب سعيدًا، فكثير ما يكون الإنتاج الأدبي لأحد الأدباء شديد التفاؤل لكنه حزين في الوقت عينه".

هذه الرسائل المؤثرة مثلما تثبت تعظيم ناظم حكمت لفن كمال طاهر فإنها توضح أيضًا نبل شخصية كاتبها وإخلاصه العظيم لوطنه وللإنسانية جمعاء.

مثلما يقع لكل إنسان عظيم، فإن الناس تباينوا أشد التباين في تقديرهم لروايات كمال طاهر، وحتى في رأيهم بشخصه ومبادئه، ربما كان رأي الناقد المعروف سلم أبليي من أفضل ما كتب حول فن كمال طاهر، يقول "إنَّ المعجبين بكمال طاهر، الذي أكن له أنا أيضًا احترامًا كبيرًا، تذهلهم دراسته العلمية الموسعة لمختلف مراحل تاريخ بلادنا، وقدرته العظيمة على رسم صورة دقيقة لحياة الناس في العصور الماضية، ويرون أنه نجح في تحويل تاريخ الأناضول كله إلى روايات جميلة، موضع انتقادي في هذا المقام أن رواياته تلك، يمكن أن تعد رواية واحدة، تتكرر وتعاد كتابتُها مرةً بعد أخرى، أعتقد أن سبب هذا القصور أسلوب كمال طاهر ونوع التقنية التي يستخدمها في رواياته، هذه الروايات مهما اختلفتْ عناوينها، ذات بدايات وعروض وعقد وخواتيم متشابهة بل متطابقة في كثير من الأحيان، في مدخل كل رواية يقع حادث خطير يقنع القارئ بوجود عقدة عسيرة على الحل، في ختام الرواية، يوضع على لسان أشخاصها الحل النهائي للعقدة، إنّ تغيير مكان الأحداث وزمانها لا يمنع أبدًا، استخدام الكاتب لتقنية واحدة، بل بالعكس فإنه مضطر لذلك لأنَّ أي كاتب لا يستطيع تغيير أسلوبه، فالأسلوب هو الرجل، ولا يمكن فصلها عن بعضهما".

على أنّ النقد الموجه إلى كمال طاهر لم يكن كله موضوعيًا أو محايدًا، فقد هاجمه عدد من الأدباء بلهجة حادة بسبب ما كان يتردد على ألسنة أبطال رواياته من عبارات "غير لائقة" تمسّ شخصية الزعيم التركي مصطفى كمال أو تنتقد سياسته، ولما أشتد الجدل بشأن تلك الروايات علّق الشاعر جمال ثريا في أحدى الصحف قائلاً:

"هل يُعد ذنبًا ألا يكون الإنسان من أتباع مصطفى كمال؟"، مثل هذه العبارات الاستفزازية حولتْ الجدل بشأن روايات كمال طاهر إلى وجهة سياسة، وانتقل الصراع إلى الساحة السياسية بين أنصار أتاتورك وأعدائه، وهوجم جمال ثريا بتهمة الخيانة للوطن، لأنه مسَّ شخص الزعيم الذي أنقذ البلاد بعد انهيار الدولة العثمانية، من قوات الاحتلال الأجنبية.

والحق أن كمال طاهر تعرض بالفعل في بعض رواياته للعهد الجمهوري الجديد وانتقده انتقادًا صريحًا، كما وقع في روايته "الثروة الكبيرة"، وكيف لا يفعل ذلك وهو نفسه كان أحد ضحايا العهد الجمهوري، شأنه شأن كثير من التقدميين الذين عارضوا سياسة مصطفى كمال في بعض جوانبها، من مثل الشاعر ناظم حكمت، وغيره، لقد فقدَ كلْ منهم خيرة سنوات شبابه قابعًا في ظلمات السجون النائية لمجرد إعلانهم الرأي في سلبيات ذلك العهد، وأخطاء رجاله، على أن موقف كمال طاهر هذا لا يعني أبدًا أنه كان معاديًا للجمهورية، أو أنه ينادي بشرعية الدولة العثمانية مثل الشاعر محمد عاكف الذي كان يتمنى عودة سطوتها وهيمتنها، بالعكس... فكل روايات كمال طاهر في الواقع كانت تفضح سياسة العثمانيين، وتصوّر فساد حكمهم، وتزيح الستار عن الكوارث التي تعرضت لها الشعوب الخاضعة لحكمهم، بسبب تهرء بنيان دولتهم المتخلفة من ركب العصر.

كل ما في الأمر أنّ كمال طاهر كان يعتقد بأنّ الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في أي بلد، لا يمكن أن تتغير بين ليلة وضحاها

بعصا ساحر أو بمجرد تبدل الحكومات، فالتغيير الحقيقي يحتاج إلى تحقق شروط معينة بدونها يستحيل وقوع ذلك التغيير وذلك هو الدرس الذي سعى إلى تقديمه لقراء رواياته ضمن الدروس الأخيرة الكثيرة.

مما يوضح معتقدات كمال طاهر رأيه الخاص في الرواية التركية، فقد كان يعلن أنها لا يمكن أن تولد إلا في وسط الكتل الجماهيرية الشعبية، يقول في ذلك "الرواية التركية ستولد في وسط العمال والفلاحين، وضمن واقع القرية التركية، علينا نحن الأدباء أن نكتشف خفايا حياة أبناء شعبنا المحروم نبحث بكل وسيلة عن الشروط الاقتصادية والاجتماعية التي يمكن أن تغير واقعهم المرير، ونواصل بذل الجهود بمثابرة وبدون انقطاع في هذا السبيل".

في مطلع حياته الأدبية انصرف إلى تأليف القصص الواقعية القصيرة ونشرها، كذلك أصدر عددًا من القصص البوليسية، وكان ينشر ذلك كله تحت أسماء مستعارة بلغ عددها خمسة عشر اسمًا! ثم ظهرتْ له بعض الروايات المترجمة عن اللغات الأجنبية، أما رواياته الكبرى فلم يقم بطبعها إلا بعد إطلاق سراحه من السجن، في أوائل خمسينيات القرن العشرين.

وكانتْ مادة هذه الروايات قد تجمعتْ لديه عن طريق صفحات يومياته التي دونها في السجن على ما أشرنا إليه، فإذا أمكن أن يكون للسجن فائدة، فإن كمال طاهر، فهذا المعنى، يُعدّ مستفيدًا من تلك التجربة الأليمة، وتفسيرُ ذلك يرد في إحدى رسائله حيث يقول:

"السنوات الطوال التي قضيتُها خلف قضبان السجون هيأت لي فرصة التعرف على مرارة حياة أبناء وطني، إنها التجربة الموجعة التي أزاحتْ الغشاوة عن عيني، فأصبحتُ إنسانًا لا تغره المظاهر البراقة، ولا تخدعه أساليب الدعاية".

تتصل بعض روايات كمال طاهر بسيرته الشخصية، فرواية "أهالي المدينة الأسيرة" تعرض صورًا لأفراد من الشعب أودعوا السجن معه، فلم يسلبهم السجن أيًا من صفاتهم النبيلة أو طباعهم الحلوة، وفي مقدمة هؤلاء، السجناء السياسيون وحاملو الفكر الحر، ولم ينسَ الكاتب إيراد نماذج من المجادلات التي كانت تقوم بين السجناء المثقفين فتزيح الستار عن مدى المعاناة التي يتعرض لها الأحرار، وما يتعرضُ له الفكر من تحديد وتقييد في وطنه، وذلك على الرغم من مسحته الديمقراطية البادَية على الصحف والمجلات ودور النشر والإذاعة والتلفزيون وما إلى ذلك، لكنّ الديمقراطية في الشرق الأوسط لا يمكن أن تكتمل، بل تظل قاصرة بحكم تركيبة المجتمعات في هذه المنطقة من العالم.

كل رواية من روايات كمال طاهر تجسّد مرحلة تاريخية محددة لبلاد الأناضول، استطاع المؤلف أن يحوك نسيجها بشكل محبوك دقيق، وأن يؤلف من أشخاصها هيئة شديدة التدفق والحيوية، فهناك رجال ونساء من كل الأعمار والطبقات، هناك التجار، والحرفيون والأغوات الإقطاعيون، هناك الأسياد وأعيان المدن، هناك السياسيون والحقوقيون، وهناك أيضًا الشقاة والصعاليك والأشرار، إلى جانب

هؤلاء نقابل عددًا من مشاهير كل عصر، وكل مرحلة من مراحل التاريخ الأناضولي الطويل.

أما رواية "الثروة الكبيرة" فهي صورة العهد الجمهوري بعد انتصارات مصطفى كمال في حرب التحرير، وتسلُّمه لرئاسة الجمهورية. تُظهر الرواية خيبة آمال الناس المسحوقين على مدى تاريخ الدول التي حكمتهم، بالعهد الجمهوري الجديد، فأهالي بلدة جيروم "وهي نموذج لبقية المدن التركية في الأناضول"، مازالوا يرزحون تحت عبء همومهم ومشاكلهم التي ظلت قرونًا طوالاً القدر المكتوب عليهم، إنهم لم يشهدوا أي تغيير محسوس في نوعية المسئولين الذين أنتجهم العهد الجمهوري الموصوف بالثورية، فهم عين الحكام القدامى، الأغوات الإقطاعيون المترهلون الذين لا هم لهم غير ملْء جيوبهم بالمال، وتوزيع الرشوات على محاسيبهم ليعاونوهم على نهب الناس، وخطف القوت من أفواه اليتامى والفقراء وضعيفات النساء. المجرمون والأشقياء مازالوا يعيثون فسادًا، ويقطعون الطرق، ويقتلون ويخطفون ويفعلون كل ما شاءوا دون رقيب أو حسيب، ومما ضاعف مشاعر الإحباط والخيبة لدى الناس أن الموظفين العثمانيين القدامى انضموا هذه المرة إلى الطبقة الحاكمة الجديدة، عن طريق التظاهر بتبني مبادئ مصطفى كمال، حتى أن أثرياءهم أصبحوا نوابًا في مجلس العموم، وبهذا نجحوا في تجميد الأوضاع وإبقاء كلّ شيء على حاله، لكن أضيف إلى العلل القديمة، ازدهار تجارة المخدرات والتبوغ والأسلحة كي تمتلئ جيوب رافعي شعارات مبادئ أتاتورك!!

هذه الرواية الجريئة كتبها كمال طاهر وهو سجين في حبس بلدة جيروم ثم بلدة ملطية، معتمدًا على ملاحظاته ويومياته التي دونها أثناء تلك الفترة.

في سجن "ملطية" أيضًا ألف روايته "أهل الناموس" التي تزيح الستار عن خفايا الحياة العائلية الخاضعة للتقاليد البالية في الأرياف والقرى النائية، تلك التقاليد الحديدية المسؤولة عن تأخير المجتمع، وتجميد الحياة فيه، لأنها تقف حاجزًا صلبًا بينه وبين العالم الخارجي، فلا تهبْ عليه أية نسمة هواء، ولا يكون معرضًا، من بعد، إلى أية حركة تغيير مهما اشتدت حاجتُه إليها، ويرسم المؤلف صورةً حية للعمل الاجتماعية في تلك الأنحاء البعيدة من البلاد، وكيف تستطيع الأعراف والتقاليد أن تتحكم بمصائر الأفراد فيها، لأنها تتلبس بالمفاهيم التي تؤثر في أعماق ضمائر الناس ووجدانهم، كالغيرة على العرض، والحفاظ على الشرف العائلي، في حين تكشف أحداث الرواية عن أن "الكبار" من ذوي المقامات العالية، ممن يحرصون أشّد الحرص على إشاعة تلك المفاهيم بين الناس، ويتظاهرون بالحفاظ عليها، هم أنفسهم، أشد الناس تجاوزًا لها، وإغفالاً لتطبيقها في حياتهم اليومية!

هناك أيضًا رواية "انقطعت سُبُل الرحمة" التي هي لوحة غريبة غير معهودة عن الأشقياء واللصوص وقطاع الطرق، وتقع أحداثها بين أعوام 1915-1923 أي أثناء حقبة انهيار السلطة العثمانية، وتحول البلاد إلى الحكم الجمهوري، في تلك الفترة توالت الكوارث العسكرية

والسياسية، ودبّ الفساد في مرافق الحياة جميعًا، وتفنن المجرمون في جرائمهم، دون أن تمد السلطات يدًا لإنقاذ الناس أو حمايتهم.

في رواياته هذه حرص كمال طاهر أن ينتهج نهجًا موضوعيًا وغير شخصي، هو في هذا متأثر بالكتاب الفرنسيين المحدثين، وفي مقدمتهم فلوبير الذي كان ينصح الروائي بأن يتجنب عرض شخصيته الخاصة على القراء، لأن الفن العظيم ينبغي أن يكون موضوعيًا وغير متحيز، وقد حقق كمال طاهر هذا الهدف بنجاح تام.

في عام 1965 ظهرت رواية "المحارب المتعب" فأثارتْ ضجةً هائلةً، وأعلن النقاد إنها عمل أدبي عظيم سيكون له أثر كبير في الأدب التركي بأكمله، وقد حصلت على "جائزة يونس نادي" في عام 1968، لكنها تعرضت لصدور حكم قضائي ضدَّها، فمُنع تمثيلُها على المسرح وفي السينما والراديو والتلفزيون بسبب الموقف الصريح أو غير المنحاز لشخص كمال أتاتورك، وهو الموقف الذي أصَّر عليه كمال طاهر حتى نهاية حياته من الزعيم التركي الكبير.

وحين ظهرت بعدها رواية "دولت أنَّه" كان ردّ فعل الجمهور أشدّ مما سبق، وتعارضت آراء النقاد إزائها، فرفعها بعضهم إلى السماء، وأنزلها آخرون إلى الحضيض، ممن أشتدَّ ثناؤه عليها السياسي الديمقراطي والشاعر المعروف "بلند أجويد" الذي قال:

"إنها أهم حَدَث في تاريخ الأدب التركي على الإطلاق".

يقول أحد الأدباء :

"لو كان للشعب التركي أن يفخر بنفسه فإنّ الذي يمنحه هذا الحق: إنتاجه لثلاثة من أعظم رجال العالم وهؤلاء هم:

*الإنسان الكبير جلال الدين الرومي مؤلف المثنوي.

*المعمار سنان باني الجوامع العثمانية العظيمة.

* كمال طاهر مؤلف الروايات التي مثلتْ روح الشعب التركي أصدق تمثيل.

نـهاية الطريق

كان من عادات كمال طاهر اليومية أن يخلد إلى الراحة بعد الغداء ثم يحتسي قدحًا من الشاي، ويبدأ بالكتابة، وفي عصر يوم الجمعة 20 نيسان 1973 حضر أخوه راتب بيك، واصطحبه بسيارته إلى داره الواقعة في "شيشلي" أحدى ضواحي استانبول، وبعد تقديم المشروب شرع كمال طاهر بالتحدث بحيويته المعروفة، ولما أنتقل الحديث إلى رواياته، بدتعليه علامات تعب مفاجئ.

يروي الأديب "إسماعيل جيم"، الذي كان حاضرًا المجلس، الكلمات الأخيرة التي تفوه بها الكاتب الشهير: "طوال أيام حياتي أعتدتُ أن أكتب ضمن نظام فكري محدود لم أنحرف عنه أبدًا، ورواياتي كلها هي نتاج ذلك النظام، اعني أنني لم أكتب أي شيء اعتباطًا أو مصادفةً، كنت دائمًا ملتزمًا، ذلك هو السبب في عدم وقوعي في الأخطاء، وقد أثبتتْ الأحداث صحة جميع استنتاجاتي. الإنسان قد يخطئ في بعض تحليلاته للأمور العامة، لكنّ الفرد الذي تقسو عليه

الحياة، وتشتدّ معاناته، ربما يكون أسعد حظًا من غيره في قضية واحدة وهي أن الأحزان تزيل غشاوة الخداع عن العين، فيتهيأ للمحزون اكتشاف الحقائق العارية التي قد لا يراها المغرور بزيف المظاهر.

الإنسان سيء الحظ يمكن أن يقع في الخطأ مرتين، وحين سيحاكم التاريخ كتاباتي، سيرى الناس كم كانتْ أقوالي صادقة واستنتاجاتي صحيحة، ثم أنّ رواياتي تقع أحداثها في الماضي، لكنّ الروائي حين يبحث الماضي ويدرسه، يكون أشبه بمرآة تعكس أحوال الحاضر في الوقت عينه، بل تتنبأ بالمستقبل أيضًا.

عند هذا كانت قطرات العرق قد تكاثفت فوق وجهه، وبقية أجزاء بدنه، ثم بدأ يشكو من ألم شديد في ظهره وفي كتفه ونهض طالبًا العودة إلى داره، لكنَّ أهل الدار أصروا على استدعاء الطبيب الذي حضر، وطمأنهم بعدم وجود شيء خطير، لكنَّ الطبيب كان مخطئًا فبعد أقل من ساعة فقد وعيه، ثم قضى نحبه.

وانطوت بهذا صفحة من تاريخ الأدب التركي الحديث.

*** ***

من ثمار فرمان التنظيمات...الأدب التركي الحديث

" بدون إدراك الأهمية الحقيقية لعهد التنظيمات يصعب علينا فهم يومنا الحاضر". ناظم حكمت

تمهيد

بعد ارتقاء سليم الثالث العرش العثماني بأشهر قلائل التهبت شعلة ثورة 14 تموز العظمى في فرنسا عام 1798، فكان رد فعله عليها مغايرًا لكل ما يتوقعه المطلع على تاريخ العثمانيين، فبدلاً من أحكام إغلاق الأبواب في وجه رياح العاصفة، حرص الملك الشاب على أن تتجاوب أصداء الثورة في أنحاء بلاده، إذ كان بطبعه نزّاعًا إلى الحرية راغبًا في إعادة ضخ دم الشباب في جسم الكيان العثماني الهرم، عن طريق فتح المنافذ المطلّة على العالم المتحضر الحديث، دون خشية أو تهيب، الشاعر الفرنسي الأشهر "لا مارتين" أحد المعجبين بالسلطان سليم، وقد وصفه على الصورة التالية:-

"كان ذا قامة مديدة ووجه صبوح، يتوهج حماسًا للتجديد والتغيير، عرفه العلماء والأدباء والفنانون محبًا للثقافة شغوفًا بالعلوم متذوقًا للفنون، كان دمث الخلق حلو المعشر، نزاعًا إلى الرحمة، قيل أنه كان ينفر من مؤسسة الحريم الخارجة عن الطبائع الإنسانية، لذلك هجر النساء، ولم يخلف ولدًا أو بنتًا، خوفًا على ذريته مما قد يتعرضون له من أخطار الخنق أو التسميم أو التغريق في البسفور، وهو المصير الذي ينتظر عشرات الأمراء مع أمهاتهم، بسبب التنافس الأعمى على تولي العرش مهما غلا الثمن".

على أنّ الشعور بأهمية منجزات الحضارة الغربية، وضرورة مواكبة الدولة العثمانية للعصر الحديث، لم ينبثق فجأة باعتلاء سليم التخت، وإنما ظهر في فترة أسبق، في هذا المقام يحسن بنا مراجعة سيرة جده أحمد الثالث "1703 - 1730" الذي جمع حوله الشعراء والكتاب والفنانين، وسمح بإدخال أول مطبعة أهلية إلى بلاده، وتأسيس معمل للورق، وكان صهراه، وكل منهما ارتقى إلى منصب صدر أعظم، إبراهيم باشا، وراغب باشا يعشقان الكتب، ولا يبخلان بأية مساعدة من أجل توفير المكتبات للقراء من أبناء الملة.

وكان أحمد الثالث شغوفًا بالخط يمارسهُ بمهارةْ فائقة حتى عُدَّ من أشهر خطاطي العصر، وقد ورث عنه هذه الموهبة حفيده السلطان محمود الثاني، ومع انهماك أحمد بالحروب المتواصلة التي اضطر إلى خوضها ضد الدولتين المجاورتين روسيا وإيران، فإنّ ذلك لم يشغله عن تنفيذ أو تحقيق هوايته الخاصة في إنشاء المباني الجميلة الفخمة وأشهرها قصور: "سعد أباد"، و"النشاط" و"الجنان" إضافةً إلى بناء الجسور والقناطر داخل استانبول مثل جسر السرور وغيره، ومن أعماله تزيين سواحل البسفور واوسكودار، والخليج، ووادي كاغد خانه، بالحدائق والدور الأنيقة...إلخ.

أُطلق على العهد الأخير من عهد السلطان أحمد الثالث اسم:-

"عصر لاله"، "لاله" تعني الزنبق، بسبب ما امتازت به هذه الحقبة من حفلات أنس وسهرات غناء ورقص، كانت تستمر أياما بلياليها، والجميع يتحينون الفرص ويخلقون المناسبات للاستمتاع بالحياة الهانئة البهيجة، ففي عام 1720 أعنت بشريات ختان أولاد السلطان

الأربعة، بهذه المناسبة تمّ ختان خمسة آلاف صبي من الفقراء مع الأمراء السعداء، وألقى شاعر القصر "سيد وهبي" قصيدة ضمنت له ذيوع الصيت، في الأدب العثماني، وصف فيها بالتفصيل لأفراح الناس في تلك الأيام مهنئًا القصر وأهله بالأحداث "الخطيرة" المذكورة.

لكن النجم المتألق في سماء "عصر لاله" كان بلا ريب، شاعر القصر "نديم" أحد أعظم الشعراء العثمانيين، وتتبع أهمية هذا الشاعر في محاولاته التجديدية الحقيقية في الشعر الديواني "الكلاسيكي"، ومن الروح التفاؤلية المرحة التي طبعت شعره، وإصراره على تجنب الأجواء الصوفية الزهدية التي تميز الشعر العثماني عمومًا، وقد تجسد تجديدُه، في ناحيتين أولاهما: وزن الشعر وثانيتهما: لغة الشعر، ففي الوزن أدخل نديم الأوزان العامية الخاصة بالأغاني والشعر الشعبي، في الشعر الديواني، وهو أمر لم يتجاسر عليه غيره من الشعراء الديوانيين، من الأوزان التي استعملها : "القوشما" وأمثاله، وكذلك أكثر من الرباعيات على طريقة الشاعر المجدد الصوفي يونس إمره، فطغت على أشعار نديم صبغة غنائية جعلت المغنين حتى اليوم، يتهافتون على تلحين أشعاره المرحة التي تفيض حيوية وطربًا، وتعبّر عن مشاعر الفرح بعقوبة وبدون استخدام المحسنات البديعية التي تثقل الشعر الديواني دائمًا، ويُعد "نديم" من شعراء "التفعيلة" أو المقطع Hece لأنه انصرف عن الأوزان العروضية.

أما عن لغته الشعرية، فقد سعى إلى استخدام لغة الحياة اليومية وألفاظ الشعر العامي في كثير من الأحيان، ومزج تلك الألفاظ بالفصحى، وأطلق على هذه المحاولة اصطلاح "تازة زبان" أي اللسان الجديد، ولا ريب أن تجديدات نديم هذه حظيت برضا السلطان أحمد وصهره إبراهيم باشا الذي وضع "نديم" تحت رعايته الخاصة.

لكن السعادة لا دوام له في عالم الشرق هنا.. الأحزان هي القاعدة، والأفراح استثناء، إذ أنّ "الإنساكلوبيديا الإسلامية المصغرة التركية" تشير إلى سذاجة أحمد الثالث التي أوقعته تحت تأثير مختلف الشخصيات المحيطة به، فكان لحسن نيته، لا يميز بين ما ينسجم وما لا ينسجم من الإجراءات، مع التقاليد السائدة في المجتمع العثماني، من هنا جاءت أخطاؤه، وربما شفع له حسن نواياه فأنقذه من مصير القتل الذي كتب لصهره الصدر الأعظم إبراهيم باشا وغيره من رجال البلاط، حين هبت "فتنة أميرال البحرية"، وهاج الناس في استانبول وماجوا، واتجهوا إلى البلاط يطالبون برأس الصدر الأعظم وزملائه المؤيدين له، فلم يجد السلطان بدًا من الخضوع أخيرًا للتهديد، وسلم صهره للجماهير الغاضبة فقتلوه مع مؤيديه، ثم خلعوه هو عن العرش ونصبوا خلَفَه "محمود الأول" عام 1730، أما "نديم" فقد حوصر بيتُه فارتقى سطح الدار لكنه وقع من أعلى السطح فقضى نحبه رعبًا.

الحقيقة أن جريمة إبراهيم باشا في عيون أعدائه المحافظين لم تزد على محاولته تجديد الحياة في المجتمع العثماني المنغلق على البؤس والخرافة والسكون، كان على تركيا أن تنتظر قرنًا كاملاً آخر كي

يتقدم كمال أتاتورك بكل جرأة، معلنًا خروج وطنه من ظلمات القرون الوسطى، إلى أنوار حضارة العصر، مستفيدًا من التطورات الضخمة التي أنتجتها الحرب الكونية الأولى، وأدخلت البشرية في أجواء القرن العشرين، قرن الوثبات الضخمة إلى الأعالي، رغم تضاعف بؤس الإنسان في هذا القرن الغريب المتناقض، على أن مساعي كمال أتاتورك ما كان لها أن تنال حظها من التوفيق، لو لم يسبقها جهود أسلافه المتنورين: أحمد الثالث وولديه مصطفى الثالث وعبد الحميد الأول، ثم حفيديه سليم الثالث ومحمود الثاني، ثم السلطان عبد المجيد ابن محمود الثاني، وفي عهد عبد المجيد أعلن فرمان التنظيمات عام 1839.

مع كل الذي قيل فربما يُعد غبنًا حقيقيًا إغفال دور امرأة معينة واحدة في توجيه الأحداث التي وقعت في عهدي سليم الثالث وابن عمه محمود الثاني، الوجهة التي تحققت فيها، اسم السيدة هو أيميه دي بوك ريفيري، ولا شك أن عجمة الاسم من جهة، وأنثويته من جهة أخرى، يستدعيان عجب القارئ، خاصةً أن المؤرخين الأكاديميين عندنا قلما ينسبون إلى النساء أي تأثير في مجريات الأمور مع أن الأسلاف لم يغفلوا الإشارة إلى الأدوار الخطيرة التي لعبتها بعض النساء في تدبير شئون الدولة المتعاقبة.

من هي أيميه ريفيري؟

أهي مصادقة أن تكون هذه المرأة بنت عمة جوزفين بوهارنيه زوجة نابليون التي صارت إمبراطورة فرنسا؟!

الحادثة التي تبدو شبيهة برواية سينمائية تتلخص في أن القراصنة الذين كانوا يعملون تحت إمرة حاكم الجزائر وقتئذ بابا محمد بن عثمان، استطاعوا الاستيلاء عام 1784 على سفينة متجهة من فرنسا إلى جزيرة مارتنيك، من جزر ارخبيل أمريكا الوسطى، وكان ضمن ركابها شابة في العشرين من العمر تقريبًا تدعى إيميه دي بوك ريفيري، تعود إلى وطنها بعد إكمال دراستها في دير بمدينة "نانت" بفرنسا، ومعها مربيتها الخاصة، عند الوصول إلى الجزائر قدم جميع الأسرى كعبيد لحاكم الجزائر، إلا "إيميه ريفيري" التي شفع لها جمالها كي تخصص من دونهم، لتكون جاريةً للسلطان العثماني عبد الحميد الأول.

وكذلك حُجبت "إيميه" الفرنسية بأكثف حجاب، وأرسلت مخفورة إلى السلطان في استانبول عبد الحميد الأول ابن أحمد الثالث الذي دار عنه بعض حديثنا أعلاه، وحاول وصولها قصر الحريم، نبذوا ملبسها الغربي واستبدلوه بالأردية الفضفاضة التي يهواها سلطان المشرق الذي ستُهدى أليه، وكان يكبرها بنصف قرن من الزمان!! وأفهموها بأن "أيميه دي بوك" قد انتهتْ وإنها من تلك اللحظة ستكون "نقش" محظية خليفة المسلمين، ظل الله على أرضه، بحسب ألقاب الملك العثماني.

كُتّاب سيرة "إميمة" الغربيين يرون أنْ الشابة الفتية فقدتْ وعيها حالما عرفتْ ما يُراد بها وإنها فكرت بقتل نفسها لولا وجود سيدة جليلة أحاطتها بالرعاية والحنان وأبعدت عن ذهنها ذلك التفكير، تلك السيدة لم تكن غير والدة ولي العهد: سليم، من تلك الساعة نشأت بين

المرأتين صداقة وثيقة لم تنفصم عراها مدى الحياة، فقد جمعتْ بين الاثنتين مصيبة واحدة، فالسيدة الوالدة نفسها تعرضتْ في طفولتها لنكبة مماثلة، كانت تعيش في كنف أبيها القسيس في "جورجيا" فخُطفتْ وأرسلتْ هديةً إلى السلطان مصطفى، الذي جعلها محظيته المقرّبة خاصةً بعد أن ولدت له ابنهما: سليم "السلطان مصطفى هو ابن أحمد الثالث أيضًا",

كان الحريم العثماني يخضع لسطوة جهتين تحكمانه بيدٍ من حديد: تتمثل أولاهما في "سيد البنات" Kizlar Aga وهو الاسم المهذب لرئيس الخصيان الذي ينحصر واجبه في حفظ نساء الحريم ملكًا صرفًا غير قابل للقسمة بين السلطان وأي رجل آخر في الدنيا!! ويحدث أحيانًا أن يقع سيد البنات نفسه في هوى إحدى سجيناته في قصر الرعب، عندئذ يصدر فرمان سلطاني فوري بإهداء الاثنين لقمةً سائغة لأسماك البسفور!!

أما القوة الكبرى الثانية في الحريم فتتجسد في "السلطانة الوالدة"، إذ تدير يدُها جميع الخيوط السرية للمؤامرات الخطرة التي تموج بها قصور السلاطين، وكثيرًا ما أصبح السلطان مجرد لعبة تحركها أصابُع أمهِ، لاسيما في عهود الانحلال الأخيرة حين راحت أوروبا تتوقع احتضار "الرجل المريض" وترسم الخطط لتقسيم ممتلكاته، ويعود جبروت "السلطانة الوالدة" إلى مسئوليتها المطلقة في إدارة شئون "بنات" الحريم المخصصات لمتعة السلطان، وما يقتضيه ذلك من اتصالات وإجراءات بالغة السرية، ثم اضطر السلطان المترهل إلى الاختباء داخل الحريم، لا يخرج منه إلا نادرًا، خشية التعرض

للأخطار المتوقعة، مما كان يزيده اتكالاً على والدته السلطانة التي تؤهلها واجباتُها المنوعة للاتصال بكبار المتنفذين، وأغنياء التجار، وممثلي الجيش الانكشاري...إلخ.

ويجهل غير المطلعين على التاريخ العثماني، أن اغتيال المرشح للعرش كان يصاحبه حتمًا قتل الوالدة، وربما الزوجات والجواري وحتى الأولاد والبنات إذا اقتضت المصلحة، في أجواء مسمومة مثل هذه ليس عجبًا أن يظهر ضربٌ من النساء المنحرفات تمثلهن "السلطانة الوالدة" رمز الكيد والدس والقسوة غير ممكنة التصديق، على أن السلطان كان أيضًا مجبرًا على مصانعة جهتين أخريين بالإضافة إلى الوالدة، الأولى يمثلها الصدر الأعظم رئيس الوزراء، والثانية تتمثل في فيلق الانكشارية المسئولين أساسًا عن سلامة السلطان.

بعد وصول "إيميه" إلى قصر السلطان عبد الحميد الأول بعام واحد وضعتْ ابنهما البكر محمود، وفي عام 1789، قبيل انفجار الثورة الفرنسية بأشهر توفى السلطان العجوز تاركًا محظيته وابنها "سليم" الذي ارتقى العرش بعد وفاة السلطان لأنه أكبر الأمراء العثمانيين الأحياء سنًا.

أحاط سليم الثالث، الأمير الصغير "محمود" بعنايته الخاصة، مثلما حقق لوالدة محمود "إيميه نقش" الحياة الأوروبية التي تريدها، والحقيقة أن السلطان الشاب وجد في هذه السيدة الفرنسية كل ما ينشده أي إنسان في أخلص الأصدقاء: التفهم، حسن النصيحة، قوة الشخصية، الصراحة فضلاً عن الثقافة العصرية، باختصار يرى

كُتّاب السيرة الغربيون أن حماسة سليم الثالث للثقافة الأوروبية تعود إلى تأثيرات "إيميه" وصداقته لها، في ذلك العهد توثقت العلاقات الدبلوماسية والشخصية بين نابليون وزوجته جوزفين من جهة، وسليم وزوجة عمه "إيميه – نقش" من جهة أخرى، كانت الهدايا تروح وتغدو بين القصرين العثماني والفرنسي، وطرود الكتب الفرنسية تدخل الحريم بلا انقطاع، وفي استانبول صدرت في تلك الفترة أول مجلة باللغة الفرنسية، وأقيمت الحفلات الأوروبية المختلطة في القصر السلطاني، واعتاد الدبلوماسيون الأوروبيون أن يجتمعوا في جناح "أيميه – نقش" ويتبادلون الرأي في الشئون العامة والخاصة.

هذه التغيرات الضخمة في مجرى الأمور، لم تمضِ دون ردود فعل مضادة في أوساط القوى المحافظة العثمانية المستفيدة الحقيقية من الستارة المغلقة على المجتمع العثماني، انطلق التحريض أساسًا من "مصطفى" الأمير المرشح للعرش، ووالدته الجركية التي تلتف حولها جميع تلك القوى وعلى رأسها الجنود الانكشارية الذين يرفضون رفضًا قاطعًا لا هوادة فيه أي نوع من الانفتاح على أجواء الحضارة المعاصرة، وكان على السلطان سليم أن يعثر على الوسيلة المثلى للتغلب على جميع أولئك المعارضين الأقوياء، فاستقر رأيه على ضرورة المضي في تجديد البنية العسكرية على الطراز العربي الحديث، مهما كلفه ذلك، وهكذا تم الإعلان عن "النظام الجديد" للجيش مما زاد في غليان الحقد الرجعي فمضى المعارضون يعدون الخطط ويدبرون المؤامرات للإطاحة بسليم.

كانت حملة نابليون على مصر عام 1798 وما أعقبها من ظهور قوة محمد علي باشا، خير ورقة يلعب بها أعداء سليم، ألم يحسن سليم الظن بالفرنسيين وبنابليون على الأخص؟! ها هي مصر أفضل الولايات العثمانية موقعًا، ومن أكبرها حجمًا وغنىً، متناسين خطط نابليون وطموحاته الشخصية التي لا صلة لها بعلاقاته بسليم، أو بأقارب زوجة نابليون: جوزفين، والمقصود بالطبع "إيمية- نقش" بنت عمة جوزفين وأم الأمير محمود، المرشح للعرش بعد مصطفى.

أثناء ذلك مضت "نقش – إيميه" ترقب الأحداث بانتباه شديد، كانت قد أصرت على أن ينشأ أبنها محمود نشأة عسكرية، فتعلم الفروسية على الأسلوب الأوروبي، المخالف للنظرية العثمانية، تحت إشراف مدربين فرنسيين وتدرب على تحمل الشدائد، وتميز بقوة الجنان، وعن طريق ثقافة فرنسية خاصة جدًا، تهذبت طباعه واتسعت آفاقه وتهيأ تمامًا للأحداث الخطيرة الموشكة على الوقوع.

ووقعت الواقعة عام 1807- 1808، فباسم القومية التي اجتاحت بلدان أوروبا مع حروب نابليون بونابرت، هبَّ الانكشارية والرجعيون في تركيا ينددون بنزعات سليم الأوروبية، ويهاجمون "نظامه الجديد" واستطاعوا تأليب جميع القوى المستفيدة من تخلف البلاد، فهاج الناس، وهوجم الحريم، فهرب سكانه، وأُخرج وليُ العهد من سجنه ليرتقي العرش باسم مصطفى الرابع، ثم شرع هو ووالدته الجركية بالانتقام من أعدائهما، قُتل فيمن قُتل رئيس الخصيان ومؤيدوه من أنصار سليم، وخُلع سليم، وسجن مع تابع واحد من أتباعه في غرفة خاصة بالقصر محاطًا بالحراسة، وفي موقع آخر

من القصر حُبس محمود ووالدته، كي يتم قتل الثلاثة فيما بعد حين يحين الوقت.

لكنَّ مصطفى الرابع فاتهُ أن يتذكر قائدًا واحدًا من أشد أعدائه كرهًا له، ذلك هو "مصطفى باشا البيرق دار"، قائد منطقة "رستق" في بلغاريا التابعة وقتذاك للعثمانيين، كان البيرق دار رجلاً مخلصًا لوطنه، معجبًا بسليم، متفانيًا ي الدفاع عن النظام الجديد، وما أن بلغته أنباء الفتنة في استانبول حتى توجه بجيشه القوي دون أدنى تأخير نحو استانبول، وإذ دخل قصر الحريم، أوحشه السكون المطبق فبدأ يهتف باسم السلطان سليم ليطمئن عليه، فتقدم السلطان الجديد مصطفى وصرخ بشماته: إليك سليم، ورمى إليه بجثة سليم المثخنة بالجراح، كان "البيرق دار" قد وصل متأخرًا، لكنَّ "سليم" عرف كيف ينقذ محمود أولاً، فقد وقف يدافع عن نفسه وحده ودون سلاح، كي يهيئ الفرصة لهروب محمود من سجنه، وفعلا فر محمود ووالدته من مدخنة الغرفة، كي ينظم إلى جيش البيرق دار ويقوده للقضاء على "مصطفى"، بعد قليل فوجئ الجميع بمحمود يسير بتؤدة ورصانة، فارتعد أنصار مصطفى، وتخاذلوا حالما شرع محمود يلقي أوامره السلطانية متجاهلاً مصطفى، أمر أولاً بالقبض على مصطفى ووالدته، ثم طمأن "البيرق دار باشا" بأن الانتقام لابن عمه سليم سيكون على يديه هو وحده، بعد ذلك أعلن عرفانه لجميل البيرق دار، وأصدر مرسومًا بتعينه صدرًا أعظم، وكان أهم فرمان يصدرهُ محمود الثاني إعلانه انتهاء الفتنة، وضرورة عودة الحياة إلى مجاريها، كانت هيبة محمود قد فرضتْ نفسها على الجميع، فانصاع العسكر للأوامر، وعاد الجيش إلى ثكناته طائعًا.

ومع ذلك فإن محمود الثاني رغم قوته وجبروته، لم يسلم عهده من الحروب المتواصلة، والفتن الداخلية، شأنه جميع السلاطين العثمانيين المتأخرين، ففي عهد سلفه سليم الثالث، كان الوهابيون قد وطّدوا سلطانهم في أنحاء الجزيرة العربية، وفرضوا مذهبهم عليها، فلا عجب أن يحاول السلطان الجديد في مطلع حكمه، الاستفادة من قوة صنيعته: محمد علي باشا من أجل القضاء على الدولة الوهابية الناشئة، وخلال عقدين من الزمان تقضيا في حروب لا نهاية لها بين جيوش محمد علي والجيش الوهابي، كان النصر على الأغلب بجانب محمد علي باشا، وفي النهاية استطاع المصريون ضم الحجاز ونجد وغيرهما من ولايات الجزيرة إلى الدولة المصرية التي يديرها محمد علي باشا، باسم السلطان العثماني، وبقي الأمر كذلك حتى عام 1840.

من ناحية ثانية كان الظفر الحاسم يسير في أعقاب جيوش محمد على وربيبه إبراهيم باشا حيثما سارا، حدث ذلك في اليونان، وفي سوريا التي ضمها محمد علي إلى مصر ووحدهما تحت حكمة كل ذلك أثار رعب محمود الثاني، وبدأ يستعد للقضاء على هذا المنافس الخطر مما هيأ الفرصة المناسبة لمحمد علي، لإظهار مدى قوته، في عام 1832 تقدم الجيش المصري نحو تركيا، لا يثنيه شيء، حتى بلغ أبواب استانبول، ففزع "محمود" واستنجد بالروس، فأرسل هؤلاء جيشًا لحمايته من المصريين: هنا بادر الإنجليز والفرنسيين بالتدخل وأعادوا المياه إلى مجاريها بين العثمانيين ومحمد علي، وبذلك فوتوا الفرصة على قياصرة روسيا في مسعاهم الدائم يومذاك في تثبيت نفوذهم في الأراضي العثمانية.

لابدَّ لمن يدرس تاريخ هذه الحقبة الزمنية أن يتنبه إلى أن إصلاحات محمد علي وإجراءاته من أجل توطيد حكمه في مصر وسوريا وغيرهما، أجبرت العثمانيين منذ عهد محمود الثاني على اتخاذ مواقف مشابهة، فاتجهوا إلى الإصلاح اختيارًا حينًا، واضطرارًا في كثير من الأحيان، لكن محمد علي باشا كان مؤسسًا لدولة ناشئة، فكان من مصلحته أن بينيها على أسس متينة لا تهزها رياح الدسائس والمؤامرات، لذلك جاءتْ إصلاحاته أصيلة وجذرية لم يقصد منها التمويه أو الخداع، بعكس العثمانيين الذين اطمأنوا إلى "قداسة" حكمهم وأن أحدًا من "رعاياهم" لا يفكر إطلاقًا باحتمال زوال إمبراطوريتهم التي رسخ بنيانها، أكثر من أربعة قرون، لذلك بدتْ إصلاحاتهم دائمًا متكلفة، أو غير مدروسة، لم يقصدوا منها غير كسب الوقت، والتظاهر بالعدل لإسكات المظلومين، مثلما حدث في عهد عبد العزيز، ثم عبد الحميد الثاني، إذ نقضا وعودهما في حماية الدستور وصيانته، بل تحولا إلى الوطنيين ينكلان بهم لمجرد رغبتهما الحقيقية في إنقاذ السفينة قبل غرقها.

يرى المؤرخ "لوتسكي" أنّ محمد علي باشا اتعظ بمأساة سليم الثالث وكيف غدر به الانكشارية لمجرد رغبته المخلصة في نقل بلاده من ظلمات التأخر إلى دور الحضارة، ولذلك بدأ محمد علي بالتخطيط للقضاء على المماليك، القوة الرجعية العظمي المعارضة لأي إصلاح في مصر، ونجح عام 1811 في سحقهم، فلم تقم لهم قائمة من بعد، وكذلك أحس محمود الثاني عام 1826 أن الوقت قد حان لأخذ ثأر ابن عمه سليم الثالث من الانكشارية الغادرين، مستفيدًا من تجربة محمد علي باشا مع أعدائه المماليك، فقام جيشهُ القصري بمهاجمة

الانكشارية وإحراق ثكناتهم ومطاردتهم وحصدهم حصدًا بقسوة شديدة لأنهم مدربون أحسن تدريب، ومعروفون بالشجاعة الفائقة، وكانوا يستعدون للغدر به مثلما فعلوا بسليم من قبل، وكذلك انتهى أمر الانكشارية في تركي مثلما انتهى أمر المماليك في مصر تماماً. ولما كان نفوذ الانكشارية في الأوساط الشعبية يستند إلى دعاية شيوخ البكتاشية الموالين لهم، فإنَّ "محمود" أكمل حملته ضد الانكشارية بملاحقة البكتاشيين، بعد أن أصدر فرمانًا بإلغاء "الطريقة"، ثم أعاد تنظيم أصحاب الحرف "الأصناف" على الأصول الحديثة.

ربما كان تأسيس مدرسة الطب في استانبول والمشتملة على قاعة للتشريح من أهم إصلاحات محمود الثاني، لكنه لم يسلم، بسبب ذلك من هياج المتعصبين واتهامهم له بالكفر والإلحاد لأن يتدخل في "خلقة البارئ"، ومحمود هو الذي أنشأ "الكرنتينه" في استانبول أيام تفشي الطاعون في بالبلاد، مما حفظ أهالي استانبول من الوباء.

وقد عُرف عن محمود الشغف بالفنون، وعشق الموسيقى وتشجيع المسرح، واعتاد هو ووالدته "إيميه نقش" أن يتابعا الحركات الأدبية والفنية في أوروبا بأشد الاهتمام، حتى إنهما ظلا يتعقبان مساعي الشاعر الإنجليزي "بيرون" في مساعدة اليونانيين على التحرر من الاستعمار العثماني، بإعجاب لا يخفيانه!!

ومثل محمد علي باشا، اتجه محمود إلى تجديد الحياة الاجتماعية في تركيا، فأمر بتغيير الزي الشرقي القديم لجميع الطلاب والموظفين مبتدئًا بنفسه، وفي داخل القصور العثمانية أمر بإلغاء المراتب

ورفعها من الأرض، وأمر باستخدام الكراسي والأرائك، كذلك أظهر زهدًا في الاستكثار من الجواري، وكان يعلن حبه وثقته بزوجته المسيحية "بسمة" التي ولدتْ له ستة من الأولاد، ولعل أنبل إجراءات محمود، إلغاؤه لمؤسسة الخصيان المنافية للإنسانية.

ومع كل ما يقال عن اصلاحات "محمود" فإنها تبدو فوقية سطحية إذا ما قيستْ بأعمال محمد علي باشا التي غيرتْ أوضاع مصر وسوريا تغييرًا جذريًا وأساسيًا، فلا عجب أن تقف الدول الغربية الاستعمارية بجانب "محمود" ضد محمد علي باشا!!

ولو قُدر لمحمد علي باشا أن يواصل انتصاراته الساحقة، دون أن تقف في وجهه القوى العظمي لكان لعالمنا العربي اليوم مصير آخر، لكن محمد علي أخطأ في ازدرائه للكتل الشعبية الضخمة متصورًا أن جهالتها تهبه الحق في فرض آرائه العصرية عليها بقوة السلاح، في حين أن الإنسان لا يمكن تغييره عن طريق القوة إطلاقًا، وكان الأجدر به أولاً أن يكتفي بإصلاح شؤونها المادية، وأثناء ذلك يقدم المتنورون على إرشاد الناس إلى الأساليب والأفكار العلمية الحديثة عن طريق الإقناع وليس الإجبار، ولو سلك "محمد علي" هذا السبيل لما اضطر إلى الاستخذاء أمام الساسة الأوروبيين، بل لاستطاع بثقة كاملة أن يحاربهم بأذرع أبناء شعبه، لكنه، شأن جميع الباشوات العثمانيين، اهتم كثيرًا باسترضاء أقاربه ومحاسبيه، موزعًا عليهم المكاسب والأموال والأراضي، في حين ظلتْ الضرائب في تزايد مستمر على أبناء الشعب الفقراء، مما أثار حقدهم فانصرفوا عنه، ولم يرفعوا يدًا لحمايته أثناء الشدة، فكان ما كان، وتحولتْ مصر

المنتصرة بعد فترة قصيرة، إلى محمية بريطانية، وذهبتْ جميع مآثر محمد علي أدراج الرياح مع الأسف.

*** ***

نمو التنظيمات

رغم كل المحاولات المخلصة التي بذلها محمود الثاني من أجل تحديث الدولة العثمانية، فإن جهوده لم تؤتِ ثمارها، بل ربما يصح القول أن مساعيه تلك زادتْ الأمور سوءًا، وأدت إلى تحول بلاده بعد وفاته بقليل، إلى شبه مستعمرة لأوروبا، وربما كان سوء الحظ الذي لازم هذا السلطان مسؤولاً عن الفشل الذريع الذي منيت به سياسته الخارجية، فلقد كان ارتفاع نجم محمد علي باشا في سماء مصر، ضربة قاصمة للظهر بالنسبة لمحمود، وكان حريًا به أن يتعامل مع محمد علي بدهاء وحذر، ولا يسمح لمشاعره الخاصة أن تطغى على المصلحة العامة للبلدين، لكن الكبرياء وربما الحسد تغلبا على جانب الحكمة، فانساق مع مشاعر الغيظ والغضب، وأصدر فرمانًا وصف به محمد علي بالوالي العاصي، مما عجل بقيام الحرب بين الطرفين، الحرب التي كانت في صالح محمد علي تمامًا، إذ كان على أتم الاستعداد لها، في حين لم تكن ظروف الدولة العثمانية ملائمة على الإطلاق، ولو قدر لمحمود ومحمد علي أن يقفا في خندق واحد ضد مطامع الدولة الغربية في تلك الحقبة، لكان مصير العالم العربي قد تبدل تمامًا عما هو عليه الآن.

يرى المحللون أن أهم أسباب ضعف محمود في ذلك الوقت، حملته الدموية ضد فيلق الانكشارية عام 1826 مما فتّ في عضده هو، وكشف ظهره للأعداء، فالمعروف أن الجيش الانكشاري هو في الأساس، القوة الأساسية التي تشدّ أزر السلاطين العثمانيين، والجندي

الانكشاري مدرب أحسن تدريب، ويتميز بالشجاعة والانضباط والتفاني في الطاعة للقواد العسكريين "الانكشاريين" وهكذا فإن القضاء عليهم، والطريقة الوحشية التي تمت بها إبادتهم أوحش قلوب كثير من الناس بما فيهم أنصاره، ومن جهة أخرى فإن زوال قوة الانكشارية مهد الطريق لأعداء محمود للانقضاض عليه في أول فرصة، وفعلاً تقدم محمد علي باشا "نقصد ابنه القائد إبراهيم باشا" نحو استانبول، وهو على أشد ثقة بالنصر في حين وجد محمود نفسه في موقف لا يحسد عليه إذ اضطر إلى الاستنجاد بأعدائه الأوروبيين، "الطامعين أبدًا في الانتقام وفي تمزيق أوصال إمبراطوريته" لتخليصه من خطر القوات المسلمة التي يقودها إبراهيم باشا على أبواب استانبول.

ليس هذا مكان التوسع في تاريخ محمود الثاني إنما نعرف أنه توصل في نهاية المطاف إلى أن الحل الأمثل، والدواء الشافي لجميع أوصاب البلاد العثمانية هو الإصلاح: تغيير الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وتبديل العقلية التي تدير شئون الإمبراطورية، وذلك يقتضي إنقاذ العثمانيين من مستنقع التخلف الذي غرقوا فيه طوال قرون ثلاثة أو أكثر، كي يتهيأ لهم أن يواكبوا حياة أهل العصر الحديث، شأنهم شأن بقية سكان أهل الأرض، وبهذه النية الطيبة استدعى السلطان محمود وزير خارجيته المتنور مصطفى رشيد باشا، المعروف بثقافة أوروبية ممتازة، وذكاء خارق ومكانة سياسية عالية في العالم الدبلوماسي الغربي وقتذاك، واستطلع رأيه في الموضوع فوجد عنده استجابةً سريعةً وحماسًا بالغًا، فورًا باشر مصطفى رشيد باشا، ومجموعة من مؤيديه بين رجال الدولة بإعداد

فرمان "التنظيمات" بحسب الاسم العثماني للإصلاح، وتم كل شيء، لكن التنفيذ تعثر، إذ لم تكن الظروف مواتية بعدُ، وحين كانت انتصارات محمد علي باشا في أوجها، توفى محمود الثاني فجأةً، وعلى غير انتظار عام 1839 وانطوتْ صفحته من التاريخ.

لم يجد ابنه عبد المجيد حين ارتقى العرش وهو ابن ثمانية عشر عامًا فقط، غير المتاعب والأخطار تحيط به من كل جانب، وإذ كان عبد المجيد قد تشبع بروح المدنية الغربية مثل والده، فإنه افتتح عهده بتعيين مصطفى رشيد باشا صدرًا أعظم، ليتم له تنفيذ خطة الإصلاح التي أعدها هذا أثناء حكم محمود الثاني، ولم يقدر لها أن تتحقق في وقتها.

في هذا المقام لابد لنا أن نتوقف قليلاً عند مفهوم أو مصطلح "الحضارة الغربية الأوروبية" محاولين تفهم الدوافع التي حملت دعاة الإصلاح في العهد العثماني المتأخر "منذ القرن التاسع عشر" على ضرورة تبني تلك الحضارة مادةً ومعنى، فبدون توضيح هذه المسألة سوف يتعذر علينا المضي قدمًا في تتبع الأحداث التاريخية التي وقعتْ وقتذاك بصبر أو صفاء نية أو تعاطف.

يقول الأديب التركي المعاصر "سيد كمال قرة على أوغلو" موضحًا هذه النقطة:-

"إن مضمون اصطلاح الحضارة الغربية "لا يختص ببلاد محددة بقدر ما يشير إلى العلم والفلسفة والتفكير والفن والأدب والتكنولوجيا وأسلوب العيش في العصر الحديث، أما "الغرب" فنقصد به المكان

الذي تطورتْ فيه مفاهيم الإنسانية والمدنية وشعارات الحرية الفردية والعامة، في الغرب يسلك الناس بحسب مقولة "لافونتين": هرقل يطالب الإنسان بالحيوية والحركة، وذلك هو طرز الحياة الأوروبية الذي نبتغيه نحن أيضًا حاضرًا ومستقبلاً".

الغربي يعرف كيف يفرّق بين الواقع والمثل الأعلى، الإنسان دائمًا يهفو إلى الكمال، لكن الواقع شيء آخر، الإنسان بجبلته ضعيف، قليل الوعي، ناقص، والكمال عنده طموح، أمنية، رغبة، ربما كان السعي الدؤوب من أجل تحقيقها هو السر في تقدم الإنسان.

ثم أن الإنسان العصري أو المتحضر يرفض الاتكالية والخمول والكسل، ولا يطيق الفكرة العتيقة التي تصر على تقسيم البشر إلى أسياد وعبيد، يترهل السيد ويتبطر ويتخم من جوع عبده وعرق جبينه وعذاب امرأته وأولاده، الإنسان المتحضر يأنف أن يحقق شهواته المنحرفة عن طريق تحويل طاقة من البشر إلى مجرد وسائط وآلات تنفيذ.

لكن ذلك كله هو بالضبط ما حدث طوال عصور التاريخ لجميع الشعوب، ولم تشرع قوانين إلغاء الاستعباد، واستغلال البشر بعضهم لبعض، إلا مع انبثاق فجر العصور الحديثة، حين أعلن فلاسفة الغرب ومفكروه بأنّ البشر جميعًا يتماثلون في الإحساس والشعور بالكبرياء، والطموح إلى تحقيق الذات، وإن كل فرد، مهم في الدنيا، لا فرق بين أبيض وأسود، أو بين رجل وامرأة، أو بين بالغ وطفل، أو بين غني وفقير، أو بين جميل وقبيح...إلخ.

وصحيح بالطبع أن جميع الإيديولوجيات القديمة أكدت على المساواة بين البشر، وأثنت على صفات العدل والمحبة والرحمة...إلخ، لكنَّ القدماء لم يحولوا تلك المفاهيم إلى قوانين ودساتير، بالعكس فكل ثورات العبيد في مختلف أنحاء العالم القديم قُمعت بأشد أشكال القسوة والوحشية، لأن اقتصاد الشعوب كان يقوم على استغلال جهود العبيد، كذلك فإنّ الكثيرين من الفلاسفة القدامى لم يغفلوا عن مناقشة مفاهيم الدولة والقانون والنظام والعقل والمصلحة والفرد والمجتمع، نتذكر في هذا الباب قولاً منسوبًا لعلي بن أبي طالب فهو يرى أن حكومة فاسدة أفضل من لا حكومة، في حين اجتهد أبو العلاء المعري اجتهادا آخر، فهو يعتقد أن الإنسان العاقل لا يمكن أن يقبل الخضوع لحكومة تتدخل في شئونه، وتحرمهُ حرية اتخاذ القرارات "لا عجب أن يتشاءم المعري هكذا، فقد عاصر فساد الحكم الفاطمي والبويهي وإضرابهما".

المتنور إذن يتفق مع الكاتب التركي بشار نايير Nayir حين يقول: "الحضارة الغربية هي الخميرة التي تشكلت فيما قبل التاريخ، ثم تحولت إلى مصر والشرق الأوسط والأناضول واليونان القديمة، ثم انتقلت إلى روما، واستطالت إلى أن ذابت في الحضارات الصوفية للقرون الوسطى، حضارات الخلاص الدينية، وفي عهد الرينيسانس عادتْ الحضارة فاستقرت في أوروبا، ومنها شعت حتى بلغت روسيا والصين واليابان وأمريكا وحتى أفريقيا وأستراليا، مصطلح الحضارة الغربية إذن هو زبدة حضارة العالم على مدى التاريخ، لكننا ننسبها إلى الغرب لأن الغربيين تمثلوا نتاج جميع الحضارات" وأقروا بذلك ولم يزعموا أنهم وحدهم الملمون المختصون بالفضل دون البشر، بل

نسبوا كل فكرة إلى صاحبها، ودرسوا تسلسل المعارف في ملايين المؤلفات وشجعوا العلماء على أن يقولوا كل ما يعرفون ويكتشفون، وقدموا لهم الحوافز المختلفة، ولم يشهروا عليهم سيف القمع والكبت الناشئين في العادة عن الحسد والجبن والطمع، وهي الصفات السلبية اللصيقة بالفرد المتخلف.

يقدم "سيد كمال قرة علي أوغلو" رأيا مفيدًا آخر في هذه المسألة:-

" الأسس الأصيلة للحضارة الحديثة تقوم على مبادئ محددة في رأسها ما يلي:-

*الإنسان يحترم الإنسان.

*الخلق الكريم عادات راسخات وليس مظهرًا خارجيًا.

*العقل القويم يقوم على الملاحظة والاستقراء والمقارنة والتحليل والتركيب، الفرد يتلاءم وينسجم مع الطبيعة Nature بإخلاص وبدون تكلف أو خوف من الأعراف القائمة".

ما المقصود بالتنظيمات؟

التنظيمات هي الاسم العام الذي أُطلق على المرسوم الإمبراطوري "خطي همايوني شريف" الذي أُلقي على عموم الشعب في ساحة "غولهانه" يوم الأحد، الثالث من تشرين الثاني عام 1839 في مطلع عهد السلطان عبد المجيد، ابن محمود الثاني، وألقاه الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا، في ذلك اليوم كان الزحام هائلاً "بحيث لو رُميتْ إبرة ما سقطت إلا على رؤوس المجتمعين"، حضر الاحتفال

كبارُ رجال الدولة، والدبلوماسيون الأجانب، وشيخ الإسلام، والقضاة وأئمة المساجد، وبطاركة الروم والأرمن، وحاخام اليهود فضلاً عن عامة أبناء الملة. تصدر الجميع السلطان "البادشاه" عبد المجيد، إذ جلس مع وزرائه في المقصورة المخصصة له، وحين ارتقي مصطفى رشيد باشا المنصة المعدة له بدا واجهه طافحًا بالبشر، وتهدج صوته انفعالا وحماسة، كتب سفير فرنسا يومذاك، وهو ابن الملك لويس فيليب، وصديق مصطفى رشيد باشا، في مذاكراته الشخصية، واصفًا مشاهداته في تلك المناسبة:-

"مدى حياتي لن أنسى هذا اليوم الاستثنائي، ولا الحشد العظيم الذي ملأ ميدان غولهانه، رغم احتوائه على بعض الحاسدين المغتاظين من تغير الأحوال، وحين مضى مصطفى رشيد باشا يلقي أو يقرأ فقرات المرسوم السلطاني بلهجته الوقور، وصوته الرصين الذي يفيض إيمانًا بالوعود الشريفة التي يتعهد البيان بتحقيقها، بدتْ نبرات صوته حلوةً مؤثرة، مع إني أجهل اللغة العثمانية، ولم أفهم شيئا من مضمون خطابه، أنا على ثقة بأن أي رجل آخر غير مصطفى رشيد، ما كان ليتجاسر أن يعلن هذا المرسوم على ذلك الحشد الكبير الذي جاوز عدد أفراده مائة ألف نفس".

يُجمع الدارسون الأتراك والأجانب، على أن التنظيمات تُعد ثورة كبرى في تاريخ الدولة العثمانية، لأنها غيّرت تركيبة المجتمع التركي، واستمر تأثيرها حتى يومنا الحاضر، على أن هذه الثورة لم تبدأ من القاعدة "الشعب" وتنتهي بالقمة "السلطة" على ما هو المعهود في الثورات الحقيقة كالثورة الفرنسية على سبيل المثال،

وإنما حققها السلاطين العثمانيون، فهي إذن ثورة فوقية إذا صح التعبير، وذلك بالضبط هو عيبها أيضًا، لأنَّ الشعب التركي لم يكن له يد فيها، إذ كان ما يزال يغط في سبات القرون الوسطى "شأنهُ شأنُ كثير من شعوب العالم الثالث اليوم"، وذلك بفضل سياسة التجهيل والانغلاق العثمانية التي استمرت قرونًا.

في رأي الكاتب عصمت غيرتلي Giritli "أنّ فرمان التنظيمات كان رد الفعل الأول لثورة 1789 الفرنسية، داخل الإمبراطورية العثمانية، فهو يعلن تأييد العثمانيين لشعارات الثورة الفرنسية في الحرية والإخاء والمساواة، وقد جاءت التنظيمات ردًا قويًا معارضًا للذهنية التلفيقية المساومة التي طَبعتْ الإدارة العثمانية طيلة فترة سيادتها تقريبًا، لذلك يمكننا أن نصف التنظيمات بأنها خطوة راديكالية جسور، على أنها ظلتْ ناقصة حتى مجيء مصطفى كمال أتاتورك الذي حقق أغلب موادها وبنودها بشجاعته المعروفة".

*** ***

أهم بنود غولهانة خطي

المساواة بين جميع شعوب الإمبراطورية العثمانية دون تفريق.

تأمين الأرواح والأموال وضمان الكرامة لجميع أتباع الدولة.

تأسيس نظام عدل عصري.

إحداث نظام جديد عادل للضرائب.

تنظيم قانون التجنيد على الطريقة الحديثة لدول العالم.

العناية بالتعليم وتحديثه والوعد بنشره بين أبناء الشعب.

سن قوانين جديدة للأملاك والعقارات.

تأسيس نظام للمطبوعات.

وكثير من بنود أخرى تصب في باب الإصلاحات التي يتلهف الناس لتحقيقها، ولو إلى الحد الأدنى، بعد أن طال حرمانهم من حقوقهم لمئات الأعوام في الدولة الهرمة المتهرئة.

بعد إعلان "غولهانة خطي" كتب فيلسوف الوضعية Positivism (11) إلى صديقه مصطفى رشيد باشا الملاحظات التالية:-

(11) فيلسوف الوضعية هو أوغست كومت.

"أرى تركيا تتجه نحو حضارة العصر بخطى جريئة، هذا سيؤدي إلى زوال التعارض القديم بين آسيا وأوروبا، الذي استمر مئات السنين، وإلى إزاحة الصراع الدموي الذي ظل يفني الطرفين طوال عصور الظلمات الوسطى، سوف تتكامل القارتان ضمن حضارة واحدة من الآن فصاعدًا، إن تركية قادرة على تشكيل تركيبة أصيلة تجمع بين المدنيتين الشرقية والغربية، وعليها استثمار هذه الاماكنية بجدّ ومثابرة".

الشاعر التركي الشهير يحيي كمال بياتلي Beyatli يثني على التنظيمات بما يلي:-

"حتى ذلك اليوم ظل شعبنا غاطًا في سبات الغفلة، كان جاهلاً بنفسه، فاقدًا لكرامته، مقلّدًا لغيره من بلدان الشرق العتيقة، لكن التنظيمات أعادت إليه الوعي، فشرع بالبحث عن ذاته ودراسة ماضيه الخاص، واستعادة جذور لغته التركية، التي تنحت عن موقعها في القرون الوسطى للغة العربية واللغة الفارسية، لولا التنظيمات ما كسب شعبنا لغته التركية العصرية".

أما الشاعر والمفكطر المعروف ضياء غوكالب فيصف التنظيمات بما يلي:

"التنظيمات كانت ثورة عظمى أخرجت بلادنا من ظلمات القرون الوسطى، ومن جمود المنطقيين اللاهوتيين، وأدب التكلف والتقليد. على أنّ التنظيمات لم تحقق جميع أهدافها، والسبب قمع الفكر الفلسفي

منذ التنظيمات فصاعدًا، في حين إن الفلاسفة هم القادرون على إيجاد أو اكتشاف الحلول الأصيلة لمشاكل الشعب، ومعوقات التقدم".

نقد التنظيمات

التنظيمات شأنها شأن أية ثورة كان لها سلبياتها وأخطاؤها الناشئة، أما عن نقص التجربة أو سوء التطبيق، أو فساد نوايا بعض المسؤولين، أو تدخل القوى الأجنبية في غير صالح البلاد وهلم جرا يقول أندر كامل بوياجي Boyaci :-

"كانت إحدى أسوأ النتائج التي تمخضت عنها التنظيمات ازدياد نشاط الشركات والجمعيات الأوروبية داخل الإمبراطورية العثمانية" والحقيقة أن بعض تلك الجمعيات كان ذا ضرر عظيم على الدولة العثمانية، لأن معظمها كان يعمل سرًا، ولا يعلن أهدافه الحقيقية، وكان أشد ما يشغل هذه الجمعيات، اجتذاب أهم الشخصيات العثمانية، من سياسيين ومتنفذين وتجار وأدباء وعلماء...إلخ إلى صفوفهم، وتسجيلهم أعضاء في جمعياتهم، وكان أشهر المنتمين إلى محافلهم السرية، مصطفى رشيد باشا نفسه فضلاً عن مدحت باشا، وأنور باشا، وحتى مصطفى كمال فيما بعد، فضلاً عن أدباء التنظيمات أمثال نامق كمال، وشناسي وضياء باشا، وأحمد وفيق باشا وغيرهم كثير، ولما كان أعضاء تلك الجمعيات من الأوربيين، بحكم ظروفهم الملائمة، أكثر خبرة، وأرفع ثقافة عن المتنورين الأتراك، فقد وقع كثير من هؤلاء بين أذرع إخطبوط الشركات والمصالح الأوروبية لاسيما الإنجليزية منها، وبذلك صار لبريطانيا بشكل خاص نفوذ كبير في الدولة العثمانية كان له فيما بعد عواقب وخيمة".

يكمل الكاتب دوغان آوجي أوغلو Avci Oglu الحديث عن سلبيات التنظيمات بقوله:

"إنّ تجربة التنظيمات اشتملت على تناقضات لا حل لتعقيداتها، فمن ناحية، فتحت الإدارة العثمانية أبواب البلاد على مصراعيها للمنتوجات الأوروبية التي تعجز الصناعة التركية الناشئة عن منافستها، ومن ناحية أخرى أكد مصطفى رشيد باشا للسلطان عبد الحميد أنّ التصنيع السريع الناجح يمكن أن يتواكب مع ازدهار التجارة الحرة ومع سياسة الباب المفتوح، في حين تثبت الوقائع بأنّ الانفتاح بدون قيود، لابدّ أن يؤدي إلى انكماش الصناعة الوطنية، وانقراض الحرف المحلية قديمها وحديثها، فضلاً عن زوال جميع المحفزات، وتفشي روح اليأس والتشاؤم، وما يتبعهما من بروز عوامل الاستياء وتبادل عدم الثقة بين الشعب والسلطة".

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل وقعت الطامة عند تراكم الديون الناشئة عن اعتماد العثمانيين على القروض الأوروبية لسدّ نفقات "الانفتاح"، قُدم أول قرض إلى تركيا في عام 1854 على عهد السلطان عبد المجيد بطل التنظيمات، ثم ازدادت الديون أثناء حرب القرم 1854-1856 التي انتصرتْ فيها تركيا على الجيش الروسي بفضل مساعدات بريطانيا وفرنسا، لكن ثمن الانتصار كان باهظًا إذ دفعته الشعوب العثمانية من دماء أبنائها ومن خبزها اليومي.

تلك بعض سلبيات التنظيمات المتسببة عن أنانية البيروقراطيين العثمانيين الذين وضعوا مصالحهم الخاصة فوق مصلحة الوطن، مما كان له أسوأ الانعكاسات في نفوس الكتل الشعبية داخل الأرض

العثمانية إذ تحولت التنظيمات في أعين الناس إلى مجرد مصيدة قصد بها أساسًا ربط الدولة العثمانية بعجلة الاستعمار الغربي الحديث.

ثم أن تشكيل الجمعيات العثمانية السرية في ستينيات القرن التاسع عشر التي كان معظم أعضائها مسجلين في محافل الجمعيات الأوروبية السرية أيضًا، مثل:

1- جماعة "جون ترك لر" أو "تركيا الفتاة"،
2- جمعية "بني عثمان لي لر" أو "العثمانيون الجدد"،
3- جمعية "الاتحاد والترقي".

أدى في المحصلة النهائية إلى تقوية نفوذ التنظيماتيين بين الطبقات التركية المتنورة وقوات الجيش وفئات التجار وبعض الملاكين، مما أثار مخاوف السلاطين العثمانيين المتأخرين مثل عبد العزيز وعبد الحميد الثاني، فليس عجيبًا أن يحاول كلٌ منهما في عهده الالتفاف على الدستور وعلى مكاسب التنظيمات عمومًا، بالتآمر على المتنفذين من أنصار التنظيمات، وقد نجح كل منهما حينًا، لكن النتيجة على أية حال لم تكن في صالح السلاطين، على ما سيرد في هذه الدراسة.

مع كل ذلك فإنَّ التنظيمات لم تحقق أهدافها، ونكَثَ التنظيماتيون من رجال السياسة بكثير من وعودهم، وبدا لكثير من الناس أن المسألة كلها لم تتعد انقراض دولة مستبدة راسخة القدم، لتحل محلها حكومة سيئة أخرى ربما لا تختلف عنها إلا في محدودية عمرها.

*** ***

التنظيمات و الأدب الجديد

أدى تشكّل الطبقة الوسطى، إثر تطبيق التنظيمات إلى توجيه ضربة مدمرة للنظام الاجتماعي في البلاد العثمانية، مما كان له أكبر الأثر في إسقاط الدولة ذاتها، فيما بعد. فمن المعلوم أنّ الطبقة النشطة الصاعدة لابدَّ أن تمتلك وتتبنى وجهات نظر جديدة تعبّر عن مصالحها الخاصة المغايرة والمناقضة في كثير من الأحيان لوجهات نظر ومصالح الطبقات المنقرضة التي مثلها، وهي وقتئذٍ الإقطاعيون المتحالفون مع كبار التجار والمرابين وأضرابهم. وبحكم التكوين المدني للطبقة الوسطى فإنها تتصف في العادة بسعة الأفق والتسامح وتحمل معتقدات الغرباء، وطرائق عيشهم، والقدرة على التكيف، إضافة إلى تطلع أفراد الطبقة الوسطى إلى التعلم، والشغف بالمعرفة، وعدم التهيب من تجربة الآخرين بل الرغبة الحقيقية في الاستفادة منها، إذ يمتلك ابن المدينة الكبيرة، في العادة، مقدارًا من الثقة بالنفس يجعله قابلاً للأخذ إيجابيا، قادرًا في الوقت ذاته على العطاء بدون استيحاش أو سلبية.

وكان من نتائج هذا التطور ظهور تغيرات جذرية في شخصية ابن الطبقة الوسطى المقيم في المدن التركية الكبيرة، خصوصًا استانبول فقد تبدلتْ أحاسيسه وميوله وتطلعاته ومزاجه الشخصي، فكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك في ميادين الأدب والفن والنتاج الثقافي بكامله.

لكنَّ أدب التنظيمات لم يظهر فور إعلان فرمان "غولهانة خطي" لأنّ التبدلات الاجتماعية العظمى لا تنعكس في الأدب والفن إلا بعد مرور فترة التخمر والتمثل الضروريتين، أي بعد مولد الجيل الجديد الذي يواكب استقرار الحياة بعد مرور العاصفة، الجيل الذي لا يعرف غير الأجواء المنعشة المحمّلة بالآمال الوضاءة.

ويمكن القول إنّ نقطة البداية للأدب التركي الجديد تمثلت في صدور جريدة "ترجماني أحوال" التي أشرف على تحريرها أولاً الشاعر المجدد شناسي، إذ ظهر العدد الأول منها في تشرين الأول 1860 وكانت الافتتاحية بقلم شناسي نفسه وورد فيها ما يلي:

"مادام القانون يلزم أعضاء الهيئة الاجتماعية بضروب شتى من الواجبات والتكليفات، فإنّ لهؤلاء حقُّ الإعلان عن آرائهم، والتعبير عن مشاعرهم، وحفظ مصالحهم عن طريق الكلمة والقلم، ولعل أصدق برهان على هذا الحق، ما نراه من تعدد الصحف وتنوعها في البلدان المتحضرة الحديثة، التي لا تكتفي بالصحف السياسية بل تتعداها إلى جميع ضروب النشر في مختلف آفاق الثقافة".

ومع أن شناسي لم يستمر طويلاً في رئاسة تحرير الجريدة، لكنها استمرت في الصدور بإدارة أخرى حتى عام 1895، هذه الفترة تمثل المرحلة الأولى لأدب التنظيمات.

ولكي نعرف نوعية التغيير أو التجديد الذي طرأ على الأدب التركي بعد التنظيمات، يتعين علينا أن نعود القهقرى قليلاً من أجل الحصول

على فكرة عامة عن حالة الأدب في العهد العثماني "والأدب التركي العثماني قد لا يختلف عن أدبنا العربي لتلك الفترة".

يقول الكاتب التركي رؤوف مولتاي في توضيح ذلك:

"استند الأدب التركي طوال القرون الستة التي سادَ فيها العثمانيون على أسس دينية مثالية صرفه مغلفة دائمًا بغلالة صوفية شفافة. ومن المعلوم أن التصوف بكل أشكاله وادعاءاته يستند إلى مذهب الأفلاطونية المحدثة، والإنسان بحسب هذا المذهب المثالي لا يُنظر إليه على ما هو في واقع حاله، وواقع نزعاته وميوله وتصرفاته، وإنما تُرسم له صورة مثالية: كائن أو مخلوق باحث، فطريًا، عن الكمال، هكذا يكون التصوف قد خلق لعامة الناس عالمًا خياليًا وقعوا فيه دون وعيهم أو علمهم، وهم لا يعرفون عالمًا آخر ولا يخطر لهم أن يحاولوا البحث عن واقعية هذا العالم، أصلاً".

"من هنا فإن أدبنا الديواني "الكلاسيكي" ظل يرسم للإنسان وللكون أيضًا صورة الكمال الشامل بحسب مفهوم الأفلاطونية الحديثة، "ليس في الإمكان إبدع مما كان"، واستمر الأدب العثماني يدور في تلك الحلقة المفرغة، مئات السنين بلا ملل ولا كلل، ومثلما حدث في الأدب الأوروبي الكلاسيكي، حين سادت نماذج أدبية وفنية ثابتة، في كل مكان، نماذج غير قابلة للنقد، إذ عُدتْ خالدة ومقدسة تقريبًا، فإنَّ أدبنا الديواني ثَبَّتَ نماذجه وقوالبه وأساليبه وأشخاصه، وقوّلبهم في أشكال جامدة تقليدية فاقدة لماء الحياة تمامًا".

"ولو شئنا أن نفهم هذه المسألة بشكل أوضح، فما علينا إلا أن ننظر إلى الصورة التي رسمها لويس الرابع عشر لنفسه في فرنسا أيام حكمه، إذ جعل نفسه نموذج الإنسان الأكمل، أليس هو الحاكم بالحق الإلهي المقدس؟! هكذا تمامًا عُدَّ السراي العثماني أيام تفتت الإمبراطورية العثمانية وانحلالها، فقد أصبح في عيون مؤيدي السلطة، نموذجًا للنظام الأكمل والأسمى الذي لا يأتيه الباطل من خلفه أو قدامه".

وهذه صورة دقيقة أخرى للأيديولوجيا التي سادت في العصر العثماني، يرسمها الكاتب الأشهر "أحمد حمدي تان بنار":

"إنّ السراي الذي هو منبع الإشعاع بل مصدر الحياة في الدولة العثمانية يلتصق بمفهوم السلطنة ذاتها، إذ يتحرك كل شيء في البلاد بحسب ذبذبات السلطان الفردية الأنانية وحدها، كل شيء في ذلك العالم الرهيب يدور حول شخص السلطان، كل إنسان يهرع إليه ليركع أمامه، وكل مَنْ تقرب إلى السلطان ونال رضاه أو لقي الحظوة لديه، فقد نال عز الدنيا والآخرة، المعنى الحقيقي الذي يتضمنه هذا المعتقد، أنَّ السلطان ما هو إلا صورة ثانية للإله ذاته، من ثم فكلُّ ما في السراي مقدس غير قابل للنقد أو التجريح، والسلطان هو الخير ورأيه مهما شذَّ، فهو الحق الذي لا حق غيره. السلطان ظلّ الله والسراي من ثّم يسير بنظام إلهي ثابت، حتى الطبيعة في العالم العثماني ليست إلا انعكاسًا لإرادة السلطان ونزواته، الحب، العقل، الحيوان، النبات، نظام الكون، الوجود ذاته، بل حتى آدم نفسه، كل ذلك يجسده شخص السلطان "شبيه الإله".

"إن هذه الأفكار المغالي فيها، انعكست على عالم الحيوان والنبات أيضًا، فكلُ شيء في الدنيا يقوم على نظام المملكة، هناك دائمًا رعية وملك سلطان!! هذا المفهوم لم يقتصر، على أية حال، على الأدب العثماني، بل نجده واضحًا في جميع آداب القرون الوسطى دون استثناء، ففي عالم الحيوان يقوم الأسد الغضنفر مقام الملك العظيم، وفي عالم الزهور تشمخ "الوردة" كملكة مستبدة لا مراد لسلطانها لأنها ربة الجمال المتفردة بالحسن!! أما أدباء أوروبا القروسطيون فقد عدوا شجرة البلوط "ملكة" جميع الأشجار، ولم يتخلف الأتراك عن اختيار "سلطانة" لجميع الأشجار المعمرة فتوجوا شجرة "الجنار" ملكةً خالدة، ومن تعّظيمهم لها، شبهوا بها الشيخ أو المرشد الصوفي الذي هو المنافس الأخطر للملك الإله، لأنّ الشيخ هو ملك الأرواح في حين يُعد السلطان ملكًا للأبدان".

"وفي دنيا العشق، استعاروا للحبيب صفات السلطان ونعوته، المعشوق هو "ملك القلوب" والوردة هي "رسولة" العشاق" والشمس هي محبوبة النجوم، السلطانة المحرقة، إذا شاءت، لكل العالم، والصوفي يرى في شيخه "شمس" الحقيقة المطلقة، وكذلك يتفرس الرعايا الخاشعون في محيا السلطان فتشع أنوار الشمس منه، ويمنّ بها عليهم بعظمة وكبرياء!".

"المعشوق في الأدب العثماني يمشي بتؤدة، متهاديًا بدلال مثل السلطان صاحب الجبروت والشأن، أما البرهان الأكيد على سلطنة الأسد في عالم الحيوان، فهو وجهه المدور المماثل لدائرة الشمس!".

"فلندقق في صورة "الحبيب" العثماني، إنه مثل السلطان لا يعبأ أو يلتفت لأحد، في حين يتهافت الكل على التقرب والتزلف إليه، والمحظوظ مَنْ نال منه نظرة واحدة، الحبيب يهب أو ينعم بالوصل على من شاء، كلما شاء، يغضب إذا شاء، ويهجر إذا أراد دون سبب أو عذر، مثل السلطان يجوز، يعذب، يقتل بسهام رموشه، والعاشق الذليل كله رضًى ونشوة، الحبيب مثل السلطان يحسده الناظرون، لكنه مكتفٍ بذاته وبعزته، باختصار، العشق في الأدب العثماني عبودية! تعكس بشكل دقيق، نظام الحكم الفردي المستبد".

"إن أجدادنا المساكين الذين اعتادوا على أشد الأهوال في ظروف الظلم والخراب المميزين للحكم العثماني، وقنعوا بحياة الزهد والكفاف، بمفاهيم رواقية، تقوم على فضيلتي القناعة والصبر، لم يتذوقوا طعم الحياة، ونكهة حلاوتها، وذلك أبسط حق من حقوق الحيوان، أولئك الأجداد لم يرتبطوا بالحياة، إذاً ماذا عرفوا من الحياة غير الاسم؟ كان ارتباطهم بالموت هو الأقوى، وكلّ طقوسهم المتصلة بالموت تثبت ذلك الارتباط وتجسّمه، فإذا خيل لأحدهم أنه وقع في العشق، بادر إلى النواح والتفجع والشكوى وبالغ في ذلك إلى حد الخروج تمامًا عن معنى تلك العاطفة بمعناها المعروف، وليس من عجب في ذلك، ذلك أن الأسلاف لم يُمنحوا حق الإحساس بالمعروف أو الأحاسيس الصادقة، ولو عرفوها ووقعوا تحت تأثيرها، ما استطاعوا الصبر على هوان واقعهم الفظيع".

هَيَّأ ازدهار الطبقة الوسطى، بعد التنظيمات، الفرصة لظهور إنسان يفكر بطريقة مغايرة لابن العصور الوسطى، والعصر العثماني

بعدها. فبدلاً من مفهوم "المكتوب على الجبين" السائد طيلة تلك العهود، انبثقت في العهد الجديد، فكرة الإرادة الفردية الحرة، وبدلاً من فكرة "الانسجام" السكونية المعارضة للفكر العلمي، برزت النظرة الحركية الدينامية الجدلية، وبدلاً من الفرد مقطّب الجبين المتوجس شرًا، المنغلق على ذاته، برز المواطن الواثق من نفسه المتفتح لتجارب جميع البشر، المتفهم الواعي الإيجابي الفعال.

لا عجب إذن أنْ يعكس الأدب، بعد التنظيمات كل هذه الأفكار والتوجهات الجديدة الغريبة تمامًا عن كل التراث القديم، وأن يشرع أدباء التنظيمات في محاولة رائدة لتحطيم قوالب "الأدب الديواني" التي لا تناسب المفاهيم الجديدة، ولا مشاعر ونزعات أبناء التنظيمات والأجيال التي نشأت بعد تلك الثورة.

لكنَّ التغيرات في ميدان الأدب لا يمكن أن تتفجر فجأة في شكل عاصفة مدمرة عنيفة، على الصورة التي تتم بها في دنيا السياسة، لأنْ اللغة، التي هي أداة الأدب ووسيلته، تخضع لشروطها الذاتية، التي قد لا تتماشى حتى مع نزعات المبدع نفسه، أحيانًا، ولا بد للكاتب والشاعر من مراعاة نفسية القارئ والسامع "المتلقي" والاهتمام بمزاجه، وإلا انقطعت الصلة المرهفة بين الطرفين، وتلك أخطر صفعة يتلقاها المبدع، وما عليه بعدها إلا أن يغير ويصحح الأخطاء التي سببت تلك القطعية.

إن استجابة "المتلقي" تخضع هي الأخرى لشروط لغوية وفكرية واجتماعية وحضارية ذات صلة بالزمان والمكان والمزاج العام لمجموعة قراء ذلك الإنتاج الأدبي. هذا المزاج العام أيضًا يستند إلى

تراث أدبي لغوي طويل يمتد إلى عهود قديمة، إضافة إلى صلته الواضحة بوقائع الحياة الحاضرة وتطلعاتها التي لا حدود لها.

وإذ فهم أدباء التنظيمات هذا كله، فإنهم وجهوا أشد عنايتهم إلى ثلاثة فنون أدبية أساسية هي: الترجمة، الصحافة والمسرح.

ووضعوا في مقدمة أهدافهم إيجاد لغة جديدة بسيطة ومفهومة، يتقبلها الجميع ويتذوقونها دون نفور أو اشمئزاز، كان عليهم أن يوجهوا الأدب المكتوب بهذه اللغة الجديدة إلى جميع طبقات الشعب التركي، الخواص والعوام، أبناء المدن وسكان الأرياف، أصحاب الحرف وفقيرات النساء، التجار والصناع، المثقفين والجهلاء أو الأميين من جياع الفلاحين في القرى النائية، ولم يكن هذا بالمشروع السهل، مثلما يبدو في ظاهره، لكنّ أدباء التنظيمات أبدوا أشد الإخلاص في تحمل هذا العبء وأداء أثقاله بلا مَنٍّ ولا أذى، بلا غرور ولا تبجح، ذلك أن هؤلاء الأدباء كانت تجمع بينهم أمور كثيرة منها الصداقة الشخصية القائمة بينهم، ومنها حماسهم الشديد لإنجاح التنظيمات، وإتقان أغلبهم للغة أوروبية واحدة على الأقل، إضافة إلى العربية والفارسية، عدا التركية، كانوا جميعًا شديدي الإعجاب الحضارة الأوروبية إذ عاش أغلبهم سنوات نفي طويلة في بلدانها، وفيما عدا هذا كله، فإن أدباء التنظيمات آمنوا بلا استثناء بنظرية أو مذهب "الفن للمجتمع" إذ اعتقدوا بأعمق الثقة، بأنّ الفن والأدب قادران على تغيير نفوس الناس تغييرًا جذريًا قد تفشل فيه أية مؤسسة أخرى.

هذه الخصائص التي ميّزت أدباء التنظيمات ساهمتْ بالفعل في التوفيق الذي حظيتْ به جهودهم النبيلة، فانتشرتْ المؤلفات الأوروبية

التي ترجموها من الفرنسية، في الأغلب، ومن الإنجليزية والألمانية والروسية، في كل المدن التركية، وازدهر المسرح الذي كتبوا له بوفرة، وترجموا من أجله مسرحيات غربية كثيرة منوعة، وتعددتْ وبشكل هائل، الصحف التي أصدروها وحرروها بأقلامهم، حتى وصلت المئات في فترة لا تزيد عن ربع قرن، هذه المساعي الكبيرة أدت في المدى البعيد إلى تقليل الفجوة بل محوها تقريبًا بين لغتي العوام والخواص في الأدب التركي الجديد، وتم لأدباء التنظيمات إيجاد أو خلق لسان تركي مشترك يجمع كل فئات الشعب الواحد، رغم كل الفروق القائمة فعليًا بين طبقاته.

هذا النجاح الباهر، الذي قيض لأدباء توحيد لغة الشعب التركي، وخلق الأدب الجديد الذي ساهم في صنع الظروف الملائمة التي مهدتْ لثورة كمال أتاتورك، بعد الحرب العالمية الأولى، لم يغب عن بال زعيم تركيا الحديثة إطلاقا، فكان من دأبه التذكير بمآثر التنظيماتيين، وإخلاصهم لمبادئهم التي اقتبسوها من شعارات الثورة الفرنسية العظمي، لاسيما مبدأ "الحرية" الذي كان له، في نفوس ثوار التنظيمات، موقع عظيم، لتأثرهم بفلاسفة التنوير الفرنسيين في القرن الثامن عشر أمثال فولتير، ومنتيسكيو، وديدرو، وروسو...إلخ.

وإذ أدرك أدباء التنظيمات أهمية تكوين عادة المطالعة لدى المواطن العادي فقد حرصوا على تخصيص صفحات كثيرة من جرائدهم لبحث الأحداث اليومية، وإلقاء الأضواء عليها، ونقد ما يحتاج منها إلى النقد، وبعكس الأدباء الديوانيين القدامى الذين لم يكن يُنتظر منهم غير التزلف ومجاملة السلطان وبطانته، من أجل كسب رضاه أو

لتجنب نوبات غضبه المتقاربة، فإن التنظيماتيين بذلوا جهودًا مضنية لتدريب عموم القراء على تذوق الآثار الأدبية، والارتقاء من ثم بملكاتهم الفنية، وكل ذلك يساهم، في المدى البعيد، في عملية تهذيب الأخلاق وصقل الطباع، المنشود.

في المرحلة الأولى لأدب التنظيمات 1860-1895 اتجه الأدباء إلى اقتفاء آثار المدارس الأوروبية الحديثة التي أعقبت الثورة الفرنسية العظمى وفي مقدمتها المدرسة الرومانسية، فالكلاسيكية الحديثة، فالمدرسة الواقعية ثم المدرسة الطبيعية، ولاحقاً الرمزية ثم البارناسية وهلم جرا، لقد مثّل هذه المدارس في تركيا، كلّ من: أحمد مدحت أفندي ،الصحفي الأديب الذي أصدر جريدة الزوراء في بغداد، برعاية الوالي مدحت باشا، ونامق كمال وشناسي وضياء باشا ورجائي زاده محمود أكرم وعبد الحق حامد وغيرهم من أشهر مبدعي عهد التنظيمات وأشدهم إخلاصًا وحماسًا لنجاح ثورة التنظيمات.

من المهم أن نشير هنا إلى أن هؤلاء التنظيماتيين لم يفكروا في تلك المرحلة، بالثورة ضد العثمانيين، ولم يخطر لهم شيء من هذا القبيل، بالعكس كان همهم محصورًا في كيفية "إنقاذ السفينة العثمانية من الغرق"، ولا شك أن موقفهم هذا كان ناشئًا عن حسن ظنهم بل إعجابهم بالسلاطين العثمانيين الذين آمنوا بالتنظيمات ثم حققوها،

وفي مقدمتهم شهيد التنظيمات: سليم الثالث الذي أثنى عليه العلامة العربي الأب لويس شيخو اليسوعي (12) بقوله:

"كان من أفضل ملوك عصره، دمث الأخلاق، مغرمًا بالآداب، محبًا لترقية رعاياه في معارج الفلاح"، ثم السلطان محمود الثاني الذي اقتفى خطى ابن عمه سليم، وتجاوزه، حين نجح في تجديد الحياة في المجتمع العثماني، على الرغم من فشله في الميدانين: السياسي والعسكري، على ما أشرنا إليه في أول الدراسة، وأخيرًا السلطان عبد المجيد، ابن محمود الثاني، وفي عهد عبد المجيد صدر قانون "غولهانة خطي هامايوني شريف" بجهود وزيره المتنور مصطفى رشيد باشا، وبذلك تحققتْ "التنظيمات" بحسب رغبة أولئك السلاطين.

والواقع أن جميع القوى المتنورة الممثلة للبرجوازية الناشئة وقفتْ بقوة مع سلاطين التنظيمات، وفي صف أدباء التنظيمات وفكرهم في حين نشط أنصار القديم من مؤيدي سياسة الغدر المعادية لمصالح عموم الناس، السياسة التي اتبعها السلطان عبد العزيز في أواخر عهده، ثم السلطان عبد الحميد الثاني، أنبرى أولئك السلفيون يشتمون حركة التجديد باسم المقدسات، ويحاولون إيقاف حركة التاريخ عبثًا، ذلك أنّ الدولة العثمانية كمؤسسة، كانت قد فقدتْ ضرورة وجودها، وما كان أحد أن ينقذها مهما حاول ومهما بذل من جهد، ومعلوم أنّ

(12) الآداب العربية في القرن التاسع عشر – بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين 1908.

الحياة لم ترجع يومًا إلى وراء، لأنّ الطبيعة ذاتها ليس فيها دعوة إلى ما وراء".

على أن انتشار مفاهيم الثورة الفرنسية لم يقتصر وقتئذٍ على تركيا فحسب، وإنما تجاوبت شعاراتها في أغلب الولايات العثمانية مثل مصر ولبنان واليونان وبغداد وصربيا...إلخ، ومثلما فعل محمد علي باشا في مصر بتنظيم البعثات العلمية إلى أوروبا، أرسل السلاطين العثمانيين إلى هناك، ومن أوائل هؤلاء: الشاعر شناسي، الذي تعرف في فرنسا بالمستشرقين، وعن طريقهم فهم كثيرًا من أسرار السياسة العثمانية، التي لم يتح له وهو في وطنه أن يعرفها، ثم تهيأ لزملائه من أحرار أدباء التنظيمات "بعد هروبهم إلى أوروبا في عهد عبد العزيز وعبد الحميد الثاني"، أن يعرفوا مدى تخلخل بنيان الإمبراطورية العثمانية، وعمق الهوة الثقافية القائمة بين شعوبها، وشعوب العالم المتمدن الحديث، فلا عجب أن يحرصوا بشدة على وجود الصحافة وعلى حرية الصحفيين، إذ علمتهم تجاربهم في أوروبا أنّ حرية الصحافة عماد الديمقراطية، وبدون الصحافة الحرة لا يوجد وطن حر.

لكن "شناسي" حين عاد إلى استانبول، وجد نفسه عاجزًا تمامًا عن كشف المعلومات التي تجمعتْ لديه حول أوروبا وهم الذين رقدوا مئات السنين في عوالم الانحطاط والظلمات، في حين سمح محمد علي باشا للمبعوثين المصريين أن يؤلفوا وينشروا كثيرًا من المعلومات الجديدة التي توضح لأبناء وطنهم كل ما يجب أن يعرفوه عن أنفسهم وعن مصالحهم التي كانت في عالم الواقع لعبة، مجرد لعبة لا أهمية

لها في عيون ساسة الغرب، يعبثون بها كيفما شاءوا، مادام الشرق غارقًا في عماه وغفلته لا يريد أن يستيقظ ولا أن يدافع عن نفسه.

*** ***

نثر التنظيمات

بعد إنهاء الشاعر الأشهر يحيي كمال بياتلي دراسته في باريس في عشرينيات القرن العشرين صرّح في إحدى المناسبات بما يلي:

"نحن أمة محرومة من أي تراث في فني الرسم والنثر، هذا القصور الشنيع مسئول بلا ريب عن عدم مساهمتنا، نحن الأتراك، في بناء أسس الحضارات القديمة، إن أجدادنا الذين لم يدركوا قيمة الرسم كفن من أهم الفنون، لم يكسبوا غير حرمان أنفسهم وحرماننا نحن أخلافهم من صورهم الشخصية بل صور أقرب آبائنا وأمهاتنا، نحن كذلك لا نملك صور مدننا القديمة وصور ملابس الأسلاف وقصورهم وأمتعتهم ومختلف منشآتهم، صور معاركهم الشهيرة وأبطالهم العظام الذين مجّدتهم مؤلفاتهم بلا تعب ولا كلال".

"ولم يكن حال نثرنا التركي بأفضل من وضع الرسم، فقد ظل النثر عندنا طوال القرون الوسطى عالة على الأدب العربي مستمدًا من اللغة العربية جميع قواعدها النحوية والصرفية والبلاغية، فلا عجب أن يبقى الأتراك بلا أدب أو نثر فني يمثلهم ويعكس أفكارهم وهمومهم وأحاسيسهم، ومما ساهم في تعقيد الأمور أنّ الشعر التركي اقتفى أثار شعراء الفرس بعزم وإصرار، وهكذا صار المتأدب التركي يفكر بمنطق اللغة العربية ويحس وينفعل بعواطف الشعراء العجم، ما أثر في تشكيل الشخصية التركية ذاتها، فبقيت طيلة العهود القديمة شخصية مهزوزة ضعيفة غير ناضجة، ولك يكتب لهذه

الشخصية ان تجتاز عهد الطفولة والتهافت إلى مع حلول عهد التنظيمات" . (13)

أدى اعتماد الأدباء الأتراك على النثر العربي إلى النتيجة المؤسفة التي وصل إليها الأدب العربي ذاته في عصور انحطاطه "الفترة المظلمة"، فانهمك الأدباء الترك الديوانيون مثل زملائهم العرب لذلك العهد في حشو عباراتهم بالمحسنات البلاغية الباردة التي تعتمد على المنطق الرياضي والمقاييس العقلية أكثر مما تستلهم المشاعر أو تحرك النفوس، وانصرف الجميع إلى الزخارف والبهارج الشكلية دون بذل عناية للمضمون والجوهر وبذلك ، فقد الأدب ماء الحياة، وتحو إلى مادة متفسخة لا صلة لها بدنيا الناس ولا باتجاهات المجتمع.

ظل الأدب التركي الديواني جامداً على قوالبه وأساليبه، منطويا على نفسه، ولم تظهر أية محاولات مهما قل شأنها، من أجل التغيير والتجديد في هذا العالم المغلق الراقد في دياجي العمى والغفلة، شأنه شأن المجتمع العثماني ذاته، الأمر الذي كان يتوافق تماما مع مصالح السلطنة العثمانية الحاكمة.

---

13. للغة التركية أصواتها ,ابنيتهلا وتراكيبها وخصائصها الذاتية المخالفة لية لغة أخرى، شأنها شأن جميع اللغات، وهذا هو سر إصرار الأتراك في العصر الحديث على تخليص لغتهم من تأثيرات العربية والفارسية.

ولما كانت الصحافة إحدى أهم الأسلحة الحديثة في تغيير المجتمعات، فقد وجّه أدباء التنظيمات جل اهتمامهم نحو الصحافة محاولين ابتداع أساليب نثرية جديدة تناسب هذه المؤسسة الشعبية الخطيرة، وبدأوا بتجريد عباراتهم وجملهم من ألفاظ الحشو التي اعتاد القدماء على ترقيع كلامهم بها بمناسبة وبغير مناسبة، وتجنبوا استخدام المحسنات البديعية والبيانية إلا في مواضعها، ونبذوا عادة الإسهاب الممل الذي يفقد العبارة فحواها وفائدتها ورشاقتها، واعتمدوا الإيجاز أسلوبا نافعاً، يدخلون بواسطته الموضوع مباشرة دون لف أو دوران.

وأدخل أدباء التنظيمات قواعد التنقيط الحديثة في النثر التركي (وهي القواعد الغربية نفسها المستخدمة اليوم في اللغة العربية)، واصروا على مخاطبة القراء بلغة الحديث اليومي الذي يفهمه عامة الناس وخاصتهم.

أهم من ذلك كله أن أدباء التنظيمات شرعوا ينقلون إلى أبناء وطنهم أفكار الناس وشؤونهم المختلفة في العالم الخارجي، ويفصلون لهم الأحداث الجارية في بلدان أخرى ليطلعوا على التطور الهائل الذي طرأ على حياة الناس في العالم المتحضر.

الناس الذي كانوا يعيشون ظلمات السجن العثماني خاملين، قد يصيب بعضهم العشو لو طلع في نهار الحضارة الحديثة، مثلما تصاب الخفافيش بالعشو في نور الشمس.

من ناحية أخرى اتجهت روايات التنظيماتيين ومسرحياتهم ومقالاتهم وأخبارهم الصحفية نحو وقائع الحياة اليومية، وليس إلى مثاليات

الأوهام والأساطير وحكايات الجن، والعفاريت التي كان يموج بها الأدب الديواني القديم، ولم يكتفوا بذلك بل مضوا يشرحون للناس عوامل التقدم وأسباب العمران، مما اجتذب جماهير القراء في وقت قصير، ونفذتْ أعداد الصحف الصادرة بسبب نهم القراء وإقبالهم الشديد على الصحف والمجلات، فكان النجاح حليف جميع الصحف التي تُعنَى بمصلحة عامة الناس ولا تحصر اهتمامها في دائرة بطانة السلطان، ونخبة أدباء السراي، الذين يساعدهم الفراغ والبطر على تعلم اللغات الشرقية السائدة وقتئذ في البلاد العثمانية، في حين تبقى الكتل الشعبية الواسعة محرومة من أبسط حقوقها في التعليم، فكانت الأمية هي القاعدة، والمعرفة هي الشذوذ في العهد العثماني.

أشرنا فيما سبق إلى أن أدباء التنظيمات اعتنقوا مذهب الفن للمجتمع، لأنهم تأثروا بالمدارس الفرنسية التي أعقبت الثورة الفرنسية الكبرى عام 1789 لاسيما بالمذهبين الرومانتيكي والواقعي كذلك أدى اطلاع التنظيمات على فلسفة الفلاسفة التنويريين في فرنسا أثناء القرن الثامن عشر، إلى تشربهم بمبادئ الثورة الفرنسية لاسيما مبدأ "الحرية" ومبدأ "المساواة" فلا عجب أن تعلوا أصواتهم مطالبة بالعدالة الاجتماعية، ونشر التعليم ومحاربة الفكر الظلامي، ومضت الأقلام الصحفية تؤكد على مفاهيم الحرية والديمقراطية، وأعلن كل من نامق كمال وشناسي وضياء باشا، أشهر أدباء التنظيمات، في جميع أثارهم الأدبية بأن الأدب يجب أن يتمشى مع مصلحة الناس وليس ضدها، وإن الحرية الفردية والحريات العامة هي أسمى أهداف الإنسان والمجتمعات السعيدة.

على أن الأمور لم تبق على حالها في أواخر عهد السلطان عبد العزيز "1861- 1876" الذي حاول الالتفاف على جميع مكاسب التنظيمات وعادى أبطالها، ولذلك تَمَّ خلعه، وارتقى عبد الحميد الثاني العرش بعد أن وعد وأقسم على المحافظة على روح "التنظيمات"، وتحقيق المشروطيه الأولى "الدستور"، كذلك أشرنا فيما سبق إلى نقض عبد الحميد الثاني لجميع وعوده متذرعًا بالحرب التركية الروسية 1877- 1878 فكان ما كان من نكسة للتنظيمات وأهلها الذين اضطروا إلى الفرار والإقامة في البلدان الأوروبية المختلفة، لاسيما فرنسا وبريطانيا حيث شرعوا بتقوية أنفسهم عن طريق تشكيل جماعة العثمانيين الجدد "جون ترك لر" وإصدار مجلاتهم الثورية المعادية للدولة العثمانية الحاكمة مثل مجلات "عبرت" و"حريت" و"تصويري أفكار" و"المخبر" وغيرها، وهي المجلات التي ساهمت في إسقاط هيبة الحكم العثماني في عيون أبناء الطبقة الوسطى على الأقل، وساهمت في خلق أو تمهيد الطريق لظهور تركيا الحديثة .

وكان من أهم أعضاء هذه الجمعية من الأدباء كل من:

ضياء باشا- نامق كمال- أغا أفندي- سعد الله باشا- أبو الضياء توفيق وغيرهم.

*** ***

شعر التنظيمات

ربما صح إدخال شعر التنظيمات في باب النثر المنظوم، لشديد عنايته بالمحتوى والمضمون والجوهر، ولقلة احتفاله بالشكل والصورة مما قل من قيمته الفنية بمعنى من المعاني، ولأنّ شاعر التنظيمات نزل إلى الشارع مخاطبًا عامة الناس وخاصتهم، فقد صار يبحث عن صيغ شعرية جديدة، منقطعة الصلة بالأشكال والقوالب الشعرية العتيقة، أما الشعر العثماني القديم "قبل التنظيمات" فقد أشرنا سابقًا إلى أنه يتفرع إلى فرعين أحدهما الشعر الديواني، الموجه للنخبة من المتعلمين المنضوين تحت راية السراي وذوقه، والفرع الثاني يمثله الشعر الصوفي ويسمونه شعر العشق "العشق الإلهي" وهذا الشعر هو الذي استقطب مختلف ضروب الشعر الشعبي، إذ كانت الطرق الصوفية تتغلغل في جميع طبقات المجتمع التركي العثماني وتتحكم حتى في ميولها وأذواقها الخاصة.

إن إصرار أدباء التنظيمات على تجريد نفوس الناس من عقدة القرون الوسطى أوصلهم إلى الاستنتاج التالي، وهو أن الشعر القديم، بنوعيه: الديواني والصوفي، لم يعد يفي بمتطلبات العصر، وإن أصلح أداة تعبير عن للشعر هي لغة الكلام اليومي، الذي يدور حول مواضيع الحياة الاعتيادية، لأنه في متناول فهم الجميع ومن ثم فهو قادر على إشباع أذواقهم، هكذا انصرف شعراء التنظيمات: نامق كمال وشناسي، وضياء باشا وغيرهم عن بهارج الصنعة البلاغية

ومحسنات الكلام المصنوع إلى العناية الشديدة بالمضمون، بنقل الأفكار وتصوير المشاعر، وتحريك النفوس.

نامق كمال على سبيل المثال، شدد على مفاهيم البطولة والفداء من أجل حرية الوطن، وحارب روحَ العجز والاستسلام التي ميزتْ رعايا الدولة العثمانية لاسيما في عهد انحلالها، في حين دعا عبد الحق حامد طرخان، مواطنيه إلى التفاؤل موجهًا أنظارهم إلى بدائع الكون وعجائب الموجودات، ولفت الانتباه إلى تباين الكائنات واختلاف الأفكار وتباعد غايات البشر في شتى أنحاء الأرض.

أما عبد الحق حامد فقد أثار الأفكار الفلسفية التي لم يتجاسر الشعراء الديوانيون قط، أن يتطرقوا إليها، خشية إغضاب السلاطين والمطبلين المزمرين لهم. أما المعلم ناجي فقد سعى إلى تقديم المدرسة الكلاسيكية الجديدة إلى الشعر التركي.

كل ذلك استدعى نبذ قيود الشعر القائمة على العروض العربي والأوزان الفارسية المضافة إليه، بل إلى إعلان الحرب على القواعد الشعرية الراسخة، من وزن وقافية وهياكل وأبنية...إلخ، ولكي يتهيأ النجاح لهم في هذا الميدان، التفتوا إلى الشعر الغربي، والفرنسي منه بشكل خاص، يقتفون خطاه، ويتابعون المدارس والمذاهب الأدبية الأوروبية الجديدة، بلا ملل ولا كلل، أضف إلى ذلك أنهم، شأن الشعراء الرومانسيين راحوا يستلهمون الطبيعة ويتأثرون بفن النقد الأوروبي، ولم يغفلوا عن إدخال المضامين والأفكار العلمية في أشعارهم على غير عادات الشعراء الديوانيين.

ومما حرص عليه شاعر التنظيمات، وحدة الموضوع في القصيدة على طريقة الشعر الأوروبي، على الضد من الشعر الديواني القديم الذي لم يعرف غير وحدة البيت على طريقة الشعر العربي الكلاسيكي، كل ذلك يفسر إعجاب كمال أتاتورك وشعراء العهد الجمهوري، بأدب التنظيمات، وسر اتخاذهم إياه نموجًا أو منطلقًا تبدأ منه رحلتهم الفنية الجمالية.

*** ***

أشهر صحف التنظيمات

اسم الصحيفة باللهجة التركية	موعد صدورها أول مرة
1- ترجماني أحوال	1860
2- تصوير أفكار	1862
3- مخبر	1866
4- حريت	1868
5- حقائقي وقائع	1870
6- عبرت	1870
7- سراج	1873
8- دور "أي العصر"	1872
9- ترجماني حقيقت	1878
10 مجموعتي أبو ضياء	1879..إلخ

أما أهم محرري هذه الصحف فهم الأدباء:

شانسي- نامق كمال- ضياء باشا- أحمد مدحت أفندي- شمس الدين سامي- أبو الضياء توفيق...وغيرهم كثير.

ربما يمتعنا أن نسمع في نهاية هذا الفصل أقوال بعض مشاهير العالم فن الصحافة.

1- يقول الرئيس جيفرسون:

أفضل أن أكون مديرًا لصحيفة بلد لا حكومة له، على أن أكون رئيسًا لحكومة بلا صحافة.

2- ويقول العالم الشهير باسكال:

وجد الإنسان لكي يفكر، لكنّ التفكير الذي لا يسمح له بالانتشار، يبقى كالشجرة غير المثمرة، إنّ خنق الصحافة يعني محق الضمير وموت العلم وذبول شجرة الحرية.

3- ويقول الثائر الفرنسي ميرابو: "حرية الصحافة أم الحريات جميعًا".

*** ***

نماذج من أدب التنظيمات

1- نامق كمال 1840 - 1888

من قصيدة "الحرية" :

حين وجدنا الأحكام القانونية "منحرفة" عن سبيل الحق انصرفنا بإباء عن أبواب الدولة ذات العز والإقبال.

مُعينُ الظالم في هذه الدنيا لن يكون إلا من أهل الدناءة، شأنه شأن الكلب الذي لا يملك غير الجري وراء سيده الصياد.

لماذا الحرص على الحياة الذليلة إلى هذا الحد؟

وما فائدة بقاء الإنسان حيًا وهو يرزح في أغلال الاستعباد؟

هل في الدنيا مَنْ يتصور نفسه دون غيره؟

ذلك الذي لا يستحي من نفسه، لن يستحي من شيء.

لا تظَنَّ سقوط الأمة ينقص من شأنها.

الجوهر الساقط فوق التراب لا تزول قيمته.

لا الظلم ولا الجور بقادرين على محق الحرية.

إن كنت شهمًا، فقف ضدهما كي تثبت آدميتك.

***

2- ضياء باش "1823- 1891 "

من قصيدة الشاعر:

الشاعر شاعر منذ أن تلدهُ أمه.

من أيامه الأولى تتجلى قابلياته.

مواهب الشاعر بينة من عهد صباه.

مزاجه برهان عرفانه.

اللامبالاة سعة كل أفعاله.

مجمل حاله أنه مخالف للجميع.

يبدأ بالمعارضة وهو مازال حدثًا.

يعجز عن التلاؤم مع الأوضاع العامة،

لأنّ الشاعر يقدم إلى الدنيا حرًا.

فمن العسير أن يغلَّ بالقيود.

هو لا يثق بمعتقدات الأغلبية.

المصالح الآنية لا تعمي عينيه عن الحقيقة.

***

3- أبو الضياء توفيق " 1848 -1912 "

مختارات من كتابه المهم : "تاريخ العثمانيين الجدد "جون ترك لر".

"أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني، حصلتُ أكثر مَن مرة، على حق إصدار صحف، لكن ذلك كان السبب في تعرضي للنفي إلى الخارج عدة مرات".

"كنت دائمًا محبًا لوطني ومستعدًا أن أتحمل من أجله كل بلاء، متوقعًا، الملاحقة والنفي في كل وقت، على أنني، شأني شأن بقية أصحابي، لم أكن أخفي أية نوايا شريرة ضد بلادي، النوايا التي أشيع، عني وعن زملائي من الأدباء، بأننا ننوي إظهارها فعلاً ضد السلطة الحاكمة، هكذا وقعنا ضحية افتراءات خصومنا، وأُبعدنا عن الوطن والأهل سنوات طوالا".

"من ناحية أخرى كان المصدر الأوحد للمال الذي نقتات به، ما ننشره في الصحف من مقالات وأشعار وترجمات...إلخ، على أني أصبحت، نسبيًا، أفضل حظًا من رفاقي في جمعية العثمانيين الجدد، حين حصلتُ على مطبعة قديمة أهداها مصطفى فاضل باشا "أخو الخديوي إسماعيل" إلى جماعتنا "أي إليَّ وإلى نامق كمال وشناسي،

وضياء باشا"، لكنهم فضّلوا التنازل عنها لي، كي أتحمل مسؤوليتها وحدي".

"لكِنَّ وظيفة النشر لم تكن مهنةً أمينةً في البلاد العثمانية، إذ كانت المطبعة عرضةً للإغلاق في كل لحظة، وهو ما حصل بالفعل في النهاية، وأدى بنا جميعًا إلى المنفى".

***

من الأمثال التركية (13)

تقديم :

الأمثال أقوال تأتي عفو الخاطر بلا سابق قصد أو تفكير، على لسان أشخاص مجهولين: لم يسجل التاريخ أسماءهم ولا وقت كلامهم، والمثل نوع من التكثيف لتجربة محددة ضمن عبارة مؤثرة وجميلة، وبذلك فهو أشبه ببيت الشعر الذي قد يتحول بدوره، في كثير من الأحيان إلى مثل سائر، على نحو ما كان يقع في شعر المتنبي وابن تمام.

ومن المعلوم أن لكل شعب أقواله السائرة وأمثاله التي تعكس خصائصه الذاتية ومفاهيمه الاجتماعية فضلاً عن ظروف بيئته الطبيعية والإقليمية، هذه الأمثال تتحول في المدى البعيد إلى واعظ أو معلم خفي يقبع داخل نفوسنا وينبري عند الحاجة لإلقاء نصائحه وتوجيهاته فنأخذ بها عن وعي حينا وبلا وعي في أحيان أخرى.

من هنا كان اهتمام الشعوب بأمثالها، وحرصها على تدوينها وحفظها ضمن مصنفات متنوعة الأوصاف متباينة التنظيم والتنسيق.

---

(13) عن كتاب :-

- Siird ve Halk Dilinde Ata Sozleri .

تأليف :-

- E.Kemal Eyubogu – Istanbul 1973 .

من الملاحظ أن للأتراك عناية كبيرة بالأمثال والأقوال السائرة تتجلى في كثرة مؤلفاتهم في هذا الباب، ومما أعجبني منها الكتاب الذي بين يديّ وترجمة عنوانه بالعربية كما يلي "الأمثال في الشعر وفي كلام الناس"، وهو بحسب ما يتضح من عنوانه هذا، يعرض "المَثَل" الواحد، ثم يثبت تحته أبيات الشعر التركي القديمة والحديثة التي ورد فيها ذلك المثل، مذيلاً كل بيت باسم الشاعر الذي قاله، ومن مجموع عشرة آلاف مثل وارد في الكتاب، اكتفيتُ بترجمة خمسمائة مَثَل فقط، استنادًا إلى المثل التركي "القليل يدل على الكثير" دون أن أترجم الأشعار ولا التعليقات.

هذه الأمثال التركية تشتمل على أمثال عربية مشهورة كثيرة، لا يحصى عددها، وهو أمر طبيعي، إذا تذكرنا سيادة اللغة العربية وآدابها وعلومها في العالم الإسلامي أثناء القرون الوسطى، وحتى في عصر الانحطاط، بالإضافة إلى أن "الأمثال تراث إنساني مشترك بين مختلف الشعوب، بسبب انصباب نهر المدنيات المتباينة في مجرى الحضارة الإنسانية الكبيرة الواحدة.

آملُ، أخيرًا، أن يجد القارئ في هذه الباقة من الأمثال التركية ما أحسسته أنا إزاءها من استحسان واستفادة، كي يكون للجهد المبذول مبرراته، والجزاء من جنس العمل.

*** ***

من وقف مستعجلاً جلس نائمًا.

في العجلة الندامة.

الدب الجائع لا يرقص.

متى جاع الذئب هاجم الأسد.

أي شيء لا يلتهمه الجائع وأي كلام لا ينطق به الشبعان.

تعرف فضائل الرجل عند المتاجرة معه.

الشجر يأكله الذئب، والإنسان يأكله الهم.

الشجرة تموت وهي قائمة.

حسنُ الشجرة في أوراقها.

تنثني الشجرة عندما تكون طرية.

حين يأكل الفم يستحي الوجه.

الباكي يشتكي من هم واحد، والضاحك يخفي خمسة هموم.

كلُ باكٍ لابدَّ أن يضحك يومًا.

عندهُ فم، وليس لديه لسان.

القرشُ الأبيض لليوم الأسود.

كلب أبيض، كلب أسود، كلاهما كلب.

عقل أكبر من عقل.

العقل وزير والقلب سلطان.

الطريق إلى العقل واحد.

العقل رأسمال الإنسان.

العقل لا يُباع بالمال.

ليس العقل بالعمر، العقل في نوع التفكير.

عدوٌ عاقل خيرٌ من صديق جاهل.

العاقل يتعلم الأدب من قليل الأدب.

العاقل لا يُخدع مرتين.

فاقد العقل لا يعرف الهموم.

انظرْ بعقلِك واسمع بقلبك.

كلْ وأشربْ مع أقاربك لكن لا تدخل معهم في تجارة.

لا تؤجلْ عمل اليوم إلى الغد.

لكل مساء صباح.

في الأرض المنخفضة يرى التل نفسه جبلاً.

هل تعرف أي إنسان في العالم شبيهًا بك؟

سهلُ أن تكون عالمًا، وصعب أن تكون إنسانًا.

يُغلق الله بابًا ويفتح ألف باب.

لا تقطع حبلَ الرجاء من الله.

لا يفقد الذهب قيمته ولو سقط في الوحل.

يُختبر الذهب بالمحك، ويُمتحن الإنسان بالعمل.

أسألْ عن الذهب الصرّاف وأسأل عن الماس الصانع.

مثل مودة الأم لا وداد، ومثل مدينة بغداد لا بلاد.

كنْ عبدًا للعالم ولا تكنْ سيدًا للجاهل.

مَن جدَّ وجد.

النحلُ يتجهُ إلى الخلية.

اللبيبُ تكفيهِ الإشارة .

لا يخفَى شيءٌ عن العارف.

من شجرة الكمثرى لا يُجنى التفاح.

الأكلُ طُبِخَ والعيدُ انقضى.

العاشقُ تكفيه وردة.

خيارُ العاشق: الصبر أو السفر.

عينُ المحب عمياء.

عين العاشق في حاجة للدموع.

يمت الحصان ويبقى سرجهُ، ويموت الإنسان ويبقى ذكره.

لا يكون السباق بين حصان وحمار.

إذا امتطى التركيُ ظهر الحصان، نسي أباه.

حرفةُ الأب إرث للابن.

لا دخان بلا نار.

النار تحرق المكان الذي تقع فيه.

النارُ فاكهةُ اليوم الشتوي.

مصاحبةُ النار مستحيلة.

لا تلعبْ بالنار.

النار والماء لا يجتمعان.

الباحث عن صديق خالٍ من العيوب، يبقى بلا صديق.

انظرْ إلى نفسك في المرآة وتبين صورتك.

صدقة قليلة تقي بلاء كثير.

قل قليلاً واسمع كثيرًا.

المكتفي بالطعام القليل، يأكل كثيرًا.

الأبُ مالٌ والأمُ مهجة.

الأبُ همّة والابن خدمه.

أرثُ الأب مثل الشمعة، سريع الذوبان.

من لم يكن بارًا بأبيه فلا تتوقع منه الرحمة.

الأسدُ السجين تهاجمهُ الأرانب.

لا حرج على العين.

بلا لسعات النحل لن تحصل على العسل.

حيثما يوجد العسل يتهافت الذباب.

ما لم يلسعني الثعبان فليعش ألف سنة.

يوزنْ الدماغ باللسان.

الجاهل جاهل حتى لو بلغ رأسُه قمة السماء.

ما يأتي مجانًا يذهب مجانًا.

العزوبية هي السلطنة.

الصبرُ واجب عند البلاء.

السعيد قد يظلم لكنه لا يكذب.

ليس عيبًا ألا تعرف وإنما العيب ألا تسأل.

ألف صديق قليل، وعدوٌ واحد كثير.

اسمع ألفًا وقلْ واحدة.

من الشجرة ذاتها نجني الورد والشوك.

ألف قطعة ذهب فداءُ أمل واحد.

أب واحد يغذي تسعة أولاد، وتسعة أولاد لا يطعمون أبًا واحدًا.

أعط بيد واحدة كي لا تعلم اليدُ الأخرى.

لا يقود السفينة قبطانان.

القلب الواحد لا يقبل عشقين.

وردة واحدة لا تجلب الربيع.

الأيام لابدَّ أن تجمع بين المحبين.

بحسن الحيلة تُزاح ألفُ عثرة.

تعرف صاحبك لو سافرتَ معه.

عملٌ واحد أنجع من ألف كلمة.

لا تبدأ عملاً قبل أن تنهي ما بيدك من عمل.

أنْ تمتلك موهبتين شيء كثير.

قبل العمل فكرْ بالعواقب.

مصيبةٌ واحدة تُغني عن ألف موعظة.

قلْ كلمة تسمع كلمتين.

الحائط لا يُبنى بآجرّة واحدة.

واحد يأكل وآخر ينظر، القيامة تقومُ بسبب ذلك,

الاتحادُ قوة.

يضربُ عصفورين بحجر واحد.

نحنُ أيضًا عبادُ الله.

طويلٌ وعقله قصير.

الصباحُ عندنا يطلع متأخرًا.

هذه الدنيا طاحونةٌ وسوف تطحننا يومًا.

هذه الدنيا لا تُبقي على أحد.

يوم لي ويوم لك.

لا تؤجلْ عملَ اليوم إلى الغد.

دجاجةُ اليوم أفضل من أوزة الغد.

يصطادُ في الماء العكر.

من وراء الغيمة يسطع القمر.

فوق الجليد لا يمكنُ الكتابة.

يبكي البلبلُ وتضحك الوردة.

البلبلُ والغراب لا يقيمان في قفص واحد.

وضعوا البلبل في قفص ذهبي، فتحسّر وقال: آه يا وطني!

لسانُ البلبلُ سببُ نكبته.

العظيمُ كلمتهُ واحدة.

الجاهلُ جسور.

الجاهل عدوُ نفسه فكيف يكون صديقًا لغيره؟

شرحُ الحقيقة لجاهلٍ مثلُ تعريفُ اللون لأعمى!

الروحُ تُوزن بالروح.

الجود بالنفس أقصى الجود.

عاقبةُ لسفاهة الندامةُ.

الجمالُ زائل والكمالُ باقٍ.

لا يتم الدخول إلى الجنة بالرشوة.

الإجابةُ بعد فهمِ السؤال.

النار التي تسطع فجأةً تخمدُ فجأة.

لا قرية بلا ثعالب.

العمل يُقصّر اليوم ويطيل العمر.

العمل نصف العبادة.

عن ماهية الصنوبر أسأل الدب.

حيثُ الزهور يوجد العسل.

لا تبحْ بسرك لصغير.

امرأة بلا طفل كشجرة بلا ثمر.

ذهبَ الكثير وبقى القليل.

الأسفار تكسبك المعرفة.

الكلبُ الذي ينبح لا يعض.

النمل قد يقتل جملاً .

الدلال الكثير يقتل الحبّ.

كثيرُ الكلام كثير الخطأ.

كثير الأكل أحمق.

مهما كان ارتفاع الجبل فلابدَّ أن يكون فيه مسلك.

التجوال في الجبل يعرضك للقاء الدب.

قطرة بعد قطرة تكون بحيرة.

من حضر بلا دعوة قعد بلا وسادة.

صوتُ الطبل جميل على مبعدة؟

الجنون فنون.

قلبُ الأحمق في فمه، ولسان الحكيم في قلبه.

المبتلّ بماء البحر لا يخشى المطر.

من أخفى مرضه لم يجد العلاج.

المهموم لا يفهمه إلا المهموم.

هل يمكن للنملة أن تسحب أحمال الجمل؟

النجاح لا يأتي ماشيًا على قدميه.

أبواب النجاح مفتوحة لكل إنسان.

طيرُ السعد يحطّ على الرأس مرةً واحدة.

للقوى يقولون بلي، وللضعيف يقولن دلي؟ "مجنون".

ظاهرهُ مستقيم وباطنُه أعوج.

إنْ لم تر قعر البئر فلا تشرب ماءه.

حدُ اللسان أرهف من حد السيف.

الموضع الذي لا يبلغه اللسان لا تبلغهُ اليد.

مَنْ لا يضحك مع الأحياء لا يبكي على الأموات.

قائل الحقّ لا يموت.

قولُ الحق لا يحوج إلى يمين.

هل يفهم الخنزير قيمة الجوهر؟

كلامُ المحب مؤلم.

صديقك من لا يضرك.

لا تكن مدينًا لصديقك.

صاحبُ الوجهين كدولاب الهواء الدوار.

أمسِ خرجَ من البيضة واليوم لا تعجبه القشرة.

الدنيا واحدة والواجبات ألف.

الدنيا لا قرار ولا ثبات لها.

لا حياة بلا أمل.

للدنيا ألف حال.

المالُ علةُ مصائب العالم.

لا تجعلْ الدنيا سجنًا لرأسك.

هل خُلقتْ الدنيا من أجلك أنت؟

انهض من موضع سقطتك سريعًا.

إذا زاد عدد أعدائك فالفرار رجولة.

الأدب أحسن ميراث.

لا تنتظر العمل الصحيح من صاحب النظر الأعوج.

ليس من الإنصافِ ألا يتعارف أهل اللسان.

تحصد ما تزرع.

يده طاهرة ووجهُه أغر.

الرجل يستخرج الخبز من الحجر.

المرأة هي التي ترفع الرجل، وهي التي تحطه.

الذئبُ العجوز لا يضل طريقه.

من لا قديم له، لا جديد له.

لا تشترِ الدار واشتر الجار.

ربُ الدار خادمُ الضيف.

البيتُ السعيد تصنعُه المرأة.

عندك ولد، فاحتمل الهمّ.

الرفيق قبل الطريق.

صبرُ أيوب ليس ميسورًا لكل إنسان.

ليس الفقر عيبًا لكن الكسل هو العيب.

عادةُ الفَلَك الدوران.

الفتوة تليقُ بالأبطال.

الطيرُ الغافل يكثرُ صيادوه.

الغائبُ عذره معه.

الغالبُ قد يصبحُ مغلوبًا.

الغريبُ للغريب نسيبُ.

فورة الغضب تزيل العقل.

الليالي حبالى.

ما مضى مضى، وعليك بالمستقبل.

قيمةُ الشباب تُعرف عند الشيخوخة.

لا تفكرْ كيف تدخل – فكَرْ كيف تخرج.

إن لم تبك السماءُ لم تضحك الأرض.

في البحر لا يُفتقد الماء.

القلبُ بيتُ الله.

سرور القلب أفضل من المال.

الجميلُ كلُ من أحبه القلب.

بين القلوب سواقٍ.

تنامُ العين ولا ينام القلب.

ليس إغماض العينين عمى.

الأذُن تعشق قبل العين أحيانًا.

العينُ بالعين والسنُ بالسن.

العمرُ المنقضي في الغربة ليس بعمر.

لا يأتي الوردة ضررٌ من أشواكها.

قيمة الزهرة يعرفها البلبل.

البيتُ الذي لا تدخله الشمس يدخله الطبيب.

الكلام الجميلُ يفتح باب الحديد.

النظرُ إلى الجميل ثواب.

أعرفْ حدودك.

الخائنُ للخائن، والأمين للأمين.

إحقاقُ الحقِ إزهاقٌ للباطل.

ما يأتي بغير حق، يذهبُ بغير حق.

الحركةُ بركة.

الحاسدُ يظلُ في حرمان.

حال المريض لا يعرفها السليم.

المرض أسهل من العناية بمريض.

كل إنسان معرّضٌ للخطأ.

الحياءُ سرُ الإيمان.

من لا يستحق لا يعرف الإنصاف.

حلالُ المال لا يضيع.

زيادةٌ وتجارةٌ.

لكل شجرة ظلٌ.

إزاء كلّ أحمد، يظهر أبو جهل.

ليس كلُ النحل يصنع العسل.

لكلِّ زهرةٍ عطرها.

لكلِّ وجعٍ دواء.

في كل قلب يرقد أسد.

ليس كلُ عليٍ حيدرة.

لكل إقبالٍ إدبارٌ.

لكل منحدر مرتقى.

ليس كلُ ما يتوهج ذهبًا.

لا تتدخل فيما لا يعنيك.

الأعمال بخواتيمها.

كلُ طير يعجب بعشه.

لكل موسم فاكهة.

لكل صنعةٍ أستاذُها.

لا تقل كل ما تعرف فللأرض آذان.

من الماء كلُ شيءٍ حي.

كلُ شيء ينظر إلى الوقت، والوقت لا ينظر إلى شيء.

جيبه مملوء وقلبهُ فارغ.

كلُ شيء يقاس بضده.

لكل عسرٍ يسرٌ.

لكل مأكول فائدة.

ليس كلُ مَنْ يضحك لك، صديقًا.

كل إنسانٍ يقولُ ما يعرف.

كل إنسان معجب بعقله.

كلُ يأخذ نصيبَهُ.

لا تسافر مع مَنْ لا تعرف.

اللصُ في غير حاجةْ إلى مفتاح.

سلْ عن الحكمة لقمان.

حقُ المعلم حقُ الله.

تنبت الزهور في الموضع الذي يلمسه المعلم.

قيمة الموهبة يعرفها أصحابُ المواهب.

لا تشرب ماء العنب لئلا تفقد ماء وجهك.

لا تحفر البئر بالإبرة.

تقاتل شقيقان فصدق الأبلهُ ذلك.

الكرم يُضاعف الخير.

أطلب العلم ولو في الصين.

العلمُ يكسبك الأصدقاء، والمالُ يكسبك الأعداء.

العلمُ عزٌ لصاحبه.

الظالمُ لا يمكن أن يكون مؤمنًا.

الإنسانُ في احتياج للإنسان.

المرءُ مرآةُ أخيه.

الحيوانُ لا يعرف قدر الإنسان.

الإنسانُ يتعلم من غَلَطه.

مثلما يكون الإنسان في السابعة من عمره، يكون في السبعين.

الزمنُ أحسنُ مؤدب.

العلمُ يفتح بابًا للعمل.

البطالةُ أم المصائب.

حين يجوع الكلبُ يسرق.

عند المصائب تُعرف الإخوان.

أصدقاء الأفراح كثر.

من لا يعرف الخير ليس إنسانًا.

من يفعل الخير يجدْه.

فاعلُ الخير غريب.

المرأة شريكةُ الرجل وشمسُ بيته.

القناعةُ كنزٌ لا يفنى.

قولُه لا يناسب فعله.

قالت السلحفاة وهي تنظر إلى درعها: ما أعظم قصري!

نظر الغرابُ إلى صغيره وقال مفتخرًا "يا ولدي الأبيض الطاهر".

من لم يطعم القطَّ أطعم الفئران.

هو الضارب وهو اللاعب.

كما تنظر إلى نفسك ينظر إليك الناس.

شاور محفظتك ثم أذهب إلى السوق.

الدليلُ غير محتاج إلى مَنْ يدله على الطريق.

الغيورُ أعمى.

قلْ لي مَنْ صديقك أقل لك من أنت.

إلى هذه الدنيا يقدم الإنسان مرةً واحدة.

كلُ بلد في عين أهله أعظم حتى من بغداد.

الجار أدرى بحال الجار.

إن كنتَ بين العميان فأغمض عينيك تشبهًا بهم.

من الحديد الصدئ لا يُصنع السيف.

قائلُ السوء لا يسمع خيرًا.

الخيرُ لا يولد من الشر .

زارعُ الشر يحصد الندم.

ابنُ الذئب لن يكون غير ذئب.

الراعي لا يخافُ الذئب.

الطيرُ لا يستثقل جناحيه.

يجرحُ الرأسَ أصغرُ الحجر.

لا تدور الطاحونةُ بالكلمات.

لا يغرنك كُلْكٌ أو مال.

يُوزن المال بالمال، وتوزن الروح بالروح.

في المجلس قَصِّر لسانك، وعلى المائدة قَصِّرْ يدك.

المشورةُ سُنَّة.

تتساقط الأحجار على الشجرة المثمرة.

لا شيءَ في الدنيا أثقل من المنْة.

مع الضيف تدخل البركة.

شركةُ المحبة لا تقبل القسمة.

مداراةُ العدو سجنٌ للروح.

لا تقل ماذا كنتُ قل: ماذا سأكون.

لا سلامٌ عليكم، ولا عليكم السلام.

لا طعمَ له ولا ملح.

مصارعةُ النفس أصعبُ من مصارعة العالم كله.

لا تنصح الناس بشيء لم تجربه.

من عرف نفسه عرف ربه.

حيث الاتحاد فهناك الحياة.

من قهر نفسه فهو الرجل.

اجلسْ كلما تعبت.

النفاقُ عدوُ الصداقة.

نيسان لا يكون بلا مطر، وأيار لا يكون بلا زهر.

إذا كانت النية حسنة فالعاقبة حسنة.

ذلك عيب وهذا عيب، ماذا يصنع شعيب؟

تلك السيول جاءتنا بهذه الرمال.

انطلق السهم من القوس.

ذلك الذي يكتب بلا معرفة للقراءة إنما هو مفسد العالم.

لكل علة علاج إلا الموت.

الذلُ أسوأ من الموت.

العمرُ غمضةُ عين.

الرفيق قبل الطريق.

ما يعمله السلطان يكون قانونًا.

لا يأكل القسَ الرزَ يوميًا.

المال لا يكسبني، أنا أكسبه.

المال يمكن اكتسابه أما العافية فلا.

لا تكن عبد المال.

وجهُ المال دافئ.

مالهُ كثير وعقلُه قليل.

من رفع من شأن ماله أنزل من قدرِ نفسه.

لا أحد يصطحب ماله إلى القبر.

اشترينا دبسًا فوجدنا عسلاً.

البرلنتي يُستخرج من الحجارة السوداء.

بغداد تكون دانية لو كان لك رفيقُ طريقٍ مخلص.

الصبر مر لكنَّ ثمرته حلوة.

لا تأمن الرياح.

إذا دخلت الرشوةُ من الباب، خرج الإيمان من الشباك.

لا تندف القطن عند هبوب الريح.

الصبر أساس العلم.

عاقبةُ الصبر السلامة.

صديقٌ مخلص خيرٌ من قريب غادر.

نصائحُ الصديق موجعةٌ.

العقلُ السليم في الجسم السليم.

الملك لا يبقى لإنسان.

من أساء إليك فأحسن إليه.

من نقل إليك الكلام نقل عنك أيضًا.

الحرفةُ سوارُ ذهبٍ.

سلامةُ الإنسان بحفظ اللسان.

أنت أنت وأنا أنا .

العالم واسعٌ أمام السائح.

لا تبح بسرك لصديق فقد يتحول إلى عدو.

إن كان بيتُك من زجاج فلا ترمِ جارك بحجر.

أنت تبحث عن صديق كاتم للسر، من أجل أن يذيعه.

الكلامُ واحدْ واللهُ واحد.

مَنْ يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا.

من تفكر بالعواقب جبن.

الكلب الأصيل لا يعضُ صاحبه.

إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب.

بقدر ما يكون الكلام رخيصًا، يكون العمل غاليًا.

كن رجل قول وفعلٍ.

الماءُ ينظف كل شيء إلا سواد الوجه.

لا يمكن النقش على الماء.

الماءُ يعرفُ مجراه.

ليكن العقابُ من جنس الجريمة.

السمك وهو في النهر لا يمكن المساومةُ عليه.

لا تنظرْ إلى الصورة وانظرْ إلى السيرة.

الشجرة الظمأى لا تثمر.

السكوتُ من الرضا.

ليس الشبُ والسكّرُ شيئًا واحدًا.

عديمُ الشفقة لا يلقى الشفقة.

أقلُ الشرِ كثيرٌ أيضًا.

من رأى البرق فلن يخافَ الغيم.

قلّلْ الطعام وقلل الكلام.

لو كان ليّ حظٌ لولدتني أمي بنتا !

كثيرٌ من الناس يشكون سوء الحظ، ولا أحد يشكو كمالَ العقل.

أخشَ السهمَ الذي يرميهِ اللهُ.

يبقى الحجر حيث سقط.

اللسانُ الحلوُ يخدعُ كثيرًا من الناس.

كنْ حلوًا وقلْ حلوًا.

كلُ السرور في تغيير المكان.

الكسولُ يعتذر بعدم الاقتدار.

قالوا للكسول اغلق الباب فقال: سوف تهبُ الريح وتغلقها.

الخالةُ نصفُ أم.

ما يأتي فجأة يذهب فجأة.

في ظلِ الثعلب لا يختبئُ الأسد.

هل يؤمَنُ الدجاجُ في بيت الثعلب؟

المتخم لا يعرفُ حالَ الجائع.

الأرض أمّنا جميعًا.

إذا أذهبتْ إلى دعوة فأذهب وأنت شبعان.

أبواب التوبة مفتوحةٌ دائمًا.

الطمعُ يسلب لُبَ المرء.

الببغاء تنطق لكنها لا تكون إنسانًا.

الترابُ الذي ألمسه يتحول إلى ذهب.

لا ألذ من الملح، ولا أعز من الماء في الدنيا.

من جهلَ اللغة التركية لم يتقِ الله!

ينسلُ الثعبانُ من حفرةٍ خفية.

في الموضع غير المأمول يطلع الكنز.

لا يأسَ مع الحياة.

العاقلُ لا يتواءم مع المجنون.

النومُ موتٌ قصير.

بعد النوم تأتي اليقظة.

لا توقظ الفتنة الراقدة.

الليلةُ الطويلةُ نهارُها قصير.

من الممكن الهجرةُ عن الوطن لكن من غير الممكن هجر العادات.

الأمل خبزُ الفقير.

الوحدةُ راحةٌ.

الوقتُ يمضي والصغارُ يكبرون.

الوقتُ نقدٌ.

كلُ شيءٍ له وقتُه.

لا تثقْ بأيام النعيم.

لا تبعْ وجودَك بالمال.

الوطنُ أحلى من بغداد، ست البلاد.

صديقٌ بلا وفاء شمعتْه بلا ضياء.

وراءَ الأكُمَة ما وراءها.

اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى.

يدُ الجواد لا تتعرض للقطع.

يتضاعفُ المال بالجود.

إما غازٍ وإما شهيد.

إنْ كنت كذوبًا فكنْ ذَكورًا.

الدنيا غَرَّاره.

احترقَ بيتُ الكذاب فلم يصدق ذلك أحد.

سفينةُ الكذاب لا تسير.

سَماعُ الكذبِ أصعبُ من النطق به.

الكذبُ يُقابَل بالكذب.

الوحدةَ جديرةٌ بالله.

الحريقُ يُطفأ بالماء.

بدون القوس لا يُرمى السهم.

ما يأتي مع الريح يذهبُ مع السيل.

من الصديق الجديد لا تتوقع الوفاء.

مالُ اليتيم ثوبُ من النار.

بخبز البطل بتربي بطل.

البطلُ لا يُقتل بالسيف، وإنما بكلام السوء.

بالسؤال يُستدلّ على الطريق.

داوم على السفر، لكن لا تمضِ بلا رفيق.

الرجلُ لا يموت تحت ثقل حمله.

لا تدور الطاحونُة بماء الوجه.

من رام أن يعيش مائة سنة احتاج إلى صبر مائة سنة.

الوجهُ يَستحي من الوجه.

الباطنُ يجب أن يطابق الظاهر.

لا يكون شيء بلا مشقة.

البطل يُعرف في الميدان.

كلُ ظالم يلقى جزاءه.

إذا كان الزمان لا يتناسب معك فتناسبْ أنت معه.

الخسارةُ أختُ الربح.

من خاف الخسارة فلن يربح.

الضرورات تُبيح المحظورات.

الغني يأكل من ماله، والفقير يأكل من مهجته.

معطي المال للغني، كحامل الماء للبحر.

بالظلم تؤول الدنيا إلى خراب.

من خلال الظلام يولد النور.

الظالم نادم.

من لم يعرف المر لم يعرف الحلو.

تضحكُ الشجرةُ بأوراقها.

العمُّ نصفُ أبٍ.

بدون وجود الغمام لا يكون المطر.

الصديقُ مَنْ أرشدك إلى الطريق القويم.

الشبابُ لا يَطرق البابَ دائمًا.

حتى الطير لا يطير بدول دليل.

لو كان الكمالُ باللحية لصارت الشاةُ مستشارةً.

مَنْ مات غريبًا مات شهيدًا.

من لم يعرف يومَهُ لم يعرف غدَهُ.

الكلبُ أفضلُ من الكذاب.

من خاف النار خشي التبغ.

سوءُ حظ الحصان يقع على العربة.

القمر ينسجم مع السماء المطرزة بالنجوم.

الكلبُ الذي يعض لا يُظهر أسنانه.

أهل العلم يُرشدون الجُهّال إلى الطريق القويم.

العلمُ يُعزُّ أهله والجهلُ يُذلهم.

العملُ مرآةُ الإنسان.

له اسمٌ وليس له جسم.

جامل الأصدقاء ودارِ الأعداء.

في هذه الدنيا كلُ شيء ممكن.

الدنيا دارُ طمع.

تنفَذُ الدنيا ولا ينفذُ الكذب.

لا رجلَ بلا أعداء.

يأكلُ الدنيا ولا يشبع.

الخادم هو الذي يجعل سيده سيدًا.

بالمسطرةِ المعوجة لا يُرسم خطٌّ مستقيم.

يجهل كيف يزرع، ويعرف كيف يحصد "يقطع".

ما خرج من اليد لن يدخلها ثانيةً.

بابُ اليد لا تُفتح بسهولة ولا بسرعة.

النظافةُ من الإيمان.

عينُ الحطّاب على الشجرة.

لا تُعمل "الزرده" من الرز وحده.

الخَلُ الحامضُ بركةُ البيت.

من أتقى الله لم يخشَ أحدًا.

كلُ الناس يواسون اليتيم، لكنَّ أحدًا لا يتكرم عليه بالخبز.

لا ينجز العملُ بالكلمات.

*** ***

المصادر والمراجع

1- المصادر والمراجع التركية :

1- Turk Edebiat. Tarihi Seyit Kemal Kara Ali Dglur- Istanbul 1952.

2- Edebiyata Dair- yahya Kemal- Istanbul 1984.

3- 50 Yilik Turk Edebiat- Rauf Mutiu Ay- Istanbul 1976.

4- Kucuk Trk Islam Ansikjopedisi- Milli Eigtme Basimevi

5- Meshur Adam Lar- Ibrahim Alaettin- Istanbul 1935.

6- Diyorlar Ki – Rusen Esref.

7- Tamzimat Doneminde Edebiat Ahlauis Olcay Onertoy – Konya1981.

2- المراجع الإنجليزية :

1- Alison Phillis- Modern Europe- Landon 1915.

2- C.H Hayes – New York 1925.

3- Fawn Brodie – The Devil Drives [A Life of R. Burton].

4- Lesley Bla nch – The Wilder Shores of Love- New York 1954.

5- M. S. Anderson – London 1970- The Great Powers and the Near East.

3- المراجع التركية " التنظيمات":

1- Ibrahim Alaettin – Meshur Adamlar – Isbanbuul 1935.

2- Ibrahim Alaettin Isbanbuul – Tufk <eshurlari – Ansiktopedisi .

3- Milli Egitim Basmevi- Kuculs Turk Islam AnsiklLopedisi-1974.

4- Olcay Onertoy- Konya 1981- Tanzimat Donemihde Edebiyat Anlay.

5- Rauf Mutluay – 50 Yilik Turk Edebiyati – Istambul 1976.

6- Rusen Esref Unaydin Diyorlar K.

7- SEyit Kemal Kara Ali Ogly- Turk Edebiat. Tarihi- Istanbul 1982.

8- Yabya Kemal Beyati.- Edebiyata Dair – Istanbul 1984.

4- المراجع العربية : -

1- لوتسكي – تاريخ الأقطار العربية الحديث- موسكو 1971.

الفهرس

الموضوع	صفحة
- المقدمة	3
- من رائدات النهضة التركية الحديثة:- الكاتبة/ خالدة أديب – 1884-1964	5
سيرة موجزة للبروفسور عدنان آدي فار- زوج خالدة أديب- 1883 – 1955	40
- توفيق فكرت 1867-1915 - شاعر الحرية والتجديد	42
- حكومة الاتحاد والترقي	53
- الشعر والحياة	65
- أتاتورك وتوفيق فكرت	93
- من نوابغ الكتاب الأتراك هاليكارناس بالجي سي - "1886-1973"	110
- بيامي صفا - 1899 – 1961 - الكاتب التركي الموسوعي	158

الموضوع	صفحة

- أورهان ولي قانيق - 1914-1950- رائد الشعر الحر في تركيا

نغار هانم- الشاعرة التركية المعاصرة الأولى 163

- الروائي التركي الشهير كمال طاهر- 1910 - 1973 167

- من ثمار فرمان التنظيمات- ظهور الأدب التركي الحديث - 195

- نحو التنظيمات 211

- نقد التنظيمات 221

- التنظيمات والأدب الجديد 225

- نثر التنظيمات 238

- شعر التنظيمات 243

- أشهر صحف التنظيمات 246

الموضوع	صفحة
- نماذج من أدب التنظيمات	248
- من الأمثال التركية	252
المصادر والمراجع	286